

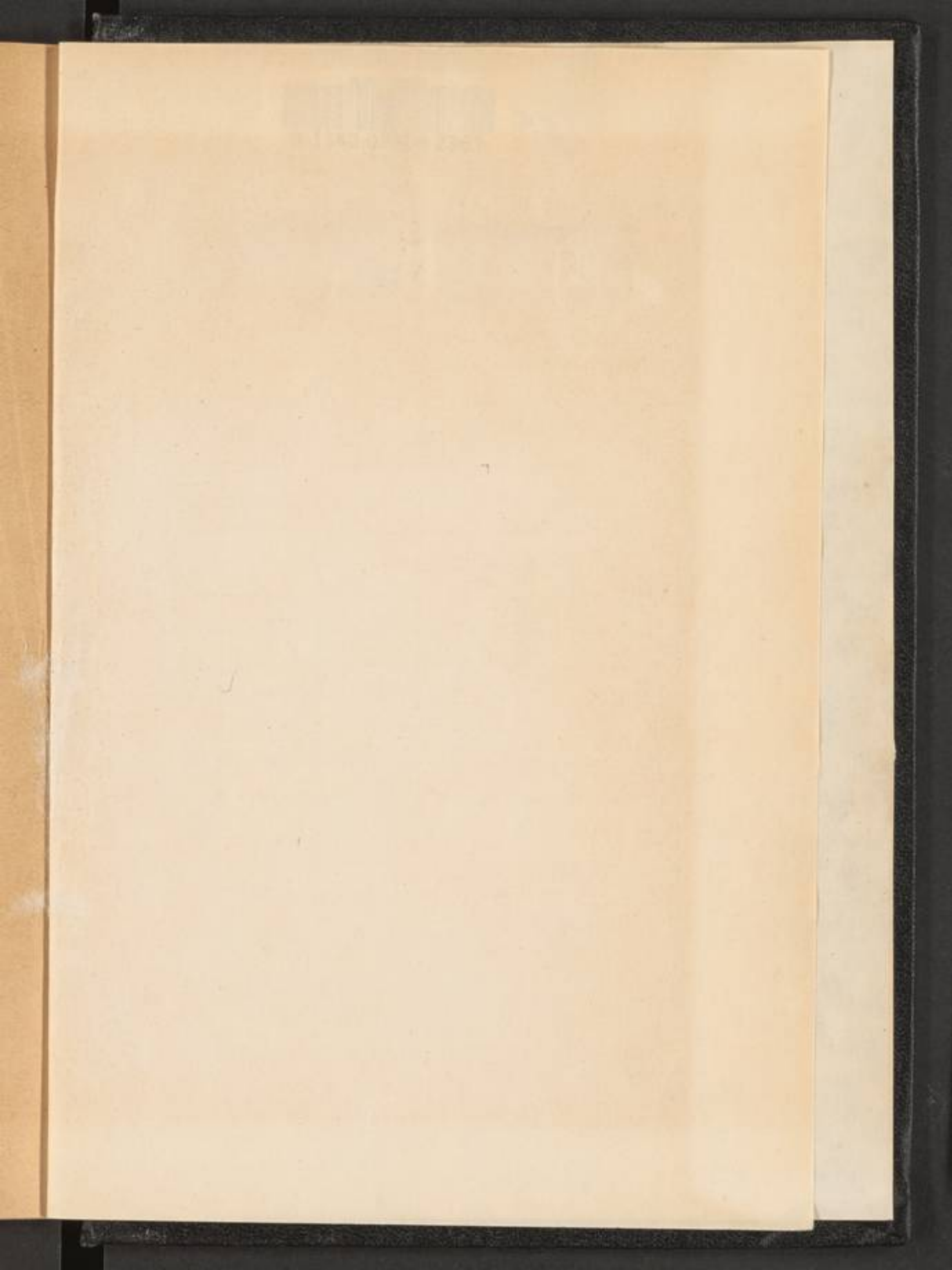
BOBST LIBRARY



3 1142 02909 2361

#5.50

DATE DUE



Farrūkh, 'Umar

شاعران معاصران

ابراهيم طوقان و ابو القاسم الشابي

Shā'irān mu'āṣirān

تأليف

مكفروني

دكتور في الفلسفة

عضو المجمع العلمي العربي في دمشق

عضو جمعية البحوث الإسلامية في بومباي

الطبعة الاولى

بيروت

١٩٥٤

مَنشورات

المكتبة العلمية ومطبعتها

شارع الامير بشر - بيروت

٥٤/١٢/٣٠٠٠/١

مكتبة جامعة القاهرة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

PJ

7064

U 693

L 65

c. 1

الطبعة الاولى

•

ربيع الثاني ١٣٧٤

كانون الاول ١٩٥٤



الاهداء

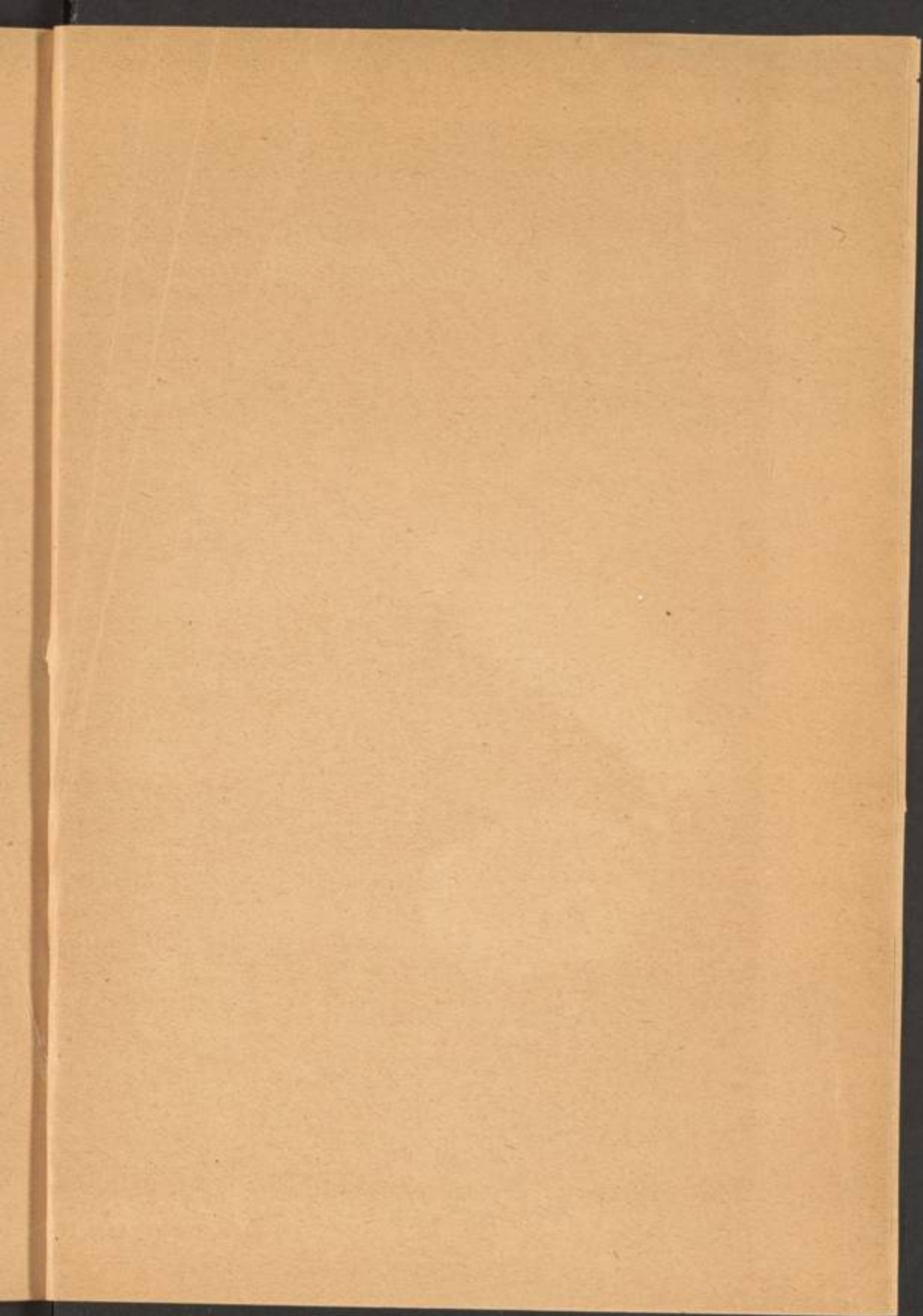
إلى صديقي وصديق ابراهيم طوقان المستشرق الاستاذ الدكتور

عبدالرحمن نيكل

A (lois) R (ichard) NYKL

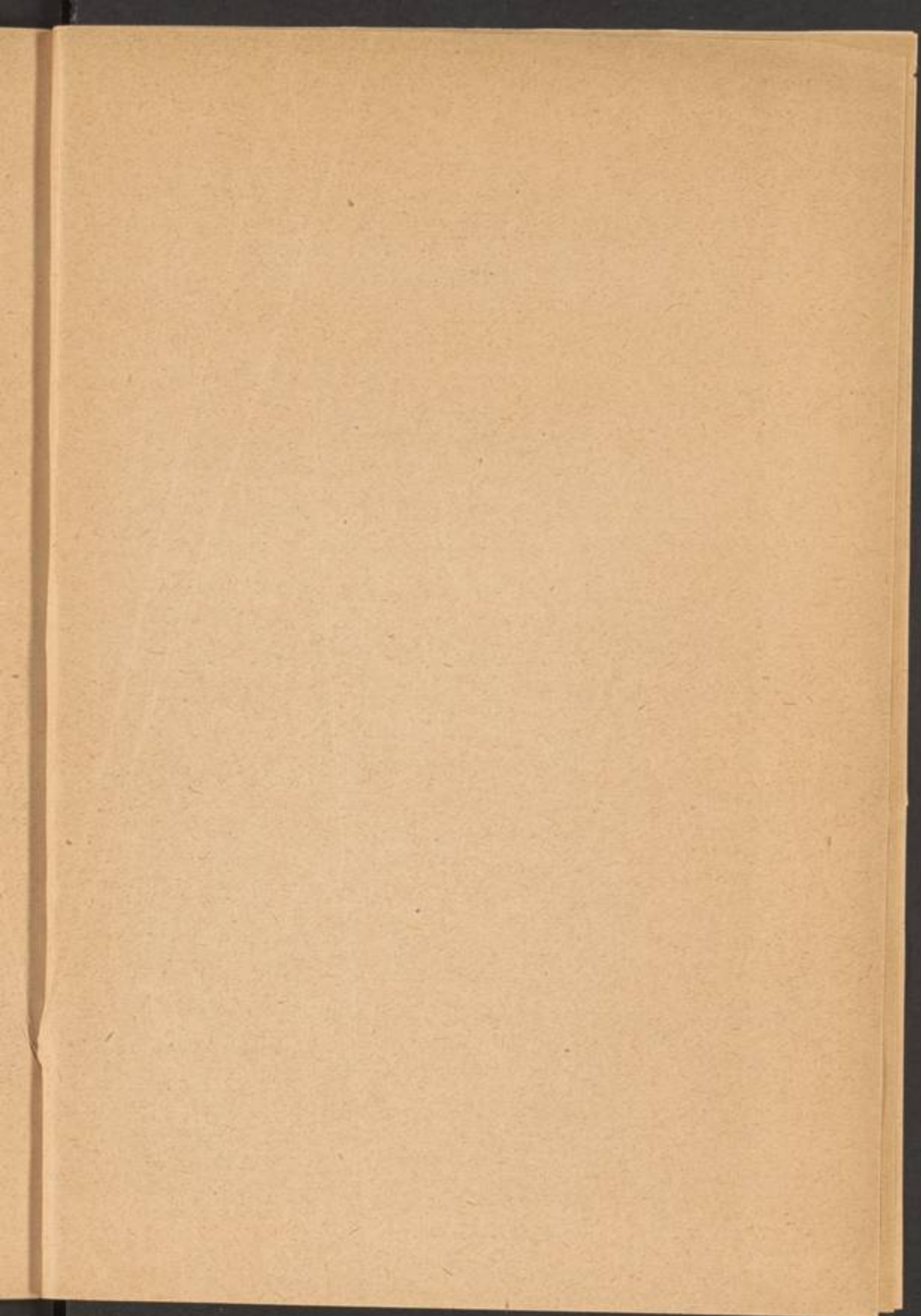
لماله من الجهود الطيبة

في البحوث الاسلامية والعربية



فهرست الكتاب

	الاهداء
٣	الكلمة الاولى
٩	مصادر هذه الدراسة ومراجعتها
	ابراهيم طوقان (١٩٠٦ - ١٩٤١)
١٣	ترجمة ابراهيم طوقان
٧٠	خصائص شعر ابراهيم
٨٣	اغاريد الهوى
١٠٤	تجار السياسة والوطن
١١٧	المجاهدون الاول
١٢٢	اناشيد
١٢٨	الموضوعات
	ابو القاسم الشابي (١٩٠٩ - ١٩٣٤)
١٥٢	بيئته العامة
١٥٦	موجزة ترجمته
١٦٣	عناصر شخصيته
١٦٦	خصائص شعره
١٨٩	الغزل عند الشابي
٢٠٠	الطبيعة في شعر الشابي
٢٠٧	السياسة والقومية
٢١٨	الرتاء وما يلحق به
٢٢٤	الموضوعيات
٢٣٨	التأمل في الحياة
٢٥٤	الفهرست الاليجدي



شاعران معاصران

كان من حق هذا الكتاب ان يظهر منذ نحو سنتين ، ولكن لم يقدر له ذلك إلا اليوم . وكم من كتاب بسدالي ان اكتبه وأعلنت عنه ثم مرت السنوات الطوال من غير أن أستطيع أن أبرّ بوعدني . ومثلي في ذلك ايضاً مؤلفون كثار ارادوا ان يضعوا كتباً فشغلتهم الدنيا او حالت دون تحقيق إرادتهم المنون او مرت الليالي سراعاً حتى اصبح ما كانوا يظنون ان الناس بحاجة ماسة إليه نَفلاً لا حاجة إليه ابدأ . وكم في ضمير الانسانية شعوب ومدنيات وهياكل كان يجب ان تزدهر ثم لم تفعل لأن طريق الانسانية لم يكن مُعبداً لها ولا كانت الأحوال مؤاتية لازدهارها .

إن الارادة عنصر إنساني نبيل لأنها مظهر من مظاهر الحياة الانسانية العاقلة ؛ ولكن الارادة وحدها قلما افادت صاحبها غير التعلل بأوهامه زمنياً . إن المهم في الحياة العملية الواقعة هو العمل ، ولعلنا من الناحية العملية نقدر على الشيء ثم نريده . اما إرادته وحدها - أي ارادة القيام بعمل ما - فليست سبيلاً الى القدرة عليه . إننا نرى في الحياة ان ارادة الافراد والشعوب والامم تتأخر احياناً زمنياً طويلاً حتى يصبح بمقدور الافراد والشعوب او الأمم ان يحققوا ارادتهم؛ عندئذ تبرز ارادتهم بروزاً يمكنهم من ان يتخذوا لأنفسهم مكاناً في موكب التاريخ .

ان طريق البشرية مخطوط في صفحة هذا العالم ولكن تحف به احوال كثيرة . وعمل

الانسان ليس بتبديل الطريق بل اغتنام الفرص للاسراع في قطع تلك الطريق او لتسهيل قطعها عليه . اما الارادة التي تبدل وجه التاريخ فهي الارادة التي يسبقها الفكر وإدراك الاحوال المحيطة بطريق الانسانية . وحينما تصبح للانسان قدرة على تحقيق ارادته ، فحينئذ فقط يصبح لارادته قيمة .

٥

يتناول هذا الكتاب شاعرين معاصرين لنا ، كانا من احياء النصف الأول من القرن العشرين . ووجه القران بينهما في كتاب واحد كثرة أوجه الشبه في حياتهما الخارجية وفي معظم شعرهما :

لقد عاشا كلاهما في فترة قريبٍ احدُ طرفيها من الآخر : وُلد ابراهيم طوقان قبل ابي القاسم الشابي بأربع سنوات ، ولكن توفي بعده بسبع سنوات . وكذلك حمل كل واحد منهما مرضاً خطيراً ثم قطع به شوط الحياة من غير ان ينقص ذلك من مقدار انتاجه الوجداني او من قيمته شيئاً ؛ بل لعل هذ المرض الخطير قد أذكى في نفس صاحبيهما كليهما جذوة الشعرية . ولعل من أبرز تشابه حياتهما الخارجية ان كل واحد منهما اشتد مرضه في اواخر ايامه فنقل الى مستشفى اجني في عاصمة بلاده ثم توفي فيه فنقل في اليوم التالي الى مسقط رأسه ليحتفل آله وصحبه بدفنه : توفي الشابي في المستشفى الايطالي في تونس العاصمة ، وفي اليوم التالي نقلت جثته الى مسقط رأسه الشاتيّة . وتوفي ابراهيم طوقان في المستشفى الافرنسي في القدس ثم نقل جثمانه في اليوم التالي الى نابلس .

اما في الشعر فكلاهما امتاز بقريحة فياضة وبنفحة شعرية عامرة بالقوة، وكلاهما توفّر على الغزل والوطنية عازقاً عن فنون التكسب من مديح ورتاء ومماثلة . ولا ريب في انهما كليهما تركا في قوميتهما خاصة وفي العرب عامة اثرأ بارزاً .

على ان بين الشاعرين ايضاً أوجه خلاف اساسية او غير اساسية ، ولكن هذه هذه الأوجه من الخلاف إنما هي ايضاً سبيل من سبيل الموازنة :

جاء ابراهيم طوقان من أدنى الجناح الأيمن الشرقي للعالم العربي . من فلسطين .

وجاء الشابي من أدنى الجناح الأيسر الغربي للعالم العربي ، من تونس . وكما ان الاستعمار
الافرنسي ما زال يرهق تونس منذ نحو سبعين سنة، منذ عام ١٨٨١ للميلاد، فان الاستعمار
الانكليزي لم يحتاج الى اكثر من ربع قرن حتى يقضي على عروبة فلسطين . فاذا ظهر شيء
من الخلاف في حياة ابراهيم طوقان وحياة الشابي ثم في شعرهما فانما مرد ذلك الى
الاختلاف في حال وطنيهما .

وكان الشابي شقياً في زواجه بينما كان ابراهيم طوقان هانثاً في زواجه مطمئناً . من
اجل ذلك اندفع الشابي بعد زواجه الى الزلل في موطن الهوى بينما زواج ابراهيم طوقان
كان منقذاً له من الزلل القديم وعاصماً له من كل زلل مقبل .

وامتلاً شعر ابراهيم طوقان بالامل - على الرغم مما كان يرين عليه احياناً من مظاهر
التشاؤم والخوف على مستقبل وطنه . اما الشابي فكان شاعراً متشائماً يائساً يحاول ان
يزين شعره احياناً بشيء من روح الامل والتفاؤل . إلا انه كان متقلباً بين الامل واليأس،
وكان اليأس عليه اغلب .

اما انا في هذا الكتاب فعارض "لا موازن: اني اعرض على القارئ ما عرفت من حياة
هذين الشاعرين وما ادركته من خصائص شعرهما . ولكنني لن آخذ نفسي بالموازنة بين
شعرهما ولا بالتعرض لتفضيل بعضهما على بعض لأن ذلك يقتضي ان يزيد حجم هذا الكتاب زيادة
كبيرة فضلاً عن ان المفاضلة بين شاعرين مثل اللذين نحن بصددهما غير ذات جدوى كبيرة .
ولعل قارئ هذا الكتاب سيأخذ علي انني كنت اكثر تبسطاً وتدقيقاً في دراسة حياة
ابراهيم طوقان وشعره مني في دراسة حياة الشابي واشعاره . ان سبب ذلك ظاهر .

ان ابراهيم طوقان اخي وصديقي عشت واياه ست سنوات في بلدي بيروت وسنة في
بلدته نابلس وسنة في بغداد ثم كانت بيننا في اثناء ذلك مراسلة لم تنقطع منذ ان عرفته
عام ١٩٢٣ الى الشهر الذي سبق وفاته ، نيسان ١٩٤١ . ولا تزال رسائله كاملة بين يدي
اقلها وانا اضع هذا الكتاب . وكذلك كان بين يدي ، وانا اضع هذا الكتاب ، مجموع شعره
بخط يده او بخط اخيه الاستاذ احمد طوقان منقولاً عن نسخة بخط يده هو .

اما الشابي فلم اعرف سوى بعض شعره وبعض ما كتب عنه ، ولا يزال لدي مشاكل
كثار في حياته واشعاره لم استطع حلها . واذا كان بعض شعر الشابي المعروف مفروقاً
فرقين : فرقاً قاله الشاعر قبل ان يبلغ العشرين وفرقاً قاله بعد العشرين ، فان قصائد ابراهيم
طوقان مؤرخة لدي بالعام والشهر واليوم احياناً . حتى ان هنالك قصائد اعرف تطور
نظمها من خطه هو في رسائله إلي او في دفاتره التي دون فيها اشعاره ، اضف الى ذلك
اني اعرف الملابس التي احاطت بمعظم قصائده .

ومع ان الشابي اليوم اشهر في العالم العربي من ابراهيم طوقان ، فان الذين درسوا
ابراهيم طوقان وشعره كانوا احسن تقيداً بالبحث العلمي وابرع في استخراج خصائصه
الفنية ، فالطريق الى دراسة شعر ابراهيم طوقان احسن تمهيداً من الطريق الى شعر الشابي .
ولقد كنت انا دائماً اشعر ان دراسة شعر ابراهيم طوقان واجب ملقى على عاتقي ،
لا لأنه صديقي فحسب ، بل لأنني - بما لدي من رسائله وبما اعرفه من حياته الجديدة وبما
كان يفضي اليه من سريرة نفسه - اجدر من يتصدى لذلك ، على الرغم من اعتقادي بان
ثمت عقبات كثيرة تعترض سبيلي دون الوصول الى الكمال في ما ارجوه وما اتعرض له .



اما الشابي فاني لا ازال اعتقد انه شاعر مهمل ، ذلك لأن الذين درسوا حياته
وأثاره انما حرصوا على ان يروا مظاهره الخارجية ، انهم لم يحاولوا ان يستنطقوا الشابي
ترجمة حياته - كما فعلت انا في ترجمة ابراهيم طوقان - ولا ان يستخرجوا خصائصه
الفنية واضحة متحيزة . وليس الذنب كله في ذلك على الدارسين ، بل على الشاعر نفسه ايضاً ،
ذلك لأن الشابي شاعر خيالي ميال الى الغموض والرمز ، بينما ابراهيم طوقان شاعر ، على
تجديده في المعنى والاسلوب ، احسن سيراً على عمود الشعر العربي .



ومن أوجه الخلاف في عناصر الشخصية بين الشعارين ان ابراهيم طوقان كان يتقن

اللغة الانكليزية ويعرف الادب الانكليزي معرفة صحيحة وكان له اطلاع واسع على آثار اصحاب المذهب الوجداني (الروماتيك) امثال كولريديج (١٧٧٢ - ١٨٣٤) وكيثس (١٧٩٥ - ١٨٢١) وشيلي (١٧٩٢ - ١٨٢٢) وبيرون (١٧٨٨ - ١٨٢٤) . وكذلك كان له للمام يسير على كل حال بالفرنسية من تعلمه في الجامعة الاميركية . ويبدو انه كان يعرف شيئاً يسيراً ايضاً من التركية^١ كما انه حرص مدة على تعلم الالمانية وكتب لي ذات يوم رسالة بهذه اللغة تبلغ نحو صفحة^٢ . ثم انه تعلم بضعة دروس من اللغة الاسبانية^٣ . اما الشابي فلم يعرف إلا العربية . ومع ان الشابي قرأ كثيراً - كما يقال - من النقول العربية عن اللغات المختلفة ، فان الثروات الادبية الحقيقية في هذه اللغات كانت مغلقة في وجهه . فتدوُّقُ الادب لا يقوم على قراءة الافكار المنقولة ولكنه يقوم على تفهم الاجواء الادبية والثقافية والشعبية التي تنشأ فيها افكار الاديب وعلى ادراك خصائص الاساليب التي تجري فيها آداب الامم .

ومن أوجه الخلاف ايضاً ان ابراهيم طوقان نال ثقافة جامعية عصرية تامة ، وكان اثر هذه الثقافة يظهر جلياً في شعره ، بينما هذا الجانب مفقود عند الشابي . ومن ذلك ان الشابي أغرق في الاعجاب بادباء المهجر بينما كان ابراهيم طوقان اكثر توفراً على مطالعة شعر شوقي وحافظ والبارودي من الشعراء المعاصرين لنا ، ثم على شعراء العصر العباسي خاصة كأبي نواس والعباس بن الاحنف والبحثري وابن المعتز وسبط ابن التعاويني ، فلا غرو إذن إذا اختلف شعراهما مادة وبناءً .

وتقلب ابراهيم طوقان في مناصب مختلفة من التعليم الى الادارة البلدية الى الصناعة والتجارة الى الاشراف على مناهج الاذاعة فاستطاع من هذه السبل في الحياة ان يحتك

(١) الدقر ١٩٣٣ ، ص ٢٠

(٢) رام الله ، ٢ تموز ١٩٣٥ ؛ ؟ ، ١٧ تموز ١٩٣١ ؛ رام الله ، ٣ ايلول ١٩٣١ .

(٣) القدس ٢٢ ايلول ١٩٣٢ ؛ راجع القدس ، ؟ آب ١٩٣٢ .

بالناس وأن يعرفهم وأن يعرف الحياة نفسها معرفة صحيحة . ولا اعلم إذا كان الشابي قد
تقلب في مناصب مشابهة او انه قد تقلب في مناصب ما .



ومع هذا كله فان مقارنة شعر الشابي بشعر ابراهيم طوقان يجب ان تنكشف عن
اشياء مثقفة وطريفة في وقت واحد ، ذلك لمن أراد ان يقوم بمثل هذه الموازنة . ولا ريب في
ان كلا الشاعرين عبقرين ، وإن كانت عبقرية كل واحد منهما تشق طريقاً خاصاً بها .



مصادر هذه الدراسة ومراجعها

١ - مراجع عامة لا اشارة فيها الى ابراهيم طوقان ولا الى ابي القاسم الشابي ولكن فيها مبادئ ومعلومات ضرورية لتفسير بعض شعرهما او بعض احوالهما :

مقدمة ابن خلدون : الجزء الأول من كتاب العبر ودبوان المبتدا والخبر الخ . تأليف

عبد الرحمن بن خلدون ، المطبعة الأدبية ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٠٠ .

الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، تأليف ابن الطقطقي ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ، بلا تاريخ .

موجز تاريخ البلدان العراقية ، تأليف السيد عبد الرزاق الحسني ، الطبعة الثانية ، مطبعة

العرفان ، صيدا ، ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م .

ابو تمام ، تأليف عمر فروخ ، بيروت ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٥ .

ابو نواس (دراسة ونقد) ، تأليف الدكتور عمر فروخ ، الطبعة الثالثة ، بيروت

١٣٦٥ هـ = ١٩٤٦ م .

ابو نواس (مختارات) للدكتور عمر فروخ ، بيروت ، ١٣٥١ هـ = ١٩٣٣ .

وحددي مع الأباة ، مجموعة شعر ، نظم فدوى عبدالفتاح طوقان ، لجنة النشر للجامعيين ،

القاهرة ١٣٥٢ هـ .

المشرد ، شعر ، نظم ابي سلمى عبدالكريم الكرمني ، مطبوعات المكتبة الكبرى

للتأليف والنشر ، دمشق ١٩٥٣ .

Penrose = That They May Have Life, By Stephen B.L. Penrose, New York 1941.

A U B Directory = The American University of Beirut, Directory of Alumni
1953, Beirut 1953.

شبح الأندلس (مسرحية شعرية عن نكبة فلسطين ومعركة جنين الكبرى) تأليف

برهان الدين عبوشي (بيروت) ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م .

(١) في هذا الكتاب اشارة الى ابراهيم طوقان .

اقاصيص ، تأليف عبد الحميد ياسين ، المكتبة العصرية ، يافا ١٩٤٦ .
 خلاصة تاريخ تونس ، تأليف حسن حسني عبد الوهاب ، الطبعة الثالثة ، نشرتها دار
 الكتب العربية الشرقية ، تونس ، ١٣٧٣ هـ .
 رمزي - الاستعمار الفرنسي في شمالي افريقية ، تأليف احمد رمزي ، القاهرة
 ١٣٦١ هـ = ١٩٤٨ م .
 القضية التونسية - نص الخطب الثلاث التي ألقاها الأستاذ احمد شاه بخاري ممثل باكستان
 في مجلس الأمن بتاريخ ٤ و ١٠ و ١٤ ابريل (نيسان) ١٩٥٢ .

Tunisian Question — The Tunisian Question in the United Nations (the text of
 the Statement by Prof . Ahmad S. Bokhari, Pakistan Permanent Representa-
 tive in the Security Council on April 4, 1952).

٢ - مراجع فيها آراء في الشاعرين او اشعار لهما :

الرسالة (مجلة اسبوعية) ، القاهرة .
 الامالي (مجلة اسبوعية تبحث في الثقافة) ، بيروت .

★

العوامل الفعالة في الادب العربي ، تأليف الاستاذ انيس المقدسي ، (الحلقة الخامسة عشرة
 من سلسلة العلوم الشرقية للجامعة الاميركية في بيروت) ، القاهرة ١٩٤٩ .
 الانجازات الادبية في العالم العربي الحديث ، تأليف الاستاذ انيس المقدسي ،
 جزءان (الحلقة الثانية والعشرون^١ والثالثة والعشرين من سلسلة العلوم الشرقية
 للجامعة الاميركية في بيروت) الجزء الاول بتاريخ^٢ ، الجزء الثاني ١٩٥٢ .

٣ - مصادر فيها آراء في ابراهيم طوقان خاصة او اشعار له :

ديوان ابراهيم طوقان ، اختاره ابراهيم طوقان نفسه قبل موته (لم ينشر بعد) .
 دفاتر ابراهيم ، ثمانية دفاتر كان يدون فيها ابراهيم طوقان اشعاره . في هذه الدفاتر اشعار
 اُضم بعضها الى الديوان الذي أعده ابراهيم بنفسه وأغفل بعضها وخصوصاً ما كان في
 الهجاء والمجون . وهذه الدفاتر لا اضم كل ما قاله ابراهيم من الشعر .
 رسائل ابراهيم طوقان الى عمر فروخ من ١٩٢٤ - ١٩٤١ . يكون الاستشهاد بهذه
 الرسائل في هذه الدراسة بذكر اسم البلد الذي كتبت فيه الرسالة : نابلس ، القدس ،
 عمان ، بيروت ، متبوعاً بتاريخ الرسالة .

(١) على هذا الجزء : الحلقة الحادية والعشرون ، وهو خطأ مطبعي .

(٢) على هذا الجزء تاريخ هو ١٩٤٩ ، ولكنه طمس عمداً لان صدور ذلك الجزء تأخر عن ذلك .

- مذكرات عمر فروخ ١٩٢٤ - ١٩٢٥ .
 اخي ابراهيم ، تأليف فدوى عبد الفتاح طوقان ، المكتبة العصرية ، يافا ١٩٤٦ .
 الاحد (مجلة اسبوعية) ، دمشق .
 الاحرار (جريدة يومية) ، بيروت .
 الاحرار المصورة (مجلة اسبوعية) ، بيروت .
 الاقدام
 بيروت (جريدة يومية) ، بيروت .
 الجامعة الاسلامية (جريدة يومية) ، يافا .
 الجامعة العربية (جريدة يومية) ، يافا .
 الجزيرة (جريدة يومية) ، يافا .
 الحياة الجديدة (مجلة) صاحبها حبوبة حداد ... (تشرين الثاني ١٩٢٤ وآذار ١٩٢٥)
 الدفاع (جريدة يومية) ، يافا .
 الشوري (جريدة يومية) القاهرة (العدد ٣٨ ، ١٦ يوليو (تموز) ١٩٢٥ .
 صوت الشعب (?) العدد ١١٥ وعدد آخر تال .
 العهد الجديد (جريدة يومية) ، بيروت (النصف الثاني من ايلول ١٩٢٩) .
 فلسطين (جريدة يومية) .
 الكلية (مجلة شهرية تصدر في الجامعة الاميركية في بيروت) .
 لسان الحال (جريدة يومية) ، بيروت (١٩٢٩) .
 مجلة سر كيس (شهرية) ، القاهرة .
 مرآة الشرق (مجلة شهرية) ، ريو دي جانيرو ، البرازيل (١٩٣٠) .
 المعرض (مجلة اسبوعية) ، بيروت .
 المفيد (جريدة يومية) ، دمشق (٢٤ مايس / ايار ١٩٢٥) .
 المنتدى (مجلة ثقافية اسبوعية مصورة) يصدرها مكتب المطبوعات في القدس بالاشتراك
 مع القسم العربي من دار الاذاعة الفلسطينية - القدس .
 الوادي (مجلة اسبوعية سياسية) ، بغداد .
- ٤ - مصادر فيها آراء في ابي القاسم الشابي خاصة واشعار له :

(١) هنالك معلومات غير مدونة ، رجعت فيها الى ذكرياتي والى ذكريات الاستاذ احمد عبد الفتاح طوقان ،

السنوسي : الادب التونسي في القرن الرابع عشر (الهجري) ١ ، تأليف زين العابدين السنوسي ، الجزء الاول ٢ ، الطبعة الاولى ، تونس ١٣٤٦ هـ ٣ .

فهمي : الروائع لشعراء الجيل ، تأليف محمد فهمي ، الجزء الاول ، لجنة التأليف والترجمة الحديثة ، القاهرة (بلا تاريخ) .

الشابي : حياته ، شعره ، تأليف ابو القاسم محمد كثرؤ ، منشورات المكتبة العلمية ، بيروت ، ١٩٥٢ ، هذا الكتاب هو في الحقيقة مجموع شعر الشابي فيه نحو ١٤٠٠ بيت ، وفيه مقدمة مفصلة في حياة الشابي وخصائصه (وقد أعيد طبعه ١٩٥٤) .

الاديب (مجلة شهرية) ، بيروت .

الاسبوع : (مجلة اسبوعية جامعة حرة) يصدرها في تونس الاستاذ نور الدين بن محمود .
لدي من هذه المجلة اعداد متفرقة فيها اشياء عن الشابي .

المكشوف (مجلة اسبوعية) ، بيروت .

الهلل (مجلة شهرية) ، القاهرة .



-
- (١) يبدأ القرن الرابع عشر الهجري في ١٢ تشرين الثاني ١٨٨٢ .
- (٢) هذا الجزء موسوم هكذا : مجموعة بلاغة العرب في تونس ، الحاققة الاولى ؛ الادب التونسي في القرن الرابع عشر ، قسم المنظوم .
- (٣) ١٩٢٦ - ١٩٢٧ م .
- (٤) يصدر الاستاذ نور الدين بن محمود مجلة شهرية اسمها « الثريا » نشر فيها - على ما يبدو - اشياء كثيرة للشابي وعنه . ولكنني لم أر هذه المجلة .

ترجمة ابراهيم طوقان

آل طوقان

ان الكلام على الانساب لا يدل على شيء كبير في الدراسات الادبية والعلمية على الاخص . فليس احد منا اليوم يستطيع ان يذكر عمود نسبة تثبتاً و يقيناً ، فالانساب قد وقع فيها الاختلاط والنسيان والدعوى^١ . حتى لو قال قائل إنه ما من انسان يعرف حقيقة نسبه بعد اجداده الاقربين لصدق . ثم ان الانسان لو عرف عمود نسبه بشيء من الثبت والايقان لما دل ذلك على اتجاه ادبي او علمي معين . ان البشر يرثون ، من طريق الولادة ، خصائصهم الجسمانية ، اما خصائصهم الادبية والاجتماعية فيتناولونها من بيئتهم ومن احتكاكهم بالارض وبالناس .

على ان كلمة موجزة في آل طوقان وخصومهم آل عبد الهادي قد تنير لنا سبيلاً من السبل في دراسة شعر ابراهيم .

اسلاف ابراهيم

يرجع نسب آل طوقان - فيما يقال - الى بطن من بطون العرب الموالي يعرفون بالحياريين . وهؤلاء بدو لا يزالون الى اليوم ضاربين خيامهم في غرب بادية الشام بين حمص وحمّاة . واذا كان ذلك كذلك فيجب ان يكون آل طوقان فرعاً من آل طوق الذين كانوا نازلين في تلك النواحي والذين مدحهم ابو تمام^٢ .

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ١٢٨ - ١٣١ .

(٢) راجع ابو تمام الدكتور عمر فروخ ص ٧٧ ، ٧٩ .

وفي اواسط القرن التاسع للهجرة والرابع عشر للميلاد كانت الشام ومصر في حكم المماليك البرجية (٧٨٤ - ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٧ م) وكان يسودهما شيء كثير من ضعف الادارة ومن الفوضى . ويبدو ان « آل طوقان » لم يكونوا مسرورين من مقامهم في منطقة حمص على طريق الغزوات المغولية عبر العراق الى الشام وآسية الصغرى ، ولا كانوا - فيما يبدو - على اتفاق مع المماليك ، كما سئرى ، فحملوا انقالمهم واتجهوا جنوباً ليرتادوا لهم منزلاً اهدأ وابتعد من قبضة المماليك العنيفة . وهكذا استقروا في نابلس وتحضروا وانشأوا الدور والبساتين بعد ان نزلوا كلهم في تلك البلدة متقاربين متجاورين . ولعل ذلك كان منذ خمسة قرون او نحوها .

ولما جاء الفتح العثماني (٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) كان قد انقضى على مجيء آل طوقان الى نابلس نحو جيلين من الدهر . ولقد مال آل طوقان الى الاتراك فولوهم هم واحلافهم بنو الجرّار ثم ثبتوا على هذا الولاء ، مما يوحي بان صلاتهم الاولى بالمماليك كانت غير ودية . من اجل ذلك لم يكن مستغرباً ان يدخل بعض آل طوقان في جيش الانكشارية^١ . وقد كان من هؤلاء ابراهيم آغا الشرجي الذي ينتمي اليه فرع ابراهيم .. ولقد ظل هذا اللقب « آغا » متوارثاً في هذا الفرع ، وكان آخر من حرص على التلقب به والد ابراهيم ، عبد الفتاح آغا طوقان .

وكذلك كان من المنتظر ان يقف آل طوقان واحلافهم آل الجرّار - في اثناء حملة ابراهيم باشا على الشام^٢ - الى جانب العثمانيين وان ينحاز خصومهم آل عبد الهادي ، اصحاب قرى جنين (شمالى غربى فلسطين) الى ابراهيم باشا . عند ذلك قرب ابراهيم باشا آل عبد الهادي وعين منهم ولاة على صيداء ايضاً . اما آل طوقان فاضطهدهم ابراهيم باشا ونفى بعضهم الى مصر ، ثم هرب بعضهم الآخر في البلاد ولم يبق منهم في نابلس إلا

(١) بنى شري (شهري) : المواطن الجديد (الجنود الاحداث) ، كانوا يؤلفون الجيش المحترف الذي استبد بالامور السياسية فيما بعد حتى استطاع السلطان محمود الثاني ان يقضي عليهم .

(٢) من سنة ١٢٤٧ - ١٢٥٦ للهجرة (عام ١٨٣١ - ١٨٤٠ م) .

الاحداث ... ومنذ ذلك الحين برزت العداوة بين الاسرنيين - آل طوقان وآل عبد الهادي - ثم استمرت الى ان رثق منها ابراهيم نفسه فتقاً يسيراً لما تزوج في آل عبد الهادي .

اما احوال ابراهيم فهم آل عسقلان من نابلس ومن المتصلين بآل طوقان بالمصاهرة من قبل . كان آل عسقلان هؤلاء من المواليين للعثمانيين، كآل طوقان ، ومعن المعروفين بالشجاعة والفروسية فخدموا الدولة العثمانية في الجندية والشرطة وفي الدرك الفرسان ، وجميع احوال ابراهيم كانوا اما في الشرطة او في الدرك .

وتزوج عبد الفتاح آغا^١ ابنة خاله فوزية^٢ بنت امين عسقلان ورزق منها عشرة اولاد هم على التوالي احمد و ابراهيم و بندر^٣ وفتايا^٤ ويوسف ورحمي^٥ واذبية وفدوى^٦ ونمر وحنان^٧ ، وقد ولدت عام ١٩٢٧ .

ونابلس التي ولد فيها ابراهيم وقضى شطراً يسيراً فقط من حياته مدينة محافظة ، بل موغلة في المحافظة ، ولذلك كانت البيئة الاجتماعية فيها مغلقة تفرض على اهلها قيوداً لا تفرض عادة على اهل البيئات المطلقة . وأبرز خصائص البيئات المغلقة أن لأهلها فضولاً

(١) ولد سنة ١٢٩٢ هـ (عام ١٨٧٥ م) وتوفي ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) .

(٢) ولدت سنة ١٢٩٧ هـ (١٨٨٠ م) .

(٣) بندر في الاصل من اساء الصبيان عند البدو وقد اطلقه عبد الفتاح آغا على فتاة .

(٤) فتايا اسم فتاة وهو من الاسماء المعروفة بين البدو ايضاً .

(٥) رحمي من اساء الصبيان وهو صيغة تركية مثل شوقي وصبري ورمزي وقصري . ولكن ابراهيم يريد

ان يجعله صيغة عربية فيضبطه بالياء المشددة ، اي ياء النسبة (راجع نابلس ، ١٢ آب ١٩٢٩) .

(٦) فدوى (ولدت نحو سنة ١٣٣٤ هـ او عام ١٩١٤ م) وقد توسم فيها ابراهيم تذوقاً للادب فمني

بها عناية خاصة فاصبحت اديبة شاعرة لها كتاب « اخي ابراهيم » (يافا ١٩٤٦) وجموع شعر « وحدي مع

الايام » مصر ١٩٥٢ . وكانت فدوى تتولى تحويل رسائل ابراهيم الواردة الى نابلس اليه حيث يكون ، وقد

ارسلت اليه مرة رسالة الى نابلس وكان هو في القدس ، فارادت تحويلها فاحطأت وكتبت « الجامعة العربية »

مكان الكاية العربية . والجامعة العربية جريدة كان القائلون عليها لا يميلون مسودة لابراهيم فضاعت الرسالة

(نابلس ١٣ آذار ١٩٣٤) ولما نشرت دراسة « ابو تمام » (بيروت مطلع ١٩٣٥) اهديت الى ابراهيم

نسخة فكبت الي يقول : كتاب « ابو تمام » هدية فاخرة ... شقيقي فدوى تقرأه الآن ، فاذا انتت من

قراءته اقرأه انا ... (نابلس ٢٨ كانون الثاني ١٩٣٥) . وخط فسوي يشبه خط ابراهيم شهاً كبيراً .

(٧) اقترح ابراهيم تسمية اخته هذه « جنان » بالجيم المكسورة . وحنان اسم فتاة يرد في شعر ابي نواس .

غير ان الذين كانوا ينادون جنان كانوا يسكنون الجيم او يحرفون الاسم تحريفاً آخر فجعل ابراهيم الاسم

حنان ، وهو اقل خضوعاً للتحريف من جنان .

شديداً في تسقط بعضهم لأخبار بعض ولانتقاد بعضهم بعضاً على أيسر الامور وعلى أقل السلوك شذوذاً عن مألوف العامة . ومثل هذه البيئات لا توافق اصحاب العبقريات . ثم هي مقلقة ايضاً للحياة العادية المألوفة . كان ابراهيم يقول لي : ما أشد الحياة في نابلس ! ان الانسان لا يكاد يعمل في نابلس شيئاً حتى يعرف به كل إنسان . ثم يقول : ان نسبة المتعلمين في نابلس اعلى منها في جميع المدن الفلسطينية، ومع ذلك فليس في نابلس جريدة، ذلك لأن الاخبار تنتشر في نابلس قبل ان يتاح للجرائد ان توزعها على الناس^١ .

وبيت طوقان في نابلس بيت جاه وغنى وكرم وشيء من الاقطاعية النيرة . على ان عبد الفتاح آغا قد ربي اولاده على شيء كثير من الحرية والانطلاق ، وكان رجلاً عاقلاً يصارح اولاده بكثير من شؤونهم التي يفضل آباء كثيرون ان يكتُمونها عن اولادهم . ولو كان أتيج لك ان تشهد عبد الفتاح آغا سائراً مع احد اولاده او جالساً يحدثه لتولاك العجب من روح المنطق ، وحسن المباشطة ومدى الاحترام « للشباب الناشئ » مع عطف ابي نادر وتفهم بالغ للزمان المقبل الذي سيعيش فيه ابناؤه . وكانت معاملته المادية والمعنوية لأولاده مثالية سمحة .

وأم احمد ، والدة ابراهيم ، امرأة برزة تباشر امورها بنفسها . وهي تتصف بكثير من الذكاء الفطري ومن المرح اللذين انتقلا الى اولادها . وخصوصاً ابراهيم . وهي ايضاً ، كزوجها ، تتفهم حاجات الجيل الناشئ من اولادها وتترك وجوب قيام التربية على اساس من العقل الى جانب الحنان والرعاية . من اجل ذلك نشأ جميع اولادها نشأة صحيحة نافعة : فأحمد عالم رياضي ، و ابراهيم اديب شاعر عبقري ، ويوسف لا يقل في نشاطه العملي ومقدرته التجارية وإشرافه على الاعمال الزراعية عن ابراهيم وأحمد في فنيهما . اما حسن رحمي^٢ ،

(١) وإل الآن لم تنشأ في نابلس جريدة !

(٢) لآل طوقان في نابلس مصبنة كبيرة ، وكذلك لآل الشكمة مصبنة مثلاً . وكان لآل الشكمة « ماركة مسجلة » على صابونهم هي « صابون حسن نابلسي » على اعتبار حسن نعمت بمن جيد ، ونابلسي نسبة الى مكان الصنع . وراحت هذه « الماركة » رواجاً كبيراً وخصوصاً في مصر . ورأى عبد الفتاح آغا ان يستفيد من السوق فلما ولد ولده السادس وكان صبياً سماه حسن رحمي ثم دمغ صابونه بالماركة « صابون حسن نابلسي » وأقام آل الشكمة الدعوى على عبد الفتاح آغا ، ولكن عبد الفتاح آغا ربح الدعوى لما قرر عمله بأنه جعل هذه الماركة لابنه : « صابون حسن » . فلما قيل له فكيف اضفت لفظه نابلسي ؟ فقال ، أوليس ابني نابلسي من نابلس ؟

او الحاج رحمي ، الذي لم يستطع ان يبرع في العلم قط^١ ، فانه رجل جلد يحمل التبعة ويستقل بها. وقد كان له فضل كبير على الاهتمام بشؤون ابراهيم في نابلس وفي بغداد وفي بعض اسفاره الاخرى ، كما انه رافق والده الى الحج وحج معه واحاطه بعناية رفيقة قديرة . اما نمر فهو طبيب ذكي واسع الادراك عظيم المرح . اما في البنات فان فدوى اديبة حسيمة ، وكان شعرها يبشر بمستقبل عظيم لولا ارتدادها الى الرمز والمبالغة فيه احياناً . انها شاءت ان تتخلى عن متانة اسلوبها ونضج موضوعاتها ، اللذين لا يتفان إلا للقليلين ، لتتخذ لشعرها طابعاً رمزياً لا يكاد يعجز عنه اليوم فتى او فتاة ينظمان شعراً . لقد كنا نجد في شعرها الاول « نفس » ابراهيم ثم أرادت ان تلج بشعرها هذا أفق الغموض لتعبر عن نفس مكبوتة قلقمة وعن قلب حائر عاجز . لقد تركت شعرها الذي كان يوحي بالعزة لتتبدل به اشطراً تستجدي بها العطف .

مولده ونشأته الأولى

ومع ان ابراهيم ينحدر من اسرتين عرفنا بصحة الاجسام وقوتها ، ومع ان اخوته وابناء اعمامه يتمتعون بأجسام فيها صلابة وقوة^٢ ، فانه نشأ ضعيفاً مهزولاً عليلاً يشكو عدداً من الامراض . ومرد ذلك في علم الطب الى عوامل كثيرة متمازجة ، إلا ان ابراهيم نفسه يجب ان يرد سبب ضعفه الى عامل معين ، قال في احدي رسائله^٣ :

« واما المرض فهو كالعمر والرزق والتوفيق والفشل^٤ في هذه الحياة يسير الانسان فيها ولا يخير ويلاقي حظه معها إما سيئاً وإما حسناً . وأنا من بين اخوتي الباقين (وعددهم تسعة) حملت بي الوالدة ام احمد إثر مرض خطير كان اشرف بها على الموت . فكنت انا

(١) نابلس ١٢ آب ١٩٢٩ .

(٢) كتب يوسف ، اخو ابراهيم ، مرة إلى فقال (بيان) ، ٢٠ القعدة ١٣٥١ ، ١٨ مارس - آذار - ١٩٣٣) : « اما صحي فالحمد لله من نوع « وأنا له الحديد » (القرآن الكريم ، سورة سبأ - ١٠ : ٣٤) .

(٣) نابلس ، ٢٧ ايلول ١٩٣٥ .

(٤) الملوحة انه يقصد الحنية في مقابل التوفيق ، ولكنه قال « الفشل » للدلالة على الحنية وهو خطأ شائع . ومعنى الفشل الضعف .

في احشائها عندما كانت هي في دور النقااة واعضاء جسمها وقوتها بوجه العموم ضعيفة ...
فجئتُ (مركباً) على مرض وضعف ...»

ولد ابراهيم سنة ١٣٢٣ للهجرة (١٩٠٥ م) في مدينة نابلس في الجو الذي وصفناه
قبل قليل (ص ١٥-١٦). ويبدو انه كان يتمتع بعطف خاص لضعفه وهزال جسمه ،
وهذا امر مألوف في حياة الاسر كلها . ووافق طفولة ابراهيم شيخوخة جده لأبيه داوود
آغا (ت ١٩١٩) الذي كان يتعهد كلما عاد من المدرسة الى البيت بالاستماع الى ما تعلمه في
صدر النهار ، او انه كان بهذا العمل يسرّي عن نفسه فقط . وعلى كل فان ابراهيم قد
استفاد من ذلك استفادة كبيرة في طبع شخصيته وتوجيهه وجهة اديية .

وتلقى ابراهيم دروسه الابتدائية في المدرسة الرشادية الغربية ، في الجانب الغربي من
نابلس ، طوال سني الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) . ولعل وجود مدرسين في
تلك المدرسة من امثال الشيخ ابراهيم ابي الهدى الخماش والشيخ فهمي هاشم من الذين
كان لهم صلة بال طوقان قد خص ابراهيم بعناية . على انه لم يكن من المنتظر ان تتناول هذه
العناية شيئاً اكثر من التثقيف بالأدب العربي . وتلك كانت ثروة التعليم كلها في ذلك الحين .

ولما انتهت الحرب العالمية الاولى ونزل الاحتلال البريطاني بفلسطين انتقل ابراهيم
فجأة الى بيته مطلقاً ، الى القدس ، ودخل مدرسة المطران تلميذاً داخلياً بعيداً عن رقابة
اهله إلا قليلاً ، لوجود اخيه احمد في ذلك الحين تلميذاً في الكلية الانكليزية . في هذه الفترة
عرف ابراهيم - من طريق اخيه احمد - الاستاذ نخله زريق (ت ١٩٢٠) معرفة يسيرة ،
ولكنها معرفة متسقة في اتجاهها مع ما عرفه من الشيخين الخماش وهاشم ، نحو
الادب العربي .

وفي تشرين الاول من عام ١٩٢٠ انتقل احمد الى الجامعة الاميركية في بيروت
وبقي ابراهيم وحده في مدرسة المطران وقد انقطعت كل رقابة عليه - هذا إذا كنا نعد
وجود شباب في السابعة عشرة من عمره قرب اخ له يصغره بعامين رقابة - . والجدير

بالذكر هنا ان ابراهيم لا يذكر مدرسة المطران من الناحية الاخلاقية بالخير ابداً^١ . ثم بعد ان قضى ابراهيم اربعة اعوام في مدرسة المطران (١٩١٩ - ١٩٢٣) غادرها وله من العمر ثمانية عشر عاماً الى الجامعة الاميركية حيث قضى ستة اعوام آخر (١٩٢٣ - ١٩٢٩) تلميذاً في بيئة اشد انشغالاً^٢ . وأبعد عن رقابة الأهل الصحيحة .

وجاء ابراهيم الى الجامعة الاميركية في بيروت وملء نفسه امل عظيم لارتشاف العلم وللبراعة في الادب ، ولكنه كان يحمل في جسمه الهزيل ثلاثة امراض تهدد ذلك الأمل العظيم بالتلاشي : صمم في اذنه وقرحة في معدته ثم استعداد في امعائه لأنواع الالتهاب .

قصة أمراضه

كنت اود ان انسق ازمانت المرض التي عاناها ابراهيم مع حوادث حياته تدريجاً ، ولكنني عدت فرأيت ذلك مستعصياً ، إذ انه يقطع سلسلة ترجمته في اماكن متعددة من غير ان يجعل قصة مرضه واضحة بينة . من اجل ذلك رأيت ان اسرد قصة صممه وقصة القرحة في معدته في هذا المكان ، ثم اعود الى استئناف ترجمته .

اما صممه فقديم ، إذ كانت اذنه اليمنى « تنز » مادة صديدية منذ صغره . وفي عام ١٩٢٤ كان مرض اذنه قد تطور تطوراً كبيراً . ففي احدي رسائله إلي يقول^٣ : « أظن انك لا تجهل ان باحدى اذني صمم . ولقد ازعجني ألمها كثيراً في الأيام الأواخر . فذهبت الى القدس لطبيب خصيصة بالاذن فطلب إلي ان احضر للقدس مرة في الاسبوع . ولقد آلمتني نهار امس فجئت الى القدس وفيها تمت هذا الكتاب بادناً من هذه الصفحة . ويقول الطبيب إذا ضاق امرنا بها أجرينا عملية . ولا ادري ما سيصير » .

وتأخر إجراء العملية الى اواسط عام ١٩٢٧ حينما اقترح الاطباء في القدس ترقيع الاذن . وتمت العملية^٤ بسلام ، ولكن الألم لم ينقطع . وعاد ابراهيم يتنقل بين الاطباء

(١) راجع نابلس ، ١٢ آب ١٩٢٩ .

(٢) راجع نابلس ، ١٤ ايار ١٩٣٣ .

(٣) نابلس ، ٢٣ تموز ١٩٢٤ .

(٤) نابلس ، ٢٧ آب ١٩٢٧ .

حتى سئم ، فكذب في احدى رسائله ١ : « احمد ٢ سافر الى نابلس مع اهله ، واضطرت الى البقاء هنا (في القدس) لمواصلة الذهاب الى الطبيب ، طيب الاذن (هذه المرة) : من طيب الى طيب فقيحاً حياة على الأطباء . وقف ومع ذلك انا ابراهيم كما تعرفني راضياً قانعاً مسروراً » .

واستمم الصمم في الاذن فاستراح ابراهيم من الألم فيها ، ولكن آلام المعدة رافقته كل حياته .

كان ابراهيم يشكو من معدته منذ صغره ايضاً . ولما تخرجنا في الدائرة الاستعدادية من الجامعة الاميركية في حزيران عام ١٩٢٤ كان الامر قد استعصى على العلاج وأصبح اجراء عملية جراحية شيئاً لا مفر منه ، فأجريت له في ذلك العام العملية الاولى في المعدة ٣ . على ان الآلام عاودته في اواخر عام ١٩٣٢ فاضطر الى القبول بعملية ثانية خطيرة ، كان نجاحها ميئوساً منه . وقبل ابراهيم بالمجازفة واجريت العملية وكان المسلمم الله لا الطب ٤ . فما ان استطاع ابراهيم الكتابة حتى وردتني منه رسالة من المستشفى الالماني في القدس يقول فيها ٥ :

« ... لا أطيل عليك ، آلام شهرين انقضت بعون الله وعملية جراحية في المعدة على يد طبيب ألماني جبار ٥ . رأيت الموت ثلاث مرات في هذه المرضة ولكن « نعم الحارس الاجل » . لا أزال في المستشفى ، وتستطيع ان ترى من منطقي وخط يدي انني في حالة حسنة والله الحمد . ولكنني سأبقى في المستشفى مدة عشرة ايام من تاريخ كتابي هذا ... »
والطبيب لم يستأصل القرحة ، بل حول عنها مجرى الطعام تحويلاً ٥ .
كانت القرحة في مؤخرة المعدة ، في الجدار الأعلى عند المكان الذي يمر الطعام منه الى

(١) القدس ، ٢٢ ايلول ١٩٣٢ .

(٢) اخوه احمد .

(٣) في هذه الفترة وفي اثناء هذا المكث في مستشفى الجامعة الاميركية نظم ابراهيم قصيدته « ملائكة الرحمة : بيض الحمام حسنة » ، في ١٩ تشرين الاول ١٩٣٤ (راجع الدتر ١٩٢٤ ص ١٤) .

(٤) القدس ، ٢٣ كانون الثاني ١٩٣٣ .

(٥) نابلس ، ٢٧ ايلول ١٩٣٥ .

• هو الدكتور غمالين Gmaelin .

المعي مباشرة . ولم يكن الاستئصال ممكناً لكبير القرحة وصعوبة موقعها ولضعف ابراهيم .
ففتح الطيب فتحة في بطن المعدة وجعل للطعام ممرأً قصيراً الى المعى الاثني عشري . وهكذا
اصبح الطعام يمر من بطن المعدة الى الامعاء من غير ان يحك القرحة في مروره من مخرجه
الطبيعي الى الامعاء . ووعده الطيب ابراهيم بأن يعيد له ممر الطعام الى مكانه الطبيعي حينما
تسنع الفرصة بشفاء القرحة . ولكن هذه الفرصة لم تسنع ، ولم يكن وعده الطيب في
الاكثر إلا بشري ليقوى بها قلب ابراهيم على تحمل المتاعب .

وأنقذ هذا التحويل ابراهيم من خطر محقق وأراحه من بعض الآلام ، ولكنه فرض
عليه قيوداً جديدة : اصبح الطعام الآن لا يستقر في المعدة وقتاً كافياً لهضمه ، بل كان يخرج
من بطن المعدة الاسفل الى الامعاء بسرعة وقبل تمام عملية الهضم . من اجل ذلك نصح
الطيب ابراهيم بأن يجلس بعد كل طعام - مستلقياً الى الورااء شيئاً يسيراً - ليتيح للطعام
ان يبقى اكبر مدة ممكنة في المعدة ثم يساعد على استتمام عملية الهضم في الامعاء .

ولا ريب في ان هذه الحال تجعل صاحبها معرضاً للاسهال والالتهاب الامعاء . وبدأ
ابراهيم يشكو من الاسهال المتقطع حتى انتصف عام ١٩٣٥ فاتصل الاسهال واشتد . فذهب
في اواسط تموز الى قرية بجمدون ببلنات لمقابلة الدكتور جورج خياط ، وكان الاطباء قد
نصحوا له بالبقاء تحت مراقبته الطيبة مدة من الزمن^١ . وذكر لي ابراهيم شيئاً من امر
هذا المرض فقال في رسالة تالية^٢ : « اما انا فقد كنت اود ان تنتهي قضية (الاسهال)
بسرعة ، فاذا به - لعنة الله عليه - من الادواء المماثلة المطاوله . ولا ابرح اتردد على عيادة
الدكتور خياط الى الآن ، وامس فقط تحسنت الحال قليلاً واستمر التحسن الى اليوم
وعسى ان يدوم . إن شاء الله » .

وسم ابراهيم التردد على الاطباء وتناول العلاج ، وحق له ان يسأم ، فوردني منه
رسالة طافحة بالنقمة والشكوى يقول فيها^٣ :

(١) بجمدون ، ٢٧ تموز ١٩٣٥ .

(٢) محطة بجمدون ، ٦ آب ١٩٣٥ .

(٣) نابلس ، ٢٧ ايلول ١٩٣٥ .

« وأما حالتي الآن فانها والله الحمد آخذة بالتحسن، وذلك على اثر نبذ الاطباء ونظرياتهم وأدويتهم ومركباتهم التي لا تقع تحت حصر . ولقد اصبح الطب معقداً (Complicated) واصبح المرضى تحت رحمة النظريات المتعددة (للمرض الواحد) والتجارب المختلفة فكأنما هم في مختبر تجري فيه هذه التجارب ليرى صدقها وتكشف حقيقتها . والذي يطبق على الارنب والفأر والصفدعة لا بأس من أن يطبق على ابراهيم طوقان . وإذا هلك احد هذه الحيوانات الحقيرة او ذهب ابراهيم طوقان ضحية التجربة وتحقيق النظرية فالأمر في سبيل خدمة العلم سواء !! هذا ما استطعت ان أدركه اخيراً من علاقتي بالاطباء والمستشفيات ، وما اقله عن تحامل ولكن عن اختبار وثقة . قيل لي (آخر ما قيل لي) : خذ هذه الابرة ^١ ، ابرة كل يوم وآخر ^٢ ، فهي للقرحة . - جئت بها من القدس الى نابلس أنفذ امر الطيب . اخذت الابرة الاولى فشعرت تغيراً غير مرغوب فيه وتعكراً في مزاجي، ولم يخطر في بالي ان أنسبه الى الابرة التي جعلت شفاء للقرحة ! واسترحت يوماً وأخذت الثانية فحصل لي ما شعرت به في الاولى فانتبهت ورأيت ان أسأل الطيب الذي يعطيني الابرة (وهو غير الذي وصفها) وأبدي له ملاحظتي ... فلما قدم الى البيت للثالثة أفضيت إليه بالأمر فأجاب : ما زلت اعجب لمن وصف لك هذه الابر لماذا وصفها . فهي للقرحة كما ذكرت ولكن لا لشفاؤها بل للتحقق من وجودها ، فمن شأن مادة هذه الابر ان تهيج الحوامض في المعدة ، والحوامض تهيج القرحة إذا كانت موجودة فيشعر المريض بوخزها وتبدو عليه عوارضها ! يا عمر ، ما عجبت في حياتي اكثر من عجيبي يومئذ ^٣ للطيب الذي وصف لي تلك الابر ، إنه هو بعينه الذي اجري لي العملية الجراحية المعهودة ^٤ ، وهو الذي فتح معدتي ورأى فيها القرحة رأي العين ! وها هو اليوم يريد ان يتأكد من وجودها وهي موجودة لم تستأصل يومئذ ^٥ ولكن تحول عنها مجرى الطعام تحويلاً . وهذا هو الخبر الذي

(١) انايب فيها دواء للحقن تحت الجلد او في العضل ...

(٢) غياً : مرة كل يومين .

(٣) يومئذ .

(٤) راجع ص ٢٠ .

لو كتب برؤوس الابر على أفاق البصر لكان عبرة لمن اعتبر^١ . وغني عن البيان اني نبذت تلك الابر ولجأت الى الاعتناء بمسألة طعامي وشرابي وراحتي وجاريت الطبيعة على ما تتطلبه فلم يمض اسبوع - واقسم لك بالله - حتى ارتفع وزني من ٤٦,٥ كيلو الى ٥٠ فتأمل . والحمد لله أولاً وآخراً .

يسوءني يا عمر ان افتتح المكتبة بهذه الاحاديث المزعجة ولكن لا بد من شكوى الى ذي مروءة ... » الخ .

على ان الحال لم تتحسن تحسناً اساسياً ، فقد كتب ابراهيم يقول في رسالة تالية قريية^٢ « الصحة والله الحمد على ما يرام وإن كان الاسهال لا يزال مزعجاً غير منقطع . وأتأمل ان

تتحسن الحالة بقدوم موسم البرتقال وشراب الـ RADIO MALT ... »

وجاء رمضان من سنة ١٣٥٤ للهجرة (كانون الاول ١٩٣٥) فمنعه المرض عن الصيام فكتب يقول^٣ : « فما انا بصائم في هذا البلد الذي كل اهله صيام . فقد علمت اني ممن استثناهم الله تعالى ؛ ولم يجعل عليهم في الدين من حرج ° . وأخشى إذا انا صمت ان يختل نظام معيشتي فتختل الصحة باختلاله » .

كان من المنتظر ان يصاب ابراهيم بفقر الدم بعد ان عانى من القرحة في معدته ومن

(١) تمير وارد في الف لبة و لبة .

(٢) نابلس ، ١٠/١٦/٥٣ .

(٣) نابلس ، ١٤ رمضان ١٣٥٤ = ١٠ كانون الاول ١٩٣٥ .

(٤) جاء في سورة البقرة : يا أيها الذين آمنوا ، كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ، لعلكم تتقون : أياماً معدودات ؛ فمن كان منكم مريضاً او على سفر فعدة من ايام آخر . وعلى الذين يطبقونه (لا يستطيعون صيامه او يستطيعون صيامه بجهد كبير لتقدمهم في السن او لمرض يهيم لا يرجى شفاؤه) فدية (كفارة ، صدقة) طعام مسكين (لطعام احد الفقراء يوماً عن كل يوم يفطرونه) ... (٢ : ١٨٣ - ١٨٤ ، راجع ١٨٥) .

(٥) ورد في سورة الفتح (٤٨ : ١٧) : ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج (في ترك الجهاد ، القتال في سبيل الله . ولكن هذا الحكم الخاص ينطبق أيضاً انطباقاً عاماً على ترك العبادات التي لا يمكن القيام بها مع المرض كالصوم مثلاً) .

العمليات الجراحية ومن التهاب الامعاء. ما عانى ولقد اشتد به فقر الدم ، في اواخر عام ١٩٣٤ فعزم على المجيء الى بيروت للمعالجة . قال ^١ :

« ... يصلك كتابي هذا وأنا في طريقي الى بيروت ... اجازتي هذه المرة صحية تستغرق كل فصل الخريف ، ٤٥ يوماً ، وأي خريف كخريف بيروت !؟ السبب في هذه الاجازة راجع الى فحص طبي نتيجته ان معي فقر آ في الدم احتاج معه الى تبديل هواء وإلى راحة . وقد رسمت خطة ارجو ان أنفذها فلا اجد ما يعيق عن تنفيذها : وهي ان اسكن في غرفة في وست هول ^٢ وأتناول طعامي مع المعلمين وأكون تحت اشراف الدكتور خياط للمعالجة الطبية . هذا مع العلم بأن دواعي الراحة في الجسم والبال والروح يجب ان تكون متوفرة ... »

ودخل ابراهيم مستشفى الجامعة الاميركية للفحص الطبي والمعالجة . وها هو يبسط ، بعد أمد ، ما اتفق له في ذلك الحين ، في مقال كتبه لمجلة الأمالي ^٣ . قال ^٤ :

اخي عمر

لست في مقام اناقش فيه الدكتور نويري في الدم وأنواعه ^٥ . ولكني - كما تعلم - عهدي بنضال الاطباء قديم ... ومعدتي من النوع الذي يحسدني عليه توفيق الحكيم فيضع لها تاريخ حياة حافل بالمغامرات ^٦ كما فعل مؤخراً بمعدة (صاحبه) أشعب ... لقد كان مما جرت عليه معدتي عملية جراحية كبرى ^٧ خرجت منها ^٨ غريبة التركيب ، بل جعلتني

(١) تايلس ، ١٦٠/١٠/٣٤ .

(٢) بناء من ابنة الجامعة الاميركية فيه قاعات للاجتماع ، وكان فيها غرف العيادة للضيوف العليين والاساتذة السابقين والمتخرجين .

(٣) الامالي ، مجلة اسبوعية تبث في الثقافة ، صدرت في بيروت من ١٩٣٨ الى ١٩٤١ .

(٤) الامالي ، السنة الاولى ، العدد ١٦ (الجمعة ٢٤ شوال ١٣٥٧ و ١٦ كانون الأول ١٩٣٨) ،

باب المطارحات والمراسلات ، ص ١٢ - ١٣ . والمقال موقع باسم « ابن الاخف » .

(٥) الدكتور محمد خير النويري (١٩٩٦ - ١٩٥١) احد اصحاب مجلة الامالي ، كان ينشر مقالات

متوالية في موضوعات طبية منها سلسلة تبث في انواع الدم والوراثة .

(٦) تاريخ حياة ممددة ، تأليف توفيق الحكيم (القاهرة ١٩٣٤) .

(٧) في كانون الثاني ١٩٣٣ .

(٨) خرجت منها معدتي .

عرضة لغرائب الادواء في كل حين ، ومن هذه الادواء (فقر الدم) .
وأظنك لا تزال تذكر خريف ١٩٣٤ يوم نزلت بيروت طلباً للشفاء من فقر الدم .
وتذكر انك تركت لي يومئذ بطاقة عليها بيت من الشعر لا شأن لي بروايته الآن ٢ ...
فقد كان ما كان وطويت ذلك التاريخ طي الشباب ...

مر بخاطري كل ذلك وانا اقرأ رسالة الدكتور نويري (في عدد الامالي الاخير) ٣ الى
عزيزته مريم ٤ ... فقلت إن لدي ما يخولني ان اندخل في ابحاث الطب . وما عليّ لو
فعلت كبعض الناس فناقشت في كافة فروع المعرفة وتناولت - ولو مرة في العمر -
على علماء الاختصاص !؟

قال لي طيبي يومئذ ، وقد قارن بين لون دمي وبين نماذج من الألوان الحمراء مطبوعة
على بطاقة بين يديه :

- عندك فقر دم .
- الغني هو الله ، ثم ماذا ؟
- وفي الامكان ان تكون المعالجة بأبر تحتوي على خلاصة الكبد ، وهذه الطريقة
بطيئة ، ولكن طريقة نقل الدم إليك أسرع ...
- أرجو ألا يكون مع المستعجل الزلل في هذا المقام ...
- الطريقة مجربة مضمونة .
- والدم ؟
- نبحت عن شخص يبيعك من دمه !

(١) في ١٨ تشرين الاول ١٩٣٤ .

(٢) بيتان من الشعر هما :

عجبا من دم يعود فقيراً - كنت تغني ببذله الغانيات
لا تظن البهيل أسعد حظاً - رب فقره لم يتصل بهيات

(٣) الامالي ، السنة الاولى ، العدد ١٣ (٣ شوال ١٣٥٧ = ٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٨) .

(٤) اسم ادني خيالي ، ...

- ومتى كان للدم عندنا ثمن ؟ ولكنها على كل حال تجارة رابحة ، إن شاء الله .
وعسى ألا أعود منها بصفقة المغبون .

وافترقنا يومين عرف الطيب خلالهما « الزمرة الدموية »^١ التي أتتني إليها . ثم
لقيني فقال : نحن الآن نبحث عنمن يتلاءم دمه مع دمك . وكنت قد صنعت آياتاً في
المعنى ، فأنشدت الدكتور :

وطيب رأى صحيفة وجهي شاحباً لوئها وعودي نحيفاً .
قال لا بد من دم لك نعد طيه جديداً ملء العروق عنيفاً .
لك ما شئت ، يا طيبى ، ولكن أعطني من دم يكون خفيفاً .

فضحك وهو يقول : انت ونصيك !

وقد ساورني القلق من هذه الناحية . فأنت ترى ان المسألة تعدت الجسد الى
الروح ... وخشيت ان أبتلى بثقل يُدخل عليّ من دمه ما هو اشدُّ على نفسي من امراض
الدنيا جميعها . ولكن الله سلم ، وجرت عملية نقل الدم فكانت هينة . وكان بائع دمه
ظريفاً . وكيف لا يكون ظريفاً من اعتبر نفسه وعاءً كوعاء الزيت او اللبن يعرضه على
امثالي من (الزبائن) فيفرغ لهم منه على قدر الحاجة !

ومرت ايام عشرة قفز وزني خلالها ثمانية اكيال ، وتفتحت مغالق نفسي للطعام
وأخذت بيروت تصدى لي باغوائها وفنون إغرائها ...

ولكنني عدت الى الطيب أشكو إليه قشعريرة اعقبها حمى مزعجة . فقال : امر
طارىء في حالات ثقل الدم ، ولا بأس عليك منه . فلما عاودتني بعد يومين وشكوت إليه
ذاك فكر وقدر ... ثم عاودتني ، وكانت في المرات الثلاث كأنما هي معي على ميعاد

(١) الدكتور نويري وضع هذا اللفظ الفني .

لا تخلفه ، فقال الطبيب : ملاريا خفيفة نقلت اليك مع الدم . قلت : غشني البائع وأمرني لله ! وكلفني ما يوزعه البعوض مجاناً ثلاث ليرات ذهباً عيناً (انتهى المقال) .
ومنذ عام ١٩٣٦ عادت الامراض فهادنت ابراهيم مرة اخرى سوى نوبات عارضة كانت تتابه من معدته بين الفينة والفينة ، وتتابه فجأة . في اواخر تشرين الاول من عام ١٩٣٧ كان ابراهيم مع زوجته في بيروت فجاء لزيارتي في البيت . وبعد نحو ربع ساعة من وصوله سمعته يقول : آخ ، ثم انطوى على نفسه وقال : هذه معدتي . وأخذ يصرخ . حملناه الى سرير ثم اتيت له بطبيب . فأعطاه الطبيب ابرة مسكنة . وبعد ربع ساعة آخر عاد ابراهيم الى هدوئه كما كان قبل النوبة ١ .

ونعود الآن لنقص حياة ابراهيم منذ دخوله الى الجامعة الاميركية .

في الجامعة الاميركية :

هنالك صفحة من حياة ابراهيم كان يحسن إغفالها في هذه الترجمة ، ذلك لأنها صفحة غير مشرقة ، او ان احد جوانبها غير مشرق على الاصح . تلك هي صفحة حياته في الجامعة الاميركية كمعلم . دخل ابراهيم الى الجامعة الاميركية تلميذاً باسماً ثم خرج منها استاذاً ناقماً اشد النقمة لاسباب قد لا يكون هو مصيباً فيها كلها ، ولكنه على كل حال ليس مخطئاً فيها كلها .

نشر الاستاذ محمد نجم ٢ في مجلة « الكلية » ٣ مقالاً في العدد الرابع من المجلد العاشر ٤ قال فيه انه يأسف لأنه لا يجد في حياة ابراهيم طوقان الا مراجع غير مسؤولة او

(١) راجع الاشارة الى هذه النوبة : القدس ، ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٧ .

(٢) تخرج محمد نجم في الجامعة الاميركية عام ١٩٤٥ ثم عين فيها مدرساً .

(٣) « الكلية » هي المجلة الرسمية للجامعة الاميركية ، وان كان الاساتذة والطلاب قد تولوا اصدارها حيناً بعد حين مستقلين بعض الاستقلال عن عمدة الجامعة .

(٤) نيسان ١٩٤٦ ، ص ٩ - ١٥ ، ٢٣ .

اقوالاً فيه مبنية على العاطفة « وفيها يقصد الكاتب او المتحدث الى المدح اكثر من الذم ^١ ،
والى الشكر اكثر من التجريح وتحكمه العاطفة اكثر مما تسيرو روح البحث العلمي الصحيح ...
وليس بين يدي من المصادر الموثوقة الا سجلات الجامعة التي تعرض حياته الجامعية وحياته
كمعلم . ولكن هذه السجلات الآن ، مع ما فيها من نقاط بيض وسود ورمادية ومع ما
فيها من انذارات وتنبهات تسدل ستاراً على كل هذا ولا تبوح به ... »

ان الاستاذ محمد نجم قد خالف البحث العلمي في ناحيتين : اولاهما ان المصادر لحياة
ابراهيم متوفرة ، ولكنه هو لم يعرف منها شيئاً . ولقد كان بإمكانه على الاقل ان يرجع الى
زملائه من اساتذة الجامعة الاميركية فيخبروه بتفاصيل كثيرة من حياة ابراهيم . اما ثانية
الناحيتين فهي ذكره تلك النقاط البيض والسود والرمادية وتلك التنبهات والانذارات
الموجودة في سجل ابراهيم في الجامعة الاميركية والتي يزعم انها تسدل ستاراً على حياة
ابراهيم ولا تبوح بالاسباب التي اوجبت تلك التنبهات والانذارات وتلك النقاط الرمادية
والنقاط السود . ان الاساتذة جبران بخغازي وجبرائيل جبور وانيس فريحة وحليم نجار
وحسني الصواف ومسلم المشنوق وعباس إقبال يعرفون تفاصيل تلك الحوادث . اما الاستاذ
انيس المقدسي والدكتور اسد رستم فيعرفان كل شيء . وان اعجب فعجب من الاستاذ
محمد نجم يلجأ الى سجلات الجامعة الميتة ولا يلجأ الى سجلاتها الاحياء ، هذا فضلاً
عن ان ثمت اشياء كثيرة مكتوبة هنا وهناك .

ان الوفاء للحق - لا لابراهيم وحده - يقضي ان نمكن ابراهيم طوقان من الدفاع
عن نفسه وان نقول نحن ايضاً ما نعرف : « ومن اظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ... ولا
تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فانه آثم قلبه ... » ^٢ .

دخل ابراهيم طوقان الى الجامعة الاميركية في العام المدرسي ١٩٢٣ - ١٩٢٤ ، في
الصف الخامس الاستعدادي (آخر صفوف الدائرة ، الاستعدادية يومذاك) . ثم تخرج

(١) كذا في الاصل ، والصواب : الى المدح اكثر منه الى الذم ، والى الشكر اكثر منه الى التجريح . - ولكن
لماذا يريد الاستاذ نجم ان يقصد الكاتب الى الذم فصدأ ؟
(٢) سورة البقرة (٢ : ١٤٠ و ٢٨٣) .

فيه في حزيران ١٩٢٤ . وليس له في هذا العام نزاع مع الجامعة . اما النزاع فبدأ في الدائرة العلمية .

الجامعة الاميركية مؤسسة لها آراء معينة خاصة وسياسة مذهبية مرسومة ، وهي لا ترضى عن مخالفتها سياستها - وهذا حق لها . ولكن ليس من حق الجامعة الاميركية ان تفرض آراءها الخاصة وسياستها المذهبية على جميع الناس .

ثم إن الجامعة لا تستطيع ان تزعم ان جميع المدرسين فيها كانوا دائماً من الطبقة الاولى . ولا شك ابدأ في ان ابراهيم كان يعرف « البلاغة » مثلاً معرفة جيدة قبل ان يتعلمها على مقاعد الدرس . اما تذوقه الادبي وعلمه بالقرآن الكريم فكان فيهما بلا ريب - مما نرى من الانتاج الوجداني عنده - في الطبقة الاولى . يقول ابراهيم في احدي رسائله ١ :

« ... انا اتعلم بلاغة عند ... قال الاستاذ في إيراد آية كريمة ... : لقد جئتم شيئاً إذا ، تكاد السموات ينفطرن (مكان ينفطرن) منه الخ . ثم قال : يخرج الحي من الميت (مكان الميت) ، ويخرج الميت (مكان الميت) من الحي » . إن الميت (بسكون الياء) هو الذي مات ، والذي مات لا يمكن ان يلد حياً . اما الميت (بتشديد الياء) فهو الحي الذي ينتظره الموت . ومعنى الآية الاخيرة لا يمكن ان يستقيم في ذهن الاستاذ إلا إذا كان يجهل الفرق بين المعنيين . ومع ذلك فقد قال ابراهيم : « اما انا فلم احرك ساكناً بل كتبت الآيتين (صحيحتين طبعاً) وبقيت ساكناً » . فأبي تأدب بين يدي استاذ اسمي من هذا التأدب !

على ان ابراهيم لم يكن دائماً يسكت على مثل هذه « المفارقات » بل كان يعلق على اكثرها أمام اصحابه وغير اصحابه ٢ . وإذا علمنا ان الذين كانوا يتحدثون الى ابراهيم كثار ، من الطلاب ومن الاساتذة ، ادر كنا مدى انتشار ملاحظاته ومدى تأثيرها .

(١) بيروت ، ٢٠ تشرين الاول ١٩٢٨ .

(٢) بيروت ، ٢٠ تشرين الاول ١٩٢٨ ؛ بيروت ، ٢٠ نوفمبر ١٩٢٨ ؛ بلا تاريخ (بيروت ، كانون

الاول ١٩٢٨) ؛ بيروت ، ٧ شباط ١٩٢٨ .

وتخرج ابراهيم طوقان في الجامعة الاميركية في حزيران ١٩٢٩ وليس بينه وبين عمدة الجامعة نفرة ، بل كان بينهما مودة كبيرة . وكانت الجامعة تود ان يكون ابراهيم في عداد مدرسيها .

في سنة ١٩٢٦ - على ما أذكر - اجتمعنا : ابراهيم طوقان ووجيه البارودي وحافظ جميل وعمر فروخ ونديم البارودي . على إنشاء حلقة ادبية سمينها دار الندوة^١ . كانت الغاية الاولى من هذه الحلقة اجتماع نفر من الاصدقاء تربطهم رابطة الادب ونظم الشعر . ولقد اتخذ كل شخص منا اسماً ادبياً من زهو العصر العباسي : فاتخذ ابراهيم اسم العباس بن الاحنف ، ووجيه اسم ديك الجن الحمصي ، وحافظ اسم ابي نواس ، وبقي لي اسم صريع الغواني مسلم بن الوليد البغدادي . وكان نديم البارودي كاتب دار الندوة . وغلبت على دار الندوة روح المرح والهزل فقل استاذ لم تتعرض بالهجاء له او لبعض آثاره على الرغم من حبنا له واعجابنا به ، ولكنه تهور الشباب وحب الانتقاد . وكثرت مساجلاتنا في الموضوعات الوجدانية والغزل منها خاصة .

وكان اجتماع ابراهيم ووجيه وحافظ كثيراً ، إذ كانوا في الصف الذي تخرج عام ١٩٢٩^٢ وكنت انا في الصف الذي تخرج عام ١٩٢٨^٣ فأوقاتهم كانت اكثر اتساقاً . ثم انهم كانوا أكثر توفراً على نظم الشعر . وكان أشعر اهل الندوة بلا ريب ابراهيم طوقان . وكان لدار الندوة « دفتر » تدون فيه وقائع الحوادث وتسجل فيه المساجلات الشعرية ، وكان في عهدة نديم البارودي ، ولا ادري ما فعل الله به^٤ . ولكن مما يؤسف له ان صداقة ابراهيم لحافظ جميل خاصة ولوجيه البارودي ونديم

(١) كانت فريش في الجاهلية تجتمع في مكان سمته « دار الندوة » للنظر في شؤونها وإدارة امور مكة .

(2) A U B Directory, 1953, pp. 191, 192, 194, 214 (Wajih Baroodi, M.D 1932) .

(3) Do. pp. 181-2 .

(٤) راجع كلمة عن دار الندوة في مجلة الوادي - لان حال الزبانية الاحرار - اسبوعية سياسية « بغداد » صاحبها ورئيس تحريرها المحامي خالد الدرة - السنة التاسعة ، العدد ١٧ (السبت ٢٦ حزيران ١٩٤٨) ص ٩-١٠ : وفي « اخي ابراهيم » لعدوى طوقان ، ص ٢٨-٢٩ .

البارودي لم تخل من شوائب . في العام المدرسي ١٩٢٨ - ١٩٢٩ كذت انا اعلم في مدينة نابلس فكتب الي ابراهيم^١ يقول : « دار الندوة (تفشكت) لا القوم قومي ولا الاعوان اعواني ... انقطاعي عن كل ما يُقام من حفلات واجتماعات ادعى لراحة فكري واجمل بي ، فلا انا عضو في عروة^٢ ولا مبار في مباراة^٣ ، وعلي واجبات مدرسية اقوم بها حق القيام فلا تبتس بما كانوا يصنعون^٤ . نيكولي^٥ طلب قصيدة « يا تين يا توت » في هذا الصيف وعند قديمي حاسبي (وحدي) عليها^٦ ، فافهمته واقعة الحال وكيف ان هنالك عدواً مبنياً يريد الايقاع بي . فكانت نصيحته لي هذه الجملة^٧ Be careful even of your best friends ففهمت اشياء لم تدري لي في خلد قبل اليوم . »

وخرج الخلاف بين ابراهيم وبين حافظ ووجيه من الميدان الشخصي الى ميدان المبدأ . قبل ان اخرج انا (حزيران ١٩٢٨) كنا كلنا متفقين على ألا ندخل مباراة ذات جوائز مالية ، كالمباراة التي كانت تقام باسم « جائزة مجلة الهلال » مثلاً . لقد كنا نعتقد اننا فوق اندادنا ، فلم تنافس في سبيل مال . هذا مع العلم باننا كنا نقيم حفلات شعرية بلا جوائز او نخطب ونشيد في الحفلات الخاصة والعامه ، لجمعية زهرة الآداب وجمعية العروة الوثقى .

وفي العام المدرسي ١٩٢٨ - ١٩٢٩ ارادت الجامعة ان تقيم حفلة شعرية بجوائز ، وتحت اشرافها هي ، فكتب الي ابراهيم رأيه في تلك المباراة . قال^٨ :

(١) بيروت ٢٠ تشرين الاول ١٩٢٨ .

(٢) جمعية العروة الوثقى .

(٣) كانت الجامعة تقيم مباريات ذوات جوائز ، اشهرها في ذلك الحين مباراة دار الهلال .

(٤) في سورة هود : « فلا تبتس بما كان يفعلون (١١ : ٦) . وفي سورة يوسف : « فلا تبتس بما كانوا يعملون (١٢ : ٦٩) . »

(٥) Edward F. Nickoley عميد الدائرة العلمية .

(٦) قصيدة « يا تين يا توت » اشترك في نظمها ابراهيم طوقان وحافظ جيل ووجيه بارودي في فتاتين كانتا

في الجامعة، هما ليلي تين (دمشق ١٩٠٨ - ١٩٥٠) واختها أليس تين (دمشق، ولدت ١٩١٣). ونخرجت الاختان في الجامعة عام ١٩٣٠ ، ابي بعد ابراهيم وحافظ ووجيه بعام واحد A U B Directory 1953, p 203 .

(٧) احذر حتى من خيرة اصحابك .

(٨) بيروت ، ٢٠ نوفمبر ١٩٢٨ .

« المباراة الشعرية : - لا ازال ثابتاً على رأيي ، اي سوف لا ادخلها ^١ . واجد نفسي ستقوم القيامة علي مع انيس ^٢ لأنني الى الآن اماطله وأزعم ان القريحة مسدودة ولكنني اجرب . يا عمر ، انا في غنى عن الوقوف مع شعراء امثال حسن حوا ورافت البحيري ووداد خوري ^٣ (هذه شاعرة يا حبيبي) وأضراهم . وإذا طمع الجماعة بنيل عشرة جنيهات (أعني حافظاً ووجيهاً) فأنا اضحي بألف ليرة في سبيل كرامتي التي ارى ان الوقوف مع هؤلاء تجرحها . يُنظر إلي الآن في مقدمة شعراء الجامعة ، فاذا دخلت المباراة وكسبت الجائزة فلا يقال سوى (ماهي مسوكة لبراهيم !) وإذا لم اكسبها فلا والله أبقى في الجامعة وقد نالها غيري . »

ويبدو ان النفرة بين ابراهيم وحافظ جميل ظلت مستحكمة . ولكن الصفاء عاد بين ابراهيم ووجيه الى ما كان عليه من قبل وأحسن . ولما كان ابراهيم استاذاً في الجامعة كان وجيه يتابع درس الطب فيها فتقارضا نظم الشعر في الغزل والمجون واجتمعا في النزاهة والاسفار . ولما ترك ابراهيم الجامعة نهائياً اتصلت المكاتبة بينهما زمناً .

وفي الجامعة الاميركية تفتح قلب ابراهيم للهوى ثم شغلته فتاة واحدة عن كل فتاة اخرى . تلك كانت فتاة من الناصرة او من قرية قرب الناصرة اسمها كفر كنة (وادي الرمان) في فلسطين . جاءت هذه الفتاة الى الجامعة الاميركية ومكثت فيها سنة واحدة (١٩٢٥ - ١٩٢٦) ألفت في خلالها شباك هواها على كثيرين ثم وقعت في هوى ابراهيم . ولم تكن هذه الفتاة جميلة بالمعنى الذي تواضع عليه واضعو اقيسة الجمال : كانت فتاة فارعة الطول سمراء مفصلة نواحي الوجه تجول على وجهها ابتسامة خفيفة إذا كانت غافلة في مقعدها او مسيرها ، فاذا نهتها انفاس متأمل او نظرات متتبع غاضت ابتسامتها وتجلت على وجهها نفرة ثم بدا النزق في حركاتها مشوباً بالدلال . تلك كانت (م . ص .) التي نظم

(١) لن اشترك فيها .

(٢) الاستاذ انيس المقدسي .

(٣) هي اليوم السيدة ووداد الخوري المقدسي قرطاس (ابنة اخي الاستاذ انيس المقدسي) . ورافت البحيري هو الزمزم الموهوب . ان هؤلاء الاشخاص البارزين في نواحي نشاطهم الحاس بهم لم يكونوا شعراء يصح لابراهيم طوقان ان يعد نفسه في صفهم .

ابراهيم فيها معظم قصائده في الغزل . ولما تركت م. ص. الجامعة استمرت صلتها بابراهيم
مدة طويلة بعد ذلك .



ابراهيم طوقان حينما كان تلميذاً في الدائرة العلمية

وفي هذه الاثناء ايضاً بدأ ابراهيم ينظم قصائده الوطنية والموضوعية . فالجبشي الذبيح ،
ونشيد « موطني » ، وملائكة الرحمة ، كلها تعود الى تلك الفترة . ولما حدث الزوال في
نابلس عام ١٩٢٧ ودمر قسماً كبيراً منها نظم ابراهيم « رثاء نابلس » فكانت موضوعية
جيدة . ولقد عُرفت لابراهيم مكانة ادبية ممتازة قبل ان يتخرج في الجامعة الاميركية :
لما زار الدكتور منصور فهمي فلسطين ألقى في ساحة مدرسة النجاح بنابلس محاضرة شيقة
فألقي ابراهيم قصيدة حياها بها^١ . وكذلك ألقى قصيدة حياها بشوقي^٢ وقصيدة ثانية في
تحية امين الريحاني^٣ عند مجيئهما الى فلسطين .

(١) نابلس ، ٢٣ تموز ١٩٢٤ . اما القصيدة فنظمت في ١٨ تموز ١٩٢٤ (مجموعة ابراهيم ١٩٢٤ ، ص ٨) ، ثم نشرت في العدد ١١٥ من صوت الشعب (بيروت ؟) وبما انه ظهر فيها اخطاء مطبعية كثيرة فقد صوب ابراهيم هذه الاخطاء في عدد تال .
(٢) هذه القصيدة غير مؤرخة ولكنها منسوخة في دفتر ١٩٢٥ ، ص ١٩ - ٢٤ ، بعد قصيدة الريحاني .
(٣) ألفت في النادي العربي (نابلس) في ١٩ نيسان ١٩٢٧ (دفتر ١٩٢٥ ، ص ١٤) .

وقبل ان يتخرج ابراهيم ايضاً من الجامعة الاميركية أَلف التدخين^١ والشراب :
شرب القهوة ، وشرب الراح . كان نفر من اصدقاء ابراهيم في الجامعة يشربون الخمر
فشر بها معهم . ولقد دعي يوماً مع بعض اصحابه الى وليمة عند صديق في دمشق فقال في هذه
المناسبة قصيدة تنتهي بهذين البيتين^٢ :

فأقبل الساقى يزف الخمر في الأقداح .

يا مرحباً بالراح^٣ تجلو كؤوس الراح .

ثم كثر شربه للخمر وخصوصاً للويسكي ، ذلك الشراب الذي ينشره الانكليز حيث حلوا
في البلاد بين الطبقة المثقفة وبين الموظفين ، حتى قلّ ان ترى موظفاً ذا مركز ما في بلاد
الاستعمار الانكليزي لا يشرب الويسكي . ويبدو ان شربه اصبح في عام ١٩٣٤ إدماناً :

يا من رأنا ليلة الخميس نظارد الهموم بالكؤوس

حتى إذا استولت على الرؤوس وحاقت تنهض بالنفوس

لم يبق للهموم من مجال

مدامة عجيبه المعاني لم تتصل بالحسن بن هاني ؛

جاءتك سكسونية الأوطان موسومة الزجاج بالحصان^٤

تصان بالبذل عن ابتذال

ويبدو ان الاطباء منعوا ابراهيم عن الشراب فكان يمتنع حيناً ثم يعود . ولكنه استمر
في الشراب الى آخر سني حياته .

(١) في احدى رسالته : كيف عيناك ، يا عمر ! هذا مطلع جميل ... انا اجيز لك الصدر ... فانتظر حتى
احك القرعجة بسبكاره وفنجان قهوة (نابلس ، ٣١ اب ١٩٢٨) .

(٢) ١٩٢٨ .

(٣) الراح جمع راحة ، باطن الكف ، والراح الثانية : الخمر .

(٤) الحسن بن هاني هو ابو نواس . والمدامة التي تتصل بالحسن بن هاني هي النبيذ وهو شراب خفيف جداً
بالنسبة الى الويسكي .

(٥) الضمير المستتر في جاءتك يعود على الويسكي التي وصفها ابراهيم ولم يسمها . سكسونية الأوطان :
الويسكي تأتي من بلاد السكسون (الانكليز) . موسومة الزجاج بالحصان : من اجناس الويسكي جنس

اسمه الحصان الأبيض White Horse .

وفي حزيران ١٩٢٩ تخرج ابراهيم في الجامعة الاميركية برتبة بكالوريوس علوم^٣ . وبعد نيل الشهادة مباشرة دخل المستشفى للمعالجة من آلام جديدة في معدية . وكان والده قد اتى الى بيروت ليشهد ابراهيم يتناول الشهادة على منصة الجامعة ، فبقى الى جانبه حتى ابل ثم توجهوا معاً الى مصر لاستشارة اطبائها في علاج ابراهيم . ولقد يّت ابراهيم في نفسه ان يبحث له عن عمل^١ في القاهرة .

استاذاً في مدرسة النجاح

لم يكن اهل ابراهيم راغبين في ان يعمل ابنهم عملاً كبيراً او صغيراً ، فان صحته لم تكن تتحمل شيئاً من الاجهاد . وكثيراً ما كان ابوه يقول له ، يا ابراهيم ، ألا يكفيك ان تعيش في « بنسيون » عبد الفتاح آغا ؟ على ان ابراهيم نفسه كان يريد ان يعمل ، وكان طموحاً في ما يريد ان يعمل . وأول ما فكر فيه ان يعمل في الصحافة - في الصحافة الادبية الشهرية لا الصحافة اليومية على كل حال - كتب إلي يقول^٢ : « بعد سفرك يومين^٣ ذهبت الى القاهرة للاستشفاء وللنظر في شأن شغلي للسنة المقبلة ولملاقاته اخي احمد^٤ ... قابلت صاحب (دار) الهلال ، وأظن ان الشغل قد لا يتيسر هناك إلا بعد ثلاثة او اربعة شهور ... ما تقول يا شيخخي في الشغل مقدار سنة في (مدرسة النجاح) فأكون قريباً من الدار قليل الاشغال !!؟ »

لا ريب في ان اهل ابراهيم كانوا لا يريدون ان يعمل ابراهيم في القاهرة بعيداً عنهم وعن رقابتهم وعن عنايتهم . وهم الذين كانوا يشجعونه على دخول صناعة التعليم ليعلم في مدرسة النجاح في نابلس فيكون قريباً منهم وتحت إشرافهم .

(3) A U B Directory 1953, p. 194.

(١) راجع اخي ابراهيم ، ٣ .

(٢) نابلس ٢٨ تموز ١٩٢٩ .

(٣) كنت انا في العام المدرسي ١٩٢٨ - ١٩٢٩ اعلم في مدرسة النجاح في نابلس .

(٤) كان اخوه احمد راجعاً من الكثرة بعد اتمام دراسته هناك .

وكتب الى ابراهيم انصحته بأن يعلم في مدرسة النجاح للأسباب الأنفة الذكر ، فأجابني ^١ : « تنصحي بأن اعلم سنة ، ولعلي فاعل ... وفي التحرير الثاني ازف إليك أو أنعي إليك (أصح) خبر ارتباطي مع النجاح » . ولقد طلبت منه مدرسة النجاح ان يعلم فيها ^٢ ولكنه اختلف مع الادارة على اشيء شكلية فصلها في هذا الكتاب ثم قال : « ومنذ ساعتين دعاني اخي احمد والوالد ليقتعوني بالقبول ^٣ ، فرجوتهم ان ابقى هذه السنة بلا عمل طلباً للراحة وتخلصاً من المشاغبة . وانحلت العضلة على هذا الوجه » . ولا ريب في ان بقاء ابراهيم بلا عمل كان احب الى اهله . غير انه عاد فقبل التعليم في مدرسة النجاح على ما برغبه هو ^٤ ، ومعلماً للغة العربية .

وكان العام المدرسي الذي قضاه ابراهيم استاذاً في مدرسة النجاح في نابلس عام هدوء وراحة ، على الرغم من كثرة اعماله ^٥ في العام الاول لدخوله صناعة التعليم . اما في ما عدا ذلك فيبدو انه كان مسروراً مرتاحاً الى عمله ^٦ .

رأت الجامعة الاميركية في بيروت ، في بعض ادوارها ، ان تنهج سياسة جديدة ، فارتبطت مع عدد من الشبان المسلمين من متخرجيها في سنوات متوالية منهم رجائي الحسيني وامين نزهة وكنعان الخطيب ومحمد شبقلو وعبدالرحمن البربير وابراهيم طوقان ^٧ . ويلاحظ ان هؤلاء كانوا من بلدان مختلفة : من القدس وحلب وحماة وبيروت وبيروت ونابلس على التوالي ، كما ان بعضهم كانوا من اسر معروفة مشهورة في بلدانهم امثال رجائي الحسيني وكنعان الخطيب وعبدالرحمن البربير وابراهيم طوقان . ولقد ادنى كنعان الخطيب للجامعة خدمات جليلة جداً لما عرف عنه من الروح الاجتماعية والجرأة الادبية

(١) نابلس ١٢ آب ١٩٢٩ .

(٢) نابلس ١١ ايلول ١٩٢٩ .

(٣) اي بالنسائل مع ادارة النجاح ، ليقتعوني (اي اهلي) .

(٤) راجع نابلس ١ تشرين الاول ١٩٢٩ .

(٥) من ملاحظة لبراهيم في حاشية على رسالة من الطالب السيد سمح النابلسي ، نابلس ، ٢٣ تشرين الاول ١٩٢٩ .

(٦) نابلس ١٠ تشرين الاول ١٩٢٩ .

(٧) من متخرجي الاعوام التالية : ١٩٢٤ ، ١٩٢٨ ، ١٩٢٩ .

cf. A U B Directory pp. 155 and 156, 183, 191 and 193.

والمقدرة على التحديث . كان كنعان روح الحفلات الاجتماعية التي كانت تقيمها الجامعة ومن اعظم العاملين على نجاحها . ثم ان كنعان الخطيب هو الذي زار الاقطار العربية لاقناع الاسر الاسلامية، التي لم تكن بعد قد ارسلت ابناءها الى الجامعة الاميركية ، بان تفعل . ان شبه الجزيرة العربية من نجد الى الحجاز الى الكويت الى البحرين كانت تعد ، بالنسبة الى الجامعة الاميركية في بيروت ، مجاهل حتى استكشفها كنعان الخطيب فتدفق منها الطلاب على صفوف الجامعة المختلفة . ومهمات كنعان المشابهة الى سائر الاقطار العربية مشهورة¹ . ولم يكن ارتباط هؤلاء الشبان المسلمين مع الجامعة الاميركية سبباً من اسباب الدعاية لها في الاوساط الاسلامية فقط ، ولكن بعضهم كان من احسن المدرسين اقتداراً في فروعهم التي علموها . ان كنعان الخطيب و ابراهيم طوقان في اللغة العربية ومحمد شبقلو في الكيمياء كانوا شموساً في المعرفة وفي المقدرة على التعليم .

ونجمت الازمة الاقتصادية الخانقة في العالم عام ١٩٢٩ ثم وصلت بعد ثلاث سنوات الى الولايات المتحدة فقلّت اموال التبرعات التي كانت ترد على الجامعة الاميركية في بيروت . عند ذلك فكرت الجامعة في شد الحزام على وسطها واختصار نفقاتها . ويحدث في المؤسسات العلمية ما يحدث في الدوائر السياسية وتستغني الجامعة عن المدرسين « الصغار » : لقد استغنت عن محمد شبقلو وعبدالرحمن البربير و ابراهيم طوقان و امين نزهة و رجائي الحسيني ثم عن كنعان الخطيب نهائياً ، وطلب انيس الخوري فريحة حالته الى الاستيداع فذهب الى شيكاغو يتابع درسه ريثما تمر العاصفة الاقتصادية فيعود الى عمله الاول ، اذا امكن .

ونعود الآن الى التوفر على الاحوال التي احاطت بابراهيم طوقان وهو استاذ في الجامعة الاميركية ثم جعلته يخرج ناقماً عليها اشد النقمة .

ارتبطت الجامعة الاميركية مع ابراهيم طوقان عام ١٩٣٠ باتفاق مداه ثلاثة اعوام

(1) cf. Penrose 301-2.

* A U B Directory 174 ، في الجامعة الاميركية في بيروت استاذان باسم انيس الخوري : الاستاذ انيس الخوري القدسي والاستاذ انيس الخوري فريحة .

مدرسية: ١٩٣٠ و ١٩٣١ و ١٩٣١ - ١٩٣٢ و ١٩٣٢ - ١٩٣٣، ولكنه اضطر الى الاستقالة بعد عامين اثنين، ولا ريب في ان العامل الاول في هذه الاستقالة يعود الى نفرة شخصية بينه وبين استاذ كان له يومذاك تأثير عظيم في توجيه سياسة الجامعة. ولكن لا يجوز لنا التوسع في هذه النفرة الشخصية في هذا المكان، ذلك لأن اعتمادي في تفصيل اخبارها الخطيرة سيكون مستنداً الى «معلوماتي الشخصية». ان ابراهيم لم يكتب الي رسائل في المدة التي قضاها في الجامعة الاميركية استاذاً، ذلك لأننا كنا نعيش في بلد واحد. ولكنه على كل حال كان يخبرني ما يجري بشأنه تبعاً وتفصيلاً. ولقد اتفق ان ذكر ذلك في احدي رسائله^١. ذكر انه قال لانيس فريجة^٢ في معرض حديث طويل: «ولكن عمر (مؤمن) ولا يلدغ من جحر مرتين^٣ - وانا ملدوغ المرة الاولى - وهو مطلع على كل تصرفات الكلية^٤ معي».

على ان الجامعة الاميركية كانت تزعم ان في ابراهيم عيوباً مسلكية، اشير اليها في سجله الجامعي بنقاط، رمادية وسود^٥، هي التي جعلتها تفكر بالأ تجديد عقده اذا انتهى اجله. ولكن ابراهيم استبق الحوادث واستقال قبل انتهاء اجل العقد بعام كامل. من هذه المزاعم ان ابراهيم لم يكن جلدأ على العمل التعليمي، وانه لم يبرهن على انه قادر على القيام بجهد للتأليف الجامعي، وانه كان مريضاً بأمراض تجعله غير قادر على تحمل مشاق صناعة التعليم فضلاً عن ان تلك الامراض كانت تضطره احياناً الى الانقطاع عن التدريس. ولقد كان موقف الجامعة هذا مستنداً الى تقرير نظمه الاستاذ الذي كان بينه وبين ابراهيم نفرة شخصية.

على ان هذه كلها مزاعم كما قلت ولم يكن لها ثقل كبير في ميزان ابراهيم، لأن الجامعة نفسها عادت فرغبت في الارتباط مع ابراهيم من جديد.

(١) نابلس، ١٤ ايار ١٩٣٣.

(٢) الدكتور انيس فريجة، p. 174, cf. A U B Directory 1953.

(٣) اقتباس من حديث شريف: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»، اي لا يندع مرة بعد مرة.

(٤) الجامعة الاميركية لازال اسمها الاول «الكلية» (السورية الانجليزية) غالباً عليها ودائراً على الالسنه.

(٥) مجلة الكلية، نيسان ١٩٤٦، ص ٩.

قال ابراهيم^١ : اليوم صباحاً زارني في الدائرة^٢ حليم نجار . وهو من هؤلاء القلائل الذين احببتهم بين زملائي المعلمين في الجامعة . ودار البحث عن الكلية^٣ فود لو اعود اليها . فاخبرته ان حبيب كوراني^٤ كان حضر لنا بلس منذ اسبوعين وعرض برجوعي الي الجامعة ، وقال ان الاستاذ انيس^٥ لا يبرح يذكر ايام شغلي وأنه لا يتصور ان يشتغل الا مع ابراهيم طوقان . وكان البحث بيني وبين الكوراني يدور حول الظروف التي احاطت بتقديم استقالتي ، وحبيب يراها ظروفاً لا تدعو الى الاستقالة

ويؤكد ما يقوله هنا الاستاذ حبيب كوراني ما قاله الاستاذ انيس المقدسي نفسه لما قال كلمته الرثائية في ابراهيم طوقان ، قال^٦ :

« وفي سنة ١٩٣٠ عينته الجامعة مدرساً في الدائرة العربية فكان مثال الاجتهاد والامانة . وقد استطاع برفيع ادبه وحسن سجاياه ان يكتسب محبة الطلاب وثقة الرؤساء والزملاء . وكان يرحى ان يكون له شأن كبير في حقل التدريس الجامعي حتى توجهت الانظار الى ترشيحه للتخصص العالي في احدى جامعات اوربة وإعداده لمستقبل علمي زاهر .

« ولكن الزمان لم يسمح بذلك فقد اخذ يشكو من قرحة في معدته اقضت مضجعه وحرمة خدمة الجامعة والعلم ، و اشار عليه الاطباء بالراحة وملازمة العلاج فاضطر الى ترك الجامعة بعد خدمة سنتين والعودة الى فلسطين

هذا ما يقوله الاستاذ انيس المقدسي استاذ الدائرة العربية في الجامعة الاميركية . وكان ابراهيم طوقان يعمل معه - والاستاذ المقدسي في غنى عن ان يمالى ابراهيم طوقان . ولو كان سلوك ابراهيم العلمي او التعليمي يحتمل الغمز لأغفل الاستاذ المقدسي ذكر سلوكه هذا جملة ولما ورط نفسه في شيء قد يحتاج يوماً الى ان يحاسب فيه نفسه .

(١) نابلس ١٤ ايار ١٩٣٣ .

(٢) دائرة المياه في نابلس .

(٣) الجامعة الاميركية في بيروت .

(٤) استاذ التربية في الجامعة الاميركية ومن المتصلين بادارتها ، فقد كان زمناً « مسجلاً » فيها .

(٥) الاستاذ انيس المقدسي .

(٦) الامالي المجلد الثالث ، العدد الرابع ، ص ٣ .

وعلى كل ، فان هذا طرف من الاحوال التي احاطت بابراهيم طوقان في الجامعة الاميركية . اما الطرف الآخر فيحسن السكوت عنه الآن ، لأنه لا يتصل اتصالاً كبيراً بشعر ابراهيم .

لا ريب في ان ابراهيم رغب في العمل في الجامعة الاميركية في اول الامر لما في مثل هذا المركز من الواجهة ومن الفرص العلمية والادبية . على ان هنالك سبباً آخر كان اعظم اهمية في رأي ابراهيم : حبه لبيروت وكرهه لنابلس ، كانت نابلس لا توافقه صحياً . قال في صدد امكان عودته الى الجامعة الاميركية ما يلي :

« وانا - على كل حال - اذا اردت ان اعود الى الكلية فعودتي اليها مطلوباً لا طالباً . . . انا يا عمر لم اكون جسمي في نابلس بل في القدس خمس سنوات وفي بيروت ثمان ، من سن ١٣ - ٢٧ ، وهذا اثر في صحتي العامة . فلو تراني اليوم في حال من الحالة الصحية لعجبت لي كيف ارضى بالاقامة في نابلس . واليك مثلاً صغيراً : غبت عن نابلس في لبنان وفي الشام خمسة عشر يوماً . فلما رجعت ، واقسم لك بالله ، ما شربت الشربة الاولى من مياه نابلس حتى ابتداء معي مغيص المعدة الذي فارقني طيلة غيابي عن نابلس ! فما رأيك ؟ فاذا كان لي ان ارجع الى بيروت فذلك فراراً من وضعيتي في نابلس . »

وتعليل هذه النفرة من نابلس سهل : ان مياه نابلس كثيرة الرواسب من المواد الكلسية والقلوية ، اعنف الى ذلك انها لم تكن قبل عام ١٩٣٦ - قد جرت الى البيوت بأنابيب ، فكانت دائماً معرضة للتلوث . وبما ان ابراهيم كان مصاباً بالقرحة وكان في امعائه استعداداً لانواع الانتهاب ، فان مياه نابلس لم تكن توافقه قط لما فيها من مواد كلسية وقلوية ولا مكان تلوثها بالجراثيم المختلفة . ويبدى ابراهيم نفرة من نابلس في عدد من رسائله . وفي بيروت - في هذه الفترة - عرف ابراهيم المستشرق نيكل^٢ . والدكتور نيكل ولد

(١) نابلس ١٤ ايار ١٩٣٣ .

(٢) A. R. Nyki . عبد الرحمن نيكل .

عام ١٨٨٥ في بوهيمية ، احدى المقاطعات التي نشأت منها جمهورية تشيكوسلوفاكية بعد الحرب العالمية الاولى . وفي عام ١٩١٦ تخرج من جامعة شيكاغو برتبة دكتور في الفلسفة . ولقد كان منذ ذلك الحين قد استقر نهائياً في الولايات المتحدة .

والدكتور نيكل متوفر على دراسة الآداب العربية ودراسة الصلة بين الموشحات الاندلسية ونشأة الشعر البروفنساوي^١ . وقد زار الدكتور نيكل العالم كله وقضى مدداً مختلفة متفرقة في المغرب ومصر ولبنان وسورية ، وهو كاتب خصب فياض القريحة يجيد لغات متعددة منها التشيكية والفرنسية والانكليزية والالمانية والاسبانية والعربية واليابانية وهو يقرأ ويتحدث ويكتب بهذه اللغات كلها . وللدكتور نيكل اهتمام بالاسلام وبالدراسات الاسلامية ، ولقد نقل القرآن الكريم الى اللغة التشيكية فطبع مرتين عام ١٩٣٤ و ١٩٣٨ . وساعد ابراهيم^٢ الدكتور نيكل في نشر « كتاب الزهرة » لابن داوود الاصفهاني ، وهو مجموع شعر بارع^٣ . ولقد وفي الدكتور نيكل ابراهيم حقه من الاطراء في مقدمة كتاب الزهرة .

وفي هذا الدور عرف ابراهيم راقصة اسبانية تدعى مرغريتا كانت تعمل يومذاك في مقهى النجار ، غربي ساحة البرج ، في بيروت . ويذكر الدكتور نيكل^٤ انه حضر مع ابراهيم حفلة واحدة من حفلات مرغريتا رقصت فيها رقصاً اندلسياً بالصنوج الصغار . وقد تدلّه ابراهيم بهذه الصبية الصغيرة الفاتنة التي كانت تمثل الجمال الاندلسي^٥ ، تمثيلاً صادقاً . وكان ابراهيم يتطلع اليها وهي ترقص مأخوذاً « سكران من غير خمر » . ويبدو انها كانت قد اصيبت في قلبها من قبل فخاها من احبته فكان يسرها ان ترى معجباً

(١) او شعر الشعراء التروبادور في جنوبي فرنسا السابق على نشأة الآداب الحديثة في جنوبي اوروبسة وغربها . راجع مجلة الإمالي ، السنة الاولى : العدد ٤ ، ص ٤ - ٦ ؛ العدد ٥ ، ص ٤ - ٦ ؛ العدد ٦ ، ص ٤ - ٦ .

(٢) نشرته جامعة شيكاغو وتولت طبعة المطبعة الكاثوليكية في بيروت (١٩٣٢) .

(3) Cambridge, Mass., U.S.A., August 14, 1954.

(٤) الاندلس في الاصل مقاطعة في جنوبي اسبانية . وكثر اختلاط اهل هذه المقاطع بالعرب نشأ من هذا الاختلاط الجمال الاندلسي المشهور .

بها مخلصاً . لذلك كانت تخصصه - وهي تقوم برقصاتها - بإشارات من مروحتها مقرونة
بكلمات تدل على انها تبادل هذا المحب المعجب إخلاصاً باخلاص . وعرفت مرغريتا في
بيروت عاشقاً غيباً كانت تُطمعه بنفسها طمعاً بماله ، اما في ما عدا ذلك فقد كانت حذرة
يقظة تحسن اختيار الذي تلقي عليهم شباكها - كسائر ابناء جنسها . الا ان صلتها بابراهيم
كانت بلا ريب صلة إعجاب صحيح وإخلاص عميق .

واجتمع ابراهيم الى مرغريتا اجتماعات كثيرة وجلس اليها مجالس انس متعددة ينهل
من فنتها . ولقد كانت من المنتظر في مثل هذه المجالس ان يتناول المجتمعون شيئاً من
الشراب لخلق جو يعيد الى الذاكرة ايام بغداد وليالي الاندلس . وحتى ذلك الحين لم يكن
ابراهيم قد أدمن على الخمر .

وتطورت صلات ابراهيم بمرغريتا حتى انتهت الى ما يُنتظر ان تنتهي اليه . ففي
بحون ابراهيم قصيدة - او مشهد على الاصح - يُنحي فيه باللائمة على بني عُذرة لأنهم يحبون
جأً روحياً ويسفقه رأيهم . ثم يختم هذه القصيدة بمقطع تمثيلي يصف فيه وصال مرغريتا .
ويبدو ان هذه القصيدة نظمت في منتصف عام ١٩٣٤ ، وبعد ان غادر ابراهيم ومرغريتا
والدكتور نيكل كلهم بيروت .

وحمل الدكتور نيكل معه الى الولايات المتحدة صورة ابراهيم المولته بحب مرغريتا .
يقول ابراهيم في احدى رسائله (نابلس ١٩٣٤) :

« الدكتور نيكل رجع الى اميركا . وآخر ما بعث به إليّ كرتين بريديين على كل منهما
غانية اندلسية ... وكتب لي عليهما باللغة الاسبانية » .

وتوثقت صلة ابراهيم في هذه الفترة ايضاً بعدد من الاصدقاء ارى ان اقتصر منهم على
ثلاثة فقط : جمال القاسم وصديقان آخران .

جمال القاسم شاب من ابناء البيوتات المعروفة في نابلس وصديق وفي لآل طوقان ومن
المعجبين بابراهيم وبشعره . وجمال القاسم « صديق » بالمعنى العربي الخالص في السعة

والضيق على السواء ومن ذوي الاخلاق الكريمة . وكثيراً ما كان ابراهيم اذا ستم من نابلس ذهب الى يبارة جمال القاسم في حبله (قرب قلقيلية من قضاء طول كرم) ، كتب ابراهيم مرة في هذا الشأن ^٢ : « كنت في يبارة جمال القاسم اربعة عشر يوماً ثم عدت الى نابلس لأسافر منها الى القدس واقم اسبوعين ، فانا غائب عن نابلس شهراً بلياليه » .

واما الصديقان الآخران فاحدهما من فلسطين والآخر من سورية . وهذان شاعران تغلب عليهما المجانة . و ابراهيم نفسه يصف اولهما بالرعونة ايضاً ^٣ . واما الثاني فلا يرى الحياة الا في التهلك والفسق ^٤ .

عرف ابراهيم هذين الصديقين في عام ١٩٣١ فدلاه على طريق الملدات المستأجرة وولياه في الشراب وفي مطاردة المحصنات والمتزينات للرجال . يتكلم ابراهيم عن هذين الصديقين في احدي رسائله فيقول ^٥ :

« ... ولذلك لم اهتم بالتنقل في الجبل بل فضلت القرار في مكان ^٦ اللهم الا (مشوار) للجامعة قضيت فيه مهمة لقدري ^٧ ... ومشوار نزلت فيه مع ... في طاعة ابليس . » ثم ذهبنا الى الشام من ٢٠ - ٢٥ آب ، وهناك انقدنا ما كنا ادخرناه في الجبل من صحة وقوة ومال دفعناه لبنات امية اكراماً لعيني الوليد بن يزيد وذوابتي حبابة ^٨ . يا روجي على دمشق ... » .

وقد ترك ابراهيم مجموعة من الشعر في المجون يدور اكثره على هذين الصديقين ووصف اعمالهما في هذا الباب لا ارى ان استشهد منه بشيء .

(١) البيارة بستان برتقال ، وفيه عادة اسباب للسكنى والراحة .

(٢) نابلس ، ١٤ ايار ١٩٣٣

(٣) القدس ، ١٣ تشرين الاول ١٩٣٨ .

(٤) نابلس ، ١٠ كانون الاول ١٩٣٥ .

(٥) نابلس ، ٢٣ ايلول ١٩٣٤ .

(٦) في مكان واحد من الجبل (لبنان) .

(٧) قدرتي طوقان .

(٨) يقصد ابراهيم يزيد بن عبد الملك وكان قد شغف بجاريتين اسم احدهما سلامة واسم الاخرى حبابة

(الفخري ٩٥) .

في معارف فلسطين

على ان ابراهيم لم يعد الي العمل في الجامعة الاميركية مرة ثانية ، بل عين في المدرسة الرشيدية في القدس ، وهي مدرسة حكومية . ولم يجد ابراهيم صعوبة في « نيل منصب معلم في مدرسة رسمية » . وهذا ما حمله على ان يكتب الي فيقول ^١ : « امر استخدائي في المعارف مفروغ منه ، إلا ان المكان لم يعين لي بعد ، وعلى الاغلب اكون في القدس في المدرسة الرشيدية » .

وبعد نحو شهر عاد ابراهيم فكتب الي يقول ^٢ : « لقد تم تعييني في المدرسة الرشيدية



ابراهيم طوفان في عام ١٩٢٣

وسأكون انا واحمد معاً في دار واحدة » . وقبيل افتتاح موسم التدريس كتب يقول ^٣ ، « يتبدى التدريس عندنا في الثالث من اكتوبر . ويكون عندي ٢٨ حصة . ومواضيعي قواعد وانشاء وقراءة ومحفوظات ، واربع حصص تاريخ العرب » .

ولم ير اهل ابراهيم بأساً في ان يعود ابراهيم الي صناعة التعليم وان يعيش في القدس بعيداً عن « الدار » ، فقد كان اخوه احمد استاذاً في الكلية العربية في القدس ، وقرر ان يعيش احمد و ابراهيم في بيت واحد كما رأينا . ولكن ابراهيم لم يمكث في المدرسة الرشيدية سوى ثلاثة

اشهر ، هي الاشهر الثلاثة الاخيرة من عام ١٩٣٢ ، ثم ساءت حالته الصحية واضطر الي اجراء العملية الجراحية الكبرى في معدته في اوائل كانون الثاني من عام ١٩٣٣ ^٤ . وفي الثاني من

(١) القدس ، ١٣ تموز ١٩٣٢

(٢) القدس ، ١٠ آب ١٩٣٢ .

(٣) القدس ، ٢٢ ايلول ١٩٣٢ .

(٤) راجع قصة مرضه ، ص ١٩ وما بعدها .

شهر شباط خرج ابراهيم من المستشفى ومنحته حكومة فلسطين اجازة شهر . ولكن ابراهيم كان قد قرر ان يستقيل مرة واحدة من صناعة التعليم فكتب الي يقول ^١ : « ينقضي الشهر ، وهو شهر شباط ، فاكون قد قدمت استقالي لحكومة فلسطين مطلقاً مهنة التعليم طلاقاً لا رجعة فيه » . وفعلاً استقال نهائياً وترك التعليم ^٢ ولكن الى حين .

في هذا الدور القصير اكتسب ابراهيم عداوة احمد سامح الخالدي . احمد سامح الخالدي مؤسس الكلية العربية في القدس ومن رجال التربية والتعليم الذين كان لهم اكبر الاثر في توجيه المعارف في فلسطين . وتوثقت الصلة بين آل طوقان وآل الخالدي لما تزوج احمد طوقان ، اخو ابراهيم ، في اوائل شهر آب من عام ١٩٣٢ ^٣ بنت نظيف الخالدي الذي كان مهندساً لسكة حديد الحجاز وساكناً في بيروت حيث توفي في منتصف الحرب العالمية الاولى . ومن طريق هذا الزواج اصبح احمد طوقان « عديلاً » للدكتور حسين الخالدي وصديقاً ل احمد سامح .

وكانت الصلات بين احمد سامح وبين ابراهيم دائماً حسنة اذ كان احمد سامح معجباً بابراهيم وصديقاً له منذ كان ابراهيم في بيروت ، وكان احمد سامح يتردد عليها لأنه متزوج في آل سلام . ويبدو ان النفرة بين الرجلين بدأت مع دخول ابراهيم في معارف فلسطين ، مع العلم بان احمد سامح كان قد ساعد ابراهيم على تحقيق هذه الرغبة . كان احمد سامح - كما يبدو - رجلاً يحب السيطرة ويرى فرض آرائه في جميع الاعمال التي يتولاها . ولا غرو فجميع الرجال الذين يتولون مناصب ذوات تبعة يفعلون ذلك . وكان ابراهيم ذاهباً بنفسه في كثير من الامور لأنه لم يطلب منصب معلم في المدرسة الرشيدية - ولا في الجامعة الاميركية من قبل - ليكسب معاشه ، فقد كان في غنى عن ذلك كله .

(١) القدس ، ٢٣ كانون الثاني ١٩٣٣ .

(٢) نابلس ، ١٠ آذار ١٩٣٣ .

(٣) القدس ، ١٣ تموز ١٩٣٢ والقدس ١٠ آب ١٩٣٢ .

(٤) احمد سامح الخالدي من كبار المرين في العالم العربي ، كان رئيس السكابة العربية في القدس واحمد مساعدي مدير المعارف العام في فلسطين يتولى الناحية الفنية ، اما الناحية الادارية فكان يتولاها جبرائيل كانول . وكان للشؤون اليهودية في وزارة المعارف مساعد آخر يهودي .

ولكنه أثر ان يعمل دائماً كيلا يبقى عاطلاً من العمل لا يدري كيف ينفق وقته . من اجل ذلك لم يكن كثير المدارة للاشخاص الذين كان يتصل بهم في نطاق وظيفته . ثم انه كان - اذا تحركت آلام معدته - سريع التأثر بشيره الامور العادية وتغضبه الملاحظات اليسيرة . ونامت النفرة بين احمد سامح وبين ابراهيم حتى عام ١٩٣٤ حينما جرت الانتخابات البلدية في انحاء فلسطين ثم عين الدكتور حسين الخالدي في مطلع ١٩٣٥ رئيساً لبلدية القدس . ويفصل ابراهيم في احدي رسائله^١ السبب الذي ادى الى تلك الاستفاقة والمناسبة التي لا يستها فيقول :

« اخي عمر !

« اسمع . الحديدة حامية بيننا وبين احمد سامح الخالدي . هنالك كتاب المحفوظات تقدم الى لجنة اختيار الكتب وهو باسم ابي سلمى^٢ واسمي . وكفى ان يكون اسمي عليه لتبذل المساعي في رفضه ولو كان فيه خلود معارف فلسطين . والاسباب سياسية (.....) ، من عهد الانتخابات البلدية وبضعة آيات من الشعر قيلت في الموضوع^٣ فلم تكن على مزاج الفائزين بالبلدية اولاد الخالدي . حتى اخونا احمد طوقان لا ينظر الينا بعين الرضى ، وكرمال عين^٤ فكيف وهذه العين خالدية (احمد عديل الدكتور الخالدي رئيس بلدية القدس الآن) . انا ارى ان يحذف اسمي من الكتاب ولا يبدو عليه اثر منه لأنه سيكون مقضياً عليه لا محالة . »

ووقف احمد سامح في وجه ابراهيم وقاوم تقرير كتاب المحفوظات المذكور في معارف فلسطين . فلم يثر ابراهيم هذه المرة بل ظل هادئاً وعدة القضية - قضية الكتاب -

(١) نابلس ، ١٩ شباط ١٩٣٥ .

(٢) عبد الكريم الكرمي .

(٣) لم استطع ان اعرف الايات التي نظمها ابراهيم في هذه المناسبة .

(٤) مقطوعة من المثل العامي : كرمال عين (اكراماً لعين واحدة) تكوم ، مرجعيتون (اسم بلسد)

كتابة عن الكثرة .

منتية . اما النفرة فتحولت الى عداوة كان ابراهيم يرى انها لاتضره هو لأنه غير محتاج الى الكتاب ولا الى احمد سامح . وهكذا كتب يقول ^١ :

ليس الامر بيني وبين احمد سامح بالامر المهم عندي انا ولكن عنده هو (وانت لا تعرف اخلاقه) وهو يسيء الظن في مسائل ابعدها ما تكون مناسبة عن حقيقتها وعمما يفسرها ويجهتد فيها . والله في خلقه شؤون ، كتاب محفوظات صغير لي ولأبي سلمى يقول صراحة : « لن يمشي » فتأمل . ويمر اول امس بنابلس فيشيخ بوجهه عني »
وبعد ان خرج ابراهيم من المستشفى واستقال من معارف فلسطين استجم بضعة اشهر ثم عمل في دائرة المياه التي كانت تابعة لبلدية نابلس . ولقد حمله الفرح من التخلص من التدريس على ان يكتب الي ^٢ : « انا اشتغل الآن . شغلي يتعلق بأول الاشياء التي تنفي عن القلب الحزن ^٣ : اشتغل بدائرة المياه في نابلس . الشغل لا يوجد فيه تصليح دفاتر والسلام . . . المعاش مريح » . على ان اعمال دائرة المياه شغلته فيما بعد كثيراً ، ذلك لأن مشروع المياه كان لا يزال في اوله ، فنابلس الى ذلك الحين لم تكن تتمتع بمياه تجري الى البيوت . ومنذ شباط ١٩٣٥ شعر ابراهيم بكثرة العمل وخصوصاً بعد ان جعل ينظّم حسابات المصينة التي يملكها والده عبدالفتاح آغا وعمه في نابلس . من اجل ذلك لا يستغرب احد اذا رآه يقول في احدي رسائله ^٤ : « شواغل ، شواغل ، شواغل ، يا عمر ! دائرة المياه ، وطوفان الامطار في نابلس (ولعلك قرأت عنه) والمصينة » .

وفي رسالة تالية ، بلا تاريخ ^٥ ، يخبرني ان نجاح مشروع المياه في نابلس مطرد

(١) نابلس ، ١٣ نيسان ١٩٣٥ .

(٢) نابلس ، ٣١ تموز ١٩٣٣ .

(٣) من ابيات الشعر السائرة :

ثلاثة تنفي عن القلب الحزن : الماء والحفرة والوجه الحسن !

(٤) ١٩ الشهر الملعون ١٩٣٥ .

(٥) هذه الرسالة يجب ان تكون قد كتبت في حزيران او تموز من سنة ١٩٣٥ لأنه يذكر فيها اني رشحته لتعليم مكاني في كلية المقاصد ويعتذر عن قبول النصب ، وانا غادرت بيروت الى المانية في اواخر آب ١٩٣٥ . ولكنه يذكر فيها ايضاً انه على وشك الفراغ من نظم قصيدة « الشهيد » التي يفهم من الديوان انها كتبت في ١٩٣٣ (للذكرى الاربعة لثلاثاء الحمراء في تموز ١٩٢٩) . ولا ريب في ان ١٩٣٥ اصح من ١٩٣٣ هذه الرسالة ولقصيدة الشهيد .

اطراداً حسناً بعد ان تم ورأت البلدية ان تستغني عن المهندس الذي سيّر المشروع . يقول ابراهيم في هذه الرسالة : « ومعنى ذلك اني انا مدير الدائرة فعلاً وان كنت كاتباً فقط ... وربع' المشروع المنتظر يحتمل ان يزيد راتي (منه) . وما ذلك على رئيس البلدية بعزير^١ » .

غير ان ابراهيم ما لبث ان استقال من دائرة المياه وانصرف الى تنظيم حسابات المصنبة . ولقد اخبرني في ١٧ تشرين الاول ١٩٣٥ انه كان قد استقال من دائرة المياه وانه « يداوم على المصنبة كل يوم من الساعة السابعة حتى الواحدة بعد الظهر ويرجع عند العصر الى نحو الثامنة مساءً ، عملاً بحكمة زعيم الخلفاء الراشدين عمر رضي الله عنه حين قال : التجارة ثلث الامارة ، ولا بأس من مزاوله بعض الاعمال التجارية الآن ففيها تسلية وفيها فائدة ايضاً ، ولعلي اخبرتك اني استقلت من عملي في بلدية نابلس فاصبح ضرورياً ان املأ الفراغ المضجر المفسد^٢ بما ينفع ويحفظ فينا القوة على العمل والانتاج » .

في الاذاعة الفلسطينية

وفي اواخر عام ١٩٣٥ كانت الحكومة تعد العدة لانشاء محطة اذاعية وتبحث عن اشخاص يتولون امورها . وكان ابراهيم احد هؤلاء الاشخاص ، قال في رسالة له^٣ :

« حكومة فلسطين جاذة في انشاء محطة اذاعة لاسلكية يذاع منها باللغات الرسمية الثلاث العربية والانكليزية والعبرية . والبرنامج يحتاج الي موظفين جدد . وكل لغة يحتاج برنامجها الى مدير . والمدير يجب ان يكون شخصية اديبة معروفة في البلاد ومن اصحاب المكانة فيها . ولا ادري كيف تم الامر ، ولكنني لم اجد نفسي الا في جلسة غير رسمية مع

(١) كان رئيس البلدية في ذلك الحين سليمان بك طوقان احد اقارب ابراهيم .

(٢) الرسالة مؤرخة في ١٦/١٠/٣٥ نابلس . ولكن نصفها الثاني الذي يقص فيه هذا الخبر مؤرخ

في ١٧/١٠/٣٥ .

(٣) اشارة الى بيت من ارجوزة اني المتأهية :

ان الشباب والفراغ والجدة . مفسدة الهرة اي مفسدة

(٤) نابلس ١٠ كانون الاول ١٩٣٥ .

المستر فيرنس^١ الانكليزي مدير المطبوعات ، في فندق الملك داوود بالقدس ، ومعه آخر هو مدير استخبارات الجيش وقسم الطيران منه . الجلسة عادية لا رسميات فيها مطلقاً ولا سوالات تتعلق بعمل او باي شيء سوى ما كان من استغراب الرجل وزميله من ان يكون ابراهيم طوقان ، صاحب القصائد المهيجه بهذا الجسم الضئيل ، وكان يُظن قوي العضل ضخم الجثة على رأسه عمامة . فقلت ما معناه : ترى الرجل النحيف فتزدريه . . . الخ^٢ . وذكرنا كلمة يوليوس قيصر في كاسيوس النحيف وبروتوس الجسيم !!^٣ .

انقضت الجلسة واصبح الصباح واذا بمستر فيرنس يوعز لاحسان هاشم كي يحملني على تقديم الطلب لمركز « مدير برنامج الاذاعة العربي » ورتبته (Senior K) وهو درجة اولى بيتديء براتب قدره ٢٩ جنيهاً شهرياً . وقدما الطلب حسب الاصول ، وهانحن ننتظر شيئاً جديداً في عالم السعي في طلب الرزق ، والباب الذي يفتحه الله لا ينبغي للعبد ان يغلقه ، ولعل الله ييسر ، فالمركز طيب والمبلغ لا يستهان به والمسئولية فيه لا تكبد حاملها كبير تعب وعناء .

وسكت القائمون على « مصلحة الاذاعة » نحو شهرين ثم عادوا الى ابراهيم . يقول ابراهيم في رسالة بعث بها الي من عمان^٥ .
« لا يوجد شيء أخص على المرء من الانتظار . ولا يوجد ما يعرقل العمل والبرنامج

(1) Furness.

(٢) ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي اثوابه اسد منزير .
مطاع مقطوعة تتألف من تسعة ابيات للعباس بن مرداس ، وهو شاعر مخضرم وصحابي جليل . وقد اختار ابو تمام هذه الابيات في ديوان الحماسة .

(3) Tragedy of Julius Caesar, I, ii:

Yond Cassius has a lean and a hungry look ; He thinks too much : Such men are dangerous.

ان لكاسيوس الواقف هنالك وجهاً مسنوناً (اعجب ، نحيلاً) ونظراً ضارياً (جائعاً ، طامحاً) . انه يفكر كثيراً : والناس الذين هم مثله خطرون .

(٤) احسان شاكر هاشم ، كان من ١٩٣٤ - ١٩٣٦ السكرتير الخاص للندوب السامي في فلسطين

A U B Directory 1953, p 201

(٥) عمان ، ٣٦/٢/٤ .

كالاتظار . اقول ذلك على اثر ما حصل مما حدثتكَ عنه ، اعني (الاذاعة العربية لحكومة فلسطين) . فهذه بعد ان قابلت الجماعة المسؤولين وحصل القبول استولى عليهم نوم عميق كنت انا خلاله ساهراً وبعد مضي ما يقرب من اربعين يوماً عادوا وطلبوني للمقابلة وسألوني هذا السؤال البارد : هل انت مستعد لقبول هذا المركز ؟ !! فأنصفتني ، يا اخي ، من هؤلاء السخفاء ! ولا بد من القول أنني كنت اتحسس الاخبار فأجد انهم على اتصال مع اناس آخرين يفاوضونهم في المشروع ذاته ويقابلونهم ويقارنون بيننا أينما الاصلح ، فيرجعون ويرون أنني الاصلح لولا أنني مهدد بحالات صحية يخافون من عواقبها على العمل ان يتعرقل ، ومن السخف ان اقول يخافون من عواقبها علي انا وكان قد تقدم اليهم طلبات عديدة منها ما هو موعز به من قبل دائرة المعارف !! واخيراً - على ما ظهر - قرارهم على اخذني وحولوا اوراقني للمندوب السامي ليوافق عليها ، وها انا اتوقع ان ادعى الى العمل في كل وقت . وقد تركت في فلسطين التعليمات اللازمة حين يحصل ما يستوجب استدعائي من عمان حيث انا الآن عند اخي احمد اقضي اياماً لا بأس بها .

وفي آذار ١٩٣٦ تسلّم ابراهيم إدارة برامج اللغة العربية في الاذاعة الفلسطينية ، وقد سر بعمله الجديد كثيراً لأن «مثل هذا العمل يوافق ذوقه ويمشي مع ميوله»^٢ ، وبلغ من سروره ان كتب الي يقول^٣ ،

«أسرعت بالكتابة اليك غير مفصل لكي ألحق بك في باريس قبل سفرك منها ويصلك كتابي قبل مغادرتها . انا الآن مدير البرنامج العربي في مصلحة الاذاعة اللاسلكية بفلسطين .

(١) الصواب نحو شهرين .

(٢) اخي ابراهيم ٧٥ .

(٣) هذه الرسالة بلا تاريخ . وهو يذكر فيها عنوانه الجديد : بانبيوت الماضي ، القدس ، صندوق البريد ٦٦٢ . ان عطلة الاذاعة الفلسطينية افتتحت في الثلاثين من آذار ١٩٣٦ (المتدى المجلد الاول ، العدد الثامن ، الجمعة ٢٩ آذار ١٩٤٦ ، ص ١٣٤٨٠٦) . وفي هذا العدد نفسه من «المتدى» قالت فدوى طوقان : « ففي مثل هذا اليوم منذ عشر سنوات نقل الانير على امواجه لأول مرة في تاريخ اذاعة القدس ، اول صوت عربي الى فلسطين خاصة ، والى الاقطار العربية عامة ولم يكن ذلك الصوت الحبيب الا صوت اخي ابراهيم - رحمه الله - (ص ١٠) فالرسالة اذن يجب ان تكون قد كتبت في نيسان ١٩٣٦ .

وقد بعثت اليك بكتاب في ذلك الى عنوانك القديم بيرلين ولم ارك اشرت إلا الى كتابي الذي بعثت به اليك من عمان قبل ان استلم عملي . العمل لذيذ وان كان لا يزال كثيراً



ابراهيم طوقان (الى عين القاري) يتحدث الى يحيى البايدي وهما موظفان في الاذاعة

متعياً باذى ذي بدء ، وعسى ألا يمضي وقت طويل حتى يكون كل شيء جرى مجراه وهان الصعب فيه .»

(زواج ابراهيم)

لم يتزوج ابراهيم باكراً . وذلك راجع بلا ريب الى ان حالته الصحية كانت دائماً سيئة ويخشى ان يزيد بها الزواج سوءاً . مع العلم بأنه كان ينهك قواه احياناً كثيرة . على ان والده حينما كان يعارض زواجه كان يحتج لمعارضته تلك بأن ابراهيم لم يكن قد استقر مادياً بعد . كتب ابراهيم مرة يقول :

« لا ادري كيف فهمت من تحريري اني اسعى لأتمم مسألة الزواج . اظن ان هذا

(١) القدس ٧ اغسطس ١٩٣١ .

بعيد . والوالد ، كما قلت لك مرة ، لا يوافق عليه ما دامت مادياتي غير مكفولة . ويزيد هذه الفكرة ' رسوخاً في ذهنه (وذهني ايضاً) ما شجر بيننا في الجامعة من الخلاف وترك مسألتي معلقة لا يعرف لها مصير . »

ولكن في عام ١٩٣٦ استقرت حالة ابراهيم الصحية وحالته المادية ايضاً ، فاخذ يفكر في الزواج . كان يعمل في ذلك الحين في الاذاعة الفلسطينية (الاذاعة العربية لحكومة فلسطين) . وكانت تتردد على الاذاعة آنذاك فتاة تلقي الحديث بعد الحديث فاعجب بها ابراهيم جداً وعزم على الزواج بها وكنم ذلك عن اهله وعني ايضاً حتى تمت جميع المقدمات . قال في احدي رسائله ٢ :

« ... وعولت على الزواج باذن الله تعالي وتوفقت جداً في الوقوع على نصفي الجميل الذي اتمم به نصف ديني . ومنذ ثلاثة ايام ، اي مساء الخميس الموافق ٤ آذار الجاري ، قدمت هدية الخطبة الرسمية . وفي خلال الايام الباقية من هذا الشهر يكتب كتابي . المدموزيل هي شقيقة روجي بك عبد الهادي . وانت ترى ان اليمانية (نحن) والقيسية (بيت عبد الهادي) قد عقدوا الاكف على نسيان خصوماتهم التي يرجع عهدا الى حرب بكر وتغلب ، والنزارية واليمانية .

« وانت تعلم انني ارفض كل الرفض ألا اكون شاعراً في اختيار عروستي . وانا اؤكد لك انني كنت شاعراً كل الشاعر ، وان العروسة لا تقبل ابداً عن عادة هيفاء حسناء يتدعها خيالي الغزلي . اما العيون فهي من النوع الذي قيل فيه (منصورة الاجفان بالانكسار) ، واما الخصر فهو في غاية الاختصار . »

اما العروس فهي ساميه بنت قاسم عبد الهادي ، واخت روجي باشا عبد الهادي (ت ١٩٥٤)

(١) الاضراب آتياً عن الزواج .

(٢) القدس - هذه الرسالة بلا تاريخ ، ولكنها كتبت في ٧ آذار ١٩٣٧ لان ابراهيم يذكر فيها قوله : منذ ثلاثة ايام ، اي مساء الخميس الموافق ٤ آذار الجاري ... ثم ان هذه الرسالة وصلت الي وأنا في قرية فليسبيرغ بالمانية في ١٢ آذار ١٩٣٧ .

(٣) نال روجي بك عبد الهادي ايضاً رتبة الباشوية من امارة شرق الاردن .

كما مر . وهي فتاة مثقفة تلقت علومها في كلية البنات الانكليزية ودار المعلمات في القدس . وكانت مدرسة في المدرسة الحكومية للبنات في القدس ايضاً .

وعارض والد ابراهيم في اول الامر هذا الزواج لسببين اساسيين ثم لسببين ظاهرين . اما السببان الاساسيان فالولهما حالة ابراهيم الصحية التي كانت - علي الرغم من استقرارها الظاهر - عرضة لتقلبات مفاجئة . واما ثانيهما فهو ان آل عبدالهادي خصوم لآل طوقان منذ الفتح العثماني - او منذ الفتح العربي كما يقول ابراهيم ، او منذ أيام بكر وتغلب في الجاهلية .

واما السببان الظاهران فهما ان مركز ابراهيم في « الاذاعة » لم يكن كثير الثبات ، بل كان قلقاً جداً . ثم ان ابراهيم لم يخبر والده بمشروع الزواج هذا قط ، ولكنه جاء من القدس الى نابلس قبيل كتابة الكتاب (العقد) وقال لوالده : غداً موعد عقد زواجي فارجو ان تحضره . فاستغرب الوالد ذلك وقال لابراهيم : هني رجلاً غريباً ، يا ابراهيم ، ألا تخبرني إلا قبل عقد قرانك بيوم واحد ؟ فقال ابراهيم انا لم اخبر احداً قط وهذا ، ما تم الآن فارجوك المعذرة . ثم ان لي عليك ديناً ايضاً . فسأله الوالد مستغرباً : وما هذا الدين الذي لك علي . فقال ابراهيم : لما تزوج اخي احمد اعطيته مائتي جنيه ، وانا اريد مثلها . وبعد ان كان الوالد قد امتنع عن حضور عقد زواج ابنه عاد فقبل ، بما له من الحكمة والتعقل وبما في نفسه من المرح والعطف على ابراهيم ، ان يحضر وان يعطي ابراهيم ما اراد .

ورزق ابراهيم من هذا الزواج السعيد صبياً سماه جعفر وأبنة سماها عريب بالتصغير خطأ . ولما قلت لابراهيم ان هذا الاسم يضبط عربياً بالفتح قال : هو كذلك ، وقد عرفت فيما بعد انني وهمت في قراءة هذا الاسم في كتاب الاغاني . اما الاسم قد عرف بلفظ هذا فلا سبيل الى تغييره الآن .



(١) عريب بالضم تصغير لكلمة « عرب » ؛ وعريب بالفتح معناه الانسان المرح .

وكان ابراهيم عظيم النشاط في مصلحة الاذاعة، قال لي في احدي رسائله^١ : « لعلك تلاحظ في روح التصيد للاذاعة^٢ . هو كما تري ، لقد اصبح دأبي ان اجعل هذا البرنامج تحفة من التحف بحيث ايزبه برنامج مصر . وقد توفقت في ذلك الى حد بعيد . وقد جاءني الثناء العاطر على البرنامج من مصر نفسها ومن العراق وسوريا والهند والرياض ، فتأمل كم يدعو ذلك الى النشاط وكم يتسع العذر معه للتصيد » .

واستمر نشاط ابراهيم في الاذاعة استهواراً كان يقوى كل يوم ويتسع ويؤدي الى الاذاعة الخدمات العظيمة^٣ حتى ان ذكر هذه الخدمات جاء في البيان الذي اعلن فيه القسم العربي لمصلحة الاذاعة وفاة ابراهيم ، كما سيرد في آخر هذه الترجمة .

غير ان هذا التقدم لم يكن يسر القائمين على المحطة، فالمحطة في جميع البلاد المستعمرة يجب ان تكون للدعاية للحكام لا لتثقيف الشعب وذكر مفاخره وأمجاده . ولم يكن بإمكان اسياذ المحطة ان يقولوا لابراهيم انك « بلغت بالمحطة الذروة » ، وان البرنامج الذي تعده رفيع جميل ، وأنتك تنبه اهل البلاد الى حقيقة حالهم ، ولذلك يجب ان نقيلك من المحطة، بل حاولوا ان يقعوا منه على هفوة تصلح عنراً في اعين الناس . فكان اول ما فعلوه ان جعلوا يراقبون رسائله ، فكتب الي مرة يقول^٤ في رأس الرسالة : « ارجو ان تضع لفظة « خصوصي » على مغلفاتك كيلا تفتح وتقرأ قبل ان استلمها - ابراهيم طوقان » .

وبعد قليل اشتدت الحملة على ابراهيم وعلى ما يعده هو للاذاعة او على ما يقبله ليداع في البرنامج العربي . ولقد اتخذت هذه الحملة ثلاث صور^٥ :

(١) القدس (٧ آذار ١٩٣٧) .

(٢) لمناسبة اذاعة حديث عن العباس بن الاحنف كتبه استاذي المستشرق يوسف هل Joseph Hell ، كان له كما يقول ابراهيم « رنة وطنة ولفتت الصحف اليه النظر وحثت على الاستزادة منه » . فإرسال يطالب بواسطتي حديثاً آخر للمستشرق نفسه .

(٣) اخي البرنامج الاذاعي .

(٤) راجع عندها من رسائل ابراهيم ؛ ثم مجلة المنتدى (العدد الآنف الذكر) س ٥ - ٦ : كلمة القسم العربي . ثم س ١٠ - ١١ : ابراهيم بقلم الآتية فدوى طوقان ، وراجع ايضاً كتاب « اخي ابراهيم » لفدوى طوقان ، س ٧٥ وما بعدها .

(٥) القدس ، ٣٨/١٠/١٣ .

(٦) راجع « اخي ابراهيم » س ٧٧ - ٨١ .

١ - كانت الجهات اليهودية ترى ان القسم العربي كان موجهاً توجيهاً «عربياً» يمكن من اعداد القوى العربية في المستقبل لمقاومة اليهود .

٢ - ورأى الانكليز القائمون على المحطة ان « توجيه المناهج » كان يمنع توطيد الاستعمار . انهم كانوا يريدون - فيما يريدونه مثلاً - إحلال العامية محل الفصحى ، وملء البرنامج باشياء طريفة خفيفة لاجلاء الناس « وتمييعهم » لا لايقازهم وشد عزائمهم .

٣ - ثم كان هنالك خصوم ابراهيم الشخصيين في الاذاعة نفسها وفي خارجها . على ان هذا وامثاله ، كما سبق لنا القول فقلنا ، لا يمكن ان يتخذ عذراً رسمياً لاقالة ابراهيم . لقد كان هذا كله مزعجاً لابراهيم ولكن لم يكن مضرأ به .

واخيراً سنحت الفرصة لاجاحة ابراهيم :

قدم ابراهيم للاذاعة قصة من وضعه هو باسم عقد اللؤلؤ ، تدور حول الامانة . وقد رأى المشرفون على الاذاعة ان « الامين » ، بطل القصة ، انما هو رمز الى الحاج امين الحسيني . وبما ان الاذاعة حكومية ، والحاج امين مناوئ للحكومة ، فان عمل ابراهيم يعد خروجاً على « العرف المسلكي » ، وذلك مما يؤاخذ به ابراهيم . على ان السبب الاساسي لاقالة ابراهيم كان قصيدة نظمها ابراهيم في ذلك الحين ، مطلعها :

وردٌ ونحن وغيد في البجمات ؛ يا شهر ايار يا شهر الكرامات !

هذه القصيدة في المجون ، وهي عجيبة من العجائب في حسن التصوير والسبك وفي الشاعرية . ولقد لاقت هذه القصيدة رواجاً كبيراً وانتشرت بالرواية والاستنساخ اكثر من شعره الذي نشر في الصحف والمجلات . غير ان في هذه القصيدة تعريضاً شديداً بأحوال دينية معينة وباشخاص كانت تحتضنهم السلطة الانكليزية ذكرهم ابراهيم باسمائهم .

وحرص ابراهيم على ألا تحل هذه القصيدة قرائن مادية تكشف عن شخصيته فنسخها على الآلة الكاتبة ، ولكنه ترك نسخة منها في جرّار مكتبه ، بدائرة الاذاعة . ويبدو ان بعض خصومه في الاذاعة عرف بأمر القصيدة وعرف بأمر النسخة التي في الجرّار فدل عليها رؤساءه .

وقامت الحجة على ابراهيم في ذلك ، « ومن مأمته 'يؤتى الحذر' » . وهكذا أقيل ابراهيم من منصبه بدار الاذاعة في اول تشرين الاول عام ١٩٤٠ . ولقد كانت اقالته هذه مفاجئة لكثيرين حتى قال الاستاذ انيس المقدسي^١ : « لأمر لم نطلع على خوافيه استقال من منصبه (في الاذاعة) وقصد العراق ... » على ان خوافي الامر كانت قصة عقد اللؤلؤ وقصيدة شهر ايار وسياسة استعمارية واضحة .

ولما اخبرني ابراهيم قصة عقد اللؤلؤ بقصة القصيدة - وكنا نسير معاً في الكرادة ببغداد - قال لي : « ولكن الجماعة كانوا طيبين . لقد دفعوا لي تعويض الصرف كاملاً وقيمة الضمان على الحياة . فالاقالة من الناحية المادية كانت رابحة جداً » .

في بغداد

لما اقبل ابراهيم من عمله في مصلحة الاذاعة الفلسطينية فكر في العمل في محل آخر لاسباب مختلفة . انه اولاً رب اسرة يجب ان يعمل لتعيش اسرته من كسب يمينه هو ، مع ان والده كان قد اغناه عن هذا كله . ثم ان ابراهيم اراد ان يبقياً حصرماً في عيون اعدائه في مصلحة الاذاعة فيربهم ملء اعينهم ان ابراهيم طوقان يستطيع ان يعمل حيث اراد ويكون مكرماً ، وانه لا يبقى عاطلاً عن العمل - لو اراد - ساعة واحدة . على ان ابراهيم كان ايضاً قد اثار حفيظة المستعمرين والسائرين في ركاب المستعمرين اثارة جعلته - بعد ان خرج من الوظيفة الحكومية مغضوباً عليه - يخشى على حياته . من اجل ذلك اراد ان يعمل في خارج فلسطين اذا امكن .

واستطاع ابراهيم بوساطة صديقه طالب مشتاق - قنصل العراق في القدس يومذاك - ان يجد ترحيباً لدى وزارة المعارف العراقية بقدمه الى العراق للعمل في التدريس - من غير تعيين لمواد التدريس او مكانه . ولا ريب في ان ذلك دليل كبير على رغبة الحكومة العراقية في تأدية خدمة للاديب المبدع ابراهيم طوقان .

(١) اخي ابراهيم ٨٢ .

(٢) الامالي ، السنة الثالثة ، العدد ١٥ ص ٣ .

ولكن والد ابراهيم خشي مغبة الذهاب الى العراق . ان جو العراق القاسي في الصيف وفي الشتاء شديد على ذوي الجسوم الصحيحة ، فما قولك بجسم مثل جسم ابراهيم . على ان الحيلولة بين ابراهيم والعراق في ذلك الحين كان جرحاً لكرامة ابراهيم . وفكر الوالد الرحيم طويلاً بين حجز ابراهيم في نابلس للمحافظة على صحته وبين الرضى عن ذهابه الى العراق حفاظاً على كرامته . واخيراً استسلم الوالد الى ما لا خيرة له فيه ثم ابتعد عن عيون ولده ليندرف دمة حملت جميع معاني الحنو الابوي .

وسافر ابراهيم الى بغداد ونفسه مملوءة بنشوة الظفر على خصومه ، فقام له ذلك مقام الغذاء المفيد والعلاج الناجع والراحة التامة . ولكن ابراهيم لم يكن يدري بأن الخصومات الصغيرة والحزبية الضيقة قد سبقته من فلسطين ، بل من نابلس ، الى بغداد .

وكان المفروض والمفهوم ان يكون ابراهيم استاذاً في دار المعلمين العالية في بغداد نفسها فيكون عمله حينئذ اسهل واقرب الى اختصاصه في اللغة والادب ، ثم يكون بإمكانه ان يعيش في وسط ادعى للراحة وعلى مقربة من اخوانه من اهل بغداد ومن المدرسين السوريين واللبنانيين والفلسطينيين في مدارس بغداد . ولكن احد خصوم ابراهيم السياسيين والشخصيين في نابلس^١ كان يومذاك في بغداد . وكان ابراهيم رحمه الله يعتقد بان هذا الخصم يكيد له .

ويبدو ان المكيدة قد نجحت فعين ابراهيم في دار المعلمين الريفية في الرستمية على بعد اربعة كيلومترات من الكراة وعلى بعد سبعة كيلومترات من الباب الشرقي في بغداد . من اجل ذلك اضطر الى السكنى في الكراة^٢ . وبعد مدة يسيرة لحقت بابراهيم أسرته المؤلفة من زوجته وابنه جعفر وابنته عريب ، وجاء معهم اخوه رحمي ليظل الى قربه وليصرف شؤون الاسرة المنزلية لأن اهتمام ابراهيم وطاقته كانا يقصران عنها . وان من يرى حمية رحمي ونشاطه في ذلك كله يرى عجباً .

(١) واجع نابلس ٩ نوفمبر ١٩٣٣ .

(٢) تبعد الكراة عن بغداد نحو خمسة كيلومترات (موجز تاريخ الابدان العراقية ٤١) . اما الباب

الشرقي فهو الطرف الجنوبي للوسط التجاري في بغداد .

والى سكنى ابراهيم في الكرازة وتعليمه في الرستمية يعود السبب الاول في انتكاس صحته . ان نجاح المكيدة قد حز في نفس ابراهيم الى حد بعيد . ثم انه لم يكن بين الكرازة وبين الرستمية مواصلات عامة ، فكانت سيارة دار المعلمين الريفية تأتي في الصباح الباكر من كل يوم لتجمع المعلمين من بيوتهم فيضطر ابراهيم الى مغادرة البيت باكراً وقبل ان تكون عملية الهضم بعد طعام الصباح قد تمت) لما عرفناه من حال معدته بعد اجراء العملية فيها عام ١٩٣٣). وكذلك كانت تلك السيارة تعيد المعلمين الى بيوتهم مساء . واذا اتفق ان كان تمت اجتماع لبعض المعلمين او اذا اتفق ان تأخر احد المعلمين في واجب ما فان ابراهيم ايضاً كان يتأخر في الرجوع الى بيته . ولقد سمعت ابراهيم مراراً يتأفف من ذلك كله .

ثم هجم الحر في بغداد مع نيسان . وفي صباح احد الايام ، من اوائل شهر نيسان ، ارسلت ام جعفر الي ان ابراهيم مريض ، وذهبت الى الكرازة وعلمت منها ان ابراهيم لما خرج في الصباح الى مجلسه الاول برز مقدار من امعائه .

واستدعينا على الفور الدكتور محمد روح غندور^١ ، وكان هو ايضاً في ذلك الحين في بغداد ، فقال : ان هذا الامر لا ينطوي على خطر مباشر ، ولكن ابراهيم - على كل حال - يجب ان يغادر بغداد الى نابلس تجنباً للحر الهاجم . ان الحر الشديد يزيد امثال هذه الحالات سوءاً .

ولقد استنفدت انا والطبيب وام جعفر والحاج رحمي جميع وسائل الاقتاع قبل ان رضي ابراهيم بالعودة الى نابلس . ثم عاد فتعلل بان اثاث البيت يجب ان يجمع ويحزم ، وهذا يقتضي وقتاً . ولكننا افنعناه بأن يذهب هو اولاً مع الاسرة الى نابلس ثم يتبعه اثاث البيت مع الحاج رحمي كما فعل في مجيئه الى بغداد . وهكذا كان .

اما ما حدث بعد ذلك لابراهيم فأرى ان آتي به مقصوفاً حرفاً حرفاً من رسالتين وردتاني منه الى بغداد في السابع ثم في السادس عشر من نيسان عام ١٩٤١ . ولا ريب في ان هاتين الرسالتين هما آخر ما كتب .

واحب من قارىء هاتين الرسالتين ان يلاحظ ان مرخ ابراهيم وظرفه لم يفارقه حتى

(١) الدكتور محمد روح الغندور ، من بيروت ، وهو طبيب الدائرة البلدية .

في آخر ايامه ، وان الاستزادة من المعرفة الادبية كانت ديدنه حتى في أحلك ساعات حياته .

الرسالة الاولى : نابلس - فلسطين ، ٧ نيسان ١٩٤١

اخى عمر !

اسفت كثيراً لعدم امكاني وداعكم قبل سفرنا . وجاء الحاج رحمي فمآني بأنك كاتب
الي كتاباً سرعان ما اتلقاه ؛ لكنه لم يصل بعد ، وليس لي صبر على انتظاره فرأيت ان
اكتب انا بادئاً .

كانت الطريق مريحة ، لم يمض اربع وعشرون ساعة حتى كنا في الناصرة ، ومنها الى
نابلس ساعة واحدة . هذا وام جعفر وولدانا جعفر وعريب على احسن حال وانا ازداد نشاطاً
كلما دنوت من ارض الوطن وفي النفس شيء^١ لبغداد .

يومان في نابلس ثم الى القدس حيث اجريت الفحوص اللازمة . المسألة (بحمد الله)
ليست ذات بال . الراحة والتقوية هما كل ما في الامر . وانا الآن اتقدم نحو العافية بأذن الله
بخطوات محسوسة ، سيما وبركات السيدة الوالدة قد شمتنا ، وطعامها النفيس المختار قد
جرى في جسمي مريثاً هنيئاً .

لا نفتأ نذكركم خصوصاً عند سهراتنا على لعب الورق . سقياً ورعياً لا يام لنا سلفت ،
وحبذا تزاورنا ومسيرنا على الضفاف ضفاف دجلة . لا تستطيع ام جعفر ان تقدر جمال
بغداد كما اقدره انا او انت . فهو (عندنا) جمال مستمد من التاريخ والادب الذي عشنا
فيه عشرين سنة على الاقل . بغداد في نظرنا غير باب الشرجي والمعظم والكرادة وشارع
غازي وغير ذلك من المسميات^٢ ، ولكنها بغداد العباس بن الاحنف وابي نواس وصريع
الغواني واضرايهم من احبائنا شعراء بني العباس !! من اجل ذلك تستطيع ان ترى كيف

(١) من الحب ، راجع الاسطر التي ستلي .

(٢) كراداة ، كامب ، باب الشيخ ، باب شرقي ، شارع غازي : اسماء كان سائقو البصات (سيارات النقل)

يصحبون بها لتنيبه الراكبين الى الاماكن التي تمر بها سياراتهم .

كانت الحال مع ام جعفر عند بلوغها فلسطين! اما انا فوالله لقد كنت آسفاً ولا أزال ،
وبودي لو اسعدتني^١ صحتي فاقمت واقمت واقمت .

عمر ، بلغ سلامنا واشواقنا الى السيدة آمنة. ام جعفر ليس لها في بغداد ذكرى سواها.
عريب وجعفر يقبلانكما . سلامي وسلام الخاتون^٢ الى رفيق^٣ وزوجته وعساها الآن بخير
وعافية . كذلك للسيد زكي^٤ وزوجته . اكتب الي اذا كنت لم تكتب بعد . مركزي نابلس
وفيها مستقر ومتاع الى حين! واي حين؟ لا اعلم^٥ ، فقد اختلف المفسرون في قوله تعالى :
« هل اتى على الانسان (حين) من الدهر »^٦ .

ام احمد على عهدنا بولدها عمر^٧ وهي تهديك التحية وتضيف اليك السيدة آمنة مباركة
لك داعية بالرفاه والبنين .

الجميع : قدري ويوسف والحاج رحمي يهدونكم السلام ، واسلم لاخيك .

ابراهيم طوقان

الرسالة الثانية : نابلس ، الاربعاء في ١٦ نيسان ١٩٤١

اخى عمر

وصلني كتابك ليومين مضيا على ارسالي كتابي الاول إليك ولم أشأ ان أعيد كتابي
جواباً مسبقاً ، في من الشوق الى التحدث اليك ما لا يحتمل هذه المقاصرة . وجدت بين
اوراقي بطاقة كتب عليها هذان البيتان :

« عجباً من دم يعود فقيراً كنت تغني ببذله الغانيات .
لا تظنّ البخيل احسن حظاً ربّ فقر لم يتصل بهبات »

(١) أسعد : ساعد .

(٢) الخاتون (في العراق) : السيدة ، الزوجة . ويقال للزوج الافندي .

(٣) رفيق العتي ، وهو اليوم مندوب سورية الدائم في هيئة الامم .

(٤) السيد زكي النقاش . وهو اليوم الدكتور زكي النقاش مديركلية المفاسد الاسلامية في بيروت .

(٥) هذا الحدس يدل على خوف من المستقبل .

(٦) آية من اول سورة الانسان (رقم ٧٦) .

(٧) ان صلتى الوثيقة بابراهيم جعلت والدته ابراهيم تهتم باموري - حينما كنت معلماً في مدرسة النجاح في

نابلس ١٩٢٨ - ١٩٢٩ - كأنني أحد أولادها .

وتاريخهما المسجل تحتها ١٨/١٠/٣٤ ! فلمن اليتان؟ وما مناسبتهما؟ أنا وأنت سواء الآن، كلانا متزوج، فلا تخش من ذكريات العزوبة شراً!! وليعلم كل متخرّص ان « الذكريات صدى السنين الحاكي »^٢ ... فيا لهف قلوبنا او يا لهف قلبي وحدي اذا كان لايسرك التعاون معي في اللهف .

لديّ كتاب غريب عجيب لمؤلف قديم يلوح لي انه لم يخلق الله لها شبيها في سعة الاطلاع ورسوخ القدم في علم الباه . ولعل جميع من عرفت وما عرفت في هذا الباب كانوا عيالاً عليه في علمهم وادبهم ... عنوانه « جوامع اللذة » واذا شئت فهو قاموس الالفاظ الفنية ، ومختارات الشعر ، والنوادر والتفلسف . حصلت عليه منسوخاً على الآلة الكاتبة نسخاً فيه كثير من الغلط ، وحسبك ان تعلم بعد هذا كيف اقضي وقتي في نابلس حيث اقيم اليوم ما اقام صبرها وكنافتها^٣ .

الحالة الصحية او تقرير الطبي

اشعر بتحسن يبشر بان العودة الى الصحة الطبيعية توشك ان تكون ملك يدي . ان الراحة والدوام على المعالجة المنظمة هما ركنان اساسيان في الخلاص من هذه الزمانة . وبهذه المناسبة - على هامش هذا التقرير - اقول انني اجتمعت في المصنبة الى رجل فاضل اعرفه ، وبعد السلام والكلام اخذ من جيبه (ساحه الله) اوراقاً مطوية فاختر منها اثنتين فتح اولاهما وانشدني لولده - حفظه الله له لا للادب والشعر - قصيدة . ثم - وبلا هدنة - فتح الثانية وتلا ضميريتها . يا عمر ، لا أراك الله مكروهاً ، لم يكد يتهي حتى اخذت البرداء تعض في صلي . قمت الى البيت معتذراً ، ثم انطويت على نفسي في الفراش ، وانا احسب الملايا قد عاودتني . واخذت المحرار واذا الدرجة (٣٩ ١/٢) ! لا حول ولا... ودعوت الطبيب ففحص وجس وطبب هنا وهناك ثم قرر انها انفلونزا ! سليمة . ثلاثة ايام في

(١) بيتان كنت تركنهما لابراهيم لا جاء الى بيروت للعلاج من فقر الدم . راجع ص ٢٥ .

(٢) شطر من قصيدة لشوقي في مدينة زحلة .

(٣) الصبر : الصبر ، التين الشوكي . والكنافة النابلسية حلوى تشتهر بها نابلس ، وكذلك الصبر (التين

الشوكي) فيها كثير .

الفراش وسيل من العرق بعد اتخاذ التدابير ... وُصرف العارض - والحمد لله - بسلام .
لا تسليني عن القصيدتين ، ذاكرتي اضعف من ان تحمل منهما بيتاً ، وهل سمعت بذاكرة
تحمل رصاصاً وحديداً ؟ الموضوع سل عنه اعالي جبال صنين والله حسبي وحسبك
ونعم الوكيل

ابو جعفر
ابراهيم طوقان

وفاته :

غير ان درجة الحرارة (التي اشار اليها ابراهيم في رسالته السابقة) لم تنخفض انخفاضاً
محسوساً فيما بعد ، بل ظلت مرتفعة . وقد رافقها شيء من الانحطاط العام والضعف فنقل
الى المستشفى الفرنسي في القدس ليكون تحت المراقبة السريرية لمعرفة سبب تلك الحرارة
المرتفعة . وظن الاطباء ان الامر قد يكون مرحلة اولى من مراحل الحمى التيفويد فآخذوا
شيئاً من دمه للفحص المجهرى . ولكنه توفي - رحمه الله - قبل ظهور نتيجة ذلك الفحص .
غير ان الذي تناولته الملاحظة في ذلك الحين ان انحطاطاً عاماً كان يعمل في جسمه
كله ولم يكن ثمة سبب من مرض واحد معين .

تشيعه^١ :

« وعند الساعة الواحدة من بعد ظهر السبت في الثالث من ايار نقل جثمانه إلى مدينة
نابلس في سيارة تغمرها الاكاليل والزهور ، ورافقها عدد كبير من رجالات المدينة في مقدمتهم
اصحاب السعادة والفضيلة رئيس البلدية وبعض اعضاء المجلس الاسلامي الاعلى للاشتراك
في تشيع الجنازة في نابلس . . . وفي الساعة الثالثة والنصف (من يوم السبت نفسه) شيعت
جنازته في نابلس . وقد صلي على الجثمان في المسجد الكبير ثم سارت الجنازة على الترتيب

(١) راجع « فلسطين » ، جريدة يومية (بافنا) ، الاحد ٤ ايار سنة ١٩٤١ ، ٧ ربيع الثاني ،
١٣٦٠ ، السنة ٢٥ ، العدد ٥٦ - ٤٦٩٦ ، الصفحة الاولى والرابعة .

التالي : الجثمان محمولاً على الأكف يتقدمه كشافة كلية النجاح الوطنية ثم طلاب المدارس الوطنية ثم حملة الاكالييل وعددها عشرون اقليلاً قدمتها هيئات وطنية وكلية النجاح الوطنية (نابلس) ، ثم اعضاء المجلس البلدي والوجهاء والعلماء ووفود البلاد . وقد سار الموكب في خشوع وإجلال حتى المقبرة الشرقية . وهناك ابته عدد كبير من الخطباء تأييداً مؤثراً ابكى الحضور . ثم ووري الفقيد التراب مأسوفاً على شبابه ..

ونعت مصلحة الاذاعة الفلسطينية ابراهيم الى العالم العربي ، بعد ان كان قد نال ابراهيم من هذه المصلحة اكبر العنت والارهاق وبعد ان أقيل منها اقالة لمواقفه الوطنية المشرفة . وها هي هذه المصلحة نفسها تنعي ابراهيم ذاكراً خدماته الجليلة وان موته كان خسارة كبرى . ذلك هو نفاق الاستعمار يقتل المخلصين ثم يقف متأسفاً على وفاتهم . وعلى كل فان نعي ابراهيم من الاذاعة الفلسطينية كان كما يلي ^١ :

« يؤسف القسم العربي في هذه المحطة ان يعلن نبأ وفاة الاستاذ ابراهيم طوقان الليلة الماضية في المستشفى الفرنسي ، ولا يسعه إلا ان يذكر خدماته الطيبة التي قام بها في هذه المصلحة فأدّى بها خدمات جليلة الى اللغة العربية وآدابها . على ان وفاة هذا الشاعر الممتاز هي في الواقع خسارة كبرى على الادب واللغة . وان القسم العربي يكرر الاسف ويقدم اصدق التعزية الى ذوي الفقيد ، رحمه الله رحمة واسعة ، ولا حول ولا قوة الا بالله . »

رثاؤه

ولما ووري ابراهيم في مضجعه الاخير ألقى صديقه جمال القاسم كلمة موجزة . ولقد اقيمت حفلة الاربعين في مدرسة النجاح فتكلم ابو سلمى (عبدالكريم الكرمني) وجلال زريق وحسني فريز واسكندر الخوري البجالي . وكذلك اقام له اصدقاءه حفلة تأبين في القدس في نادي جمعية الشبان المسيحيين . وفي العام التالي اقيمت لذكراه حفلات متعددة في حيفا ويافا وغيرهما .

(١) فلسطين ، العدد المذكور آنفاً .

ورثاه الاستاذ فؤاد قاسم^١ بكلمة قال فيها^٢ :

« وكان في هذه الفترات من حياته مخلصاً لقوميته اشد الاخلاص ، مؤمناً بعدالة قضية العرب ، ورسولاً من رسل وحدتهم ونهضتهم فلم يغفل عن تأدية رسالته استاذاً في بيروت وبغداد ، ولم يَهَبِ التبعات في محطة اذاعة القدس . فكان وقرأ في آذان اعداء العرب وقضى في عيونهم حتى آل الامر به الى موئل شباننا ممن تضيق بهم سبل الحرية فيرحلون الى بغداد» .
وكتب الاستاذ انيس المقدسي^٣ في ابراهيم كلمة تحليلية طيبة استشهدت بشيء منها في ترجمة حياته وفي خصائصه . ولكنني اعيد هنا بعض ما جاء فيها^٤ :

« طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ فزعت فيه بآمالي الى الكذب ؛
حتى اذا لم يدع لي صدقه كذباً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي^٥ .

ذلك ما شعرت به بالامس اذ وقعت عيناى فجأة على خير هز منى الاعصاب واوقد في القلب ناراً ذات التهاب .

صديقي العزيز ابراهيم طوقان قد مات ! يا أفجيعة العربية . يا أخسارة الوطنية .
مات فطوى معه في التراب شباب أناره الايمان وصقله الذكاء ، وحلاه الوفاء للاخوان
والاخلاص للاوطان .

نشأ الفقيه في بيت نابلسي كريم رضع منه الاخلاق الشريفة والمكارم العالية ... وفي

(١) فؤاد قاسم من الادباء والكتاب المبدعين المبتكرين وخصوصاً في المشاهد التمثيلية القصيرة اللاذعة . وهو اليوم مدير البرامج العربية في الاذاعة اللبنانية .

(٢) الامالي ، السنة الثالثة ، العدد ١٥ (الخميس ١٠ جادى الاول ١٣٦٠ = ٥ حزيران ١٩٤١) ،
ص ١ . في ترقيم هذا العدد خطأ مطبعي السنة ٤ مكان السنة ٣ .

(٣) الأستاذ انيس المقدسي استاذ اللغة العربية والادب العربي في الجامعة الاميركية (١٩٥٠-١٩٥٦) .
ولد في طرابلس ١٨٨٥ وتخرج في الجامعة الاميركية في بيروت بدرجة بكالوريوس علوم (١٩٠٦) وبدرجة
استاذ في العلوم (١٩٠٨) . له بحوث ادبية كثيرة ، وله من الكتب : امراء الشعر العباسي في الادب العربي ،
تطور الاساليب النثرية ، العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث ، الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث
(جزآن) .

(٤) الامالي ، السنة الثالثة ، العدد ١٥ ، ص ٢-٤ .

(٥) البيتان مطلع مرثية قالها المنني في وراثته اخت سيف الدولة .

سنة ١٩٣٠ عينته الجامعة (الاميركية في بيروت) مدرساً في الدائرة العربية فكان مثال
 الاجتهاد والامانة . وقد استطاع برفيع ادبه وحسن سجاياه ان يكتسب محبة الطلاب وثقة
 الرؤساء والزملاء . وكان يرجى ان يكون له شأن كبير في حقل التدريس الجامعي حتى
 توجهت الانظار الى ترشيحه للتخصص العالي في احدى جامعات اوروبة واعداه لمستقبل
 علمي زاهر ...



ابراهيم طوقان استاذاً في الجامعة الاميركية في بيروت

كان الفقيه شاعراً ملهماً متوثب العاطفة صادق الوطنية رقيق حواشي العبارة . اذا
 كتب سال الكلام من قلمه كما يسيل الزلال الصافي من منبعه الفياض ، واذا خطب او
 حدث جذبك مسحوراً الى ما له من الاغراض ، وله نفوذ الى المعاني لا تكلف فيه وعرض
 للعواطف دون جمعجة او تمويه ...

على ان نبوغه الادبي لم ينحصر في الشعر ، بل كان الى ذلك بحائثة ذا نظر صائب في

الامور، عرفته بذلك منذ كان طالباً في الصفوف العليا بالجامعة وبعد ان نقح ادبه خارجها بالتنقيب والمطالعة.

اما وطنيته فأبرز من ان ادلك عليها هنا، فهو من اصدق المدافعين عن الحقوق الوطنية في فلسطين وفي البلاد العربية ...»

وقال الاستاذ محيي الدين النصوي^١ في الفجيجة براهيم كلمة بعنوان «الشباب لن يكبل»^٢ امتلأت عاطفة وتقديراً وأملأ^٣:

في نابلس البلد العربي الفلسطيني شباب كالزهر توضع اريجته في الدنيا العربية وطاب شذاه وعم خيره في وطنه الصغير ووطنه الكبير فأثاره العلمية والادبية والوطنية تدل عليه وتنم عنه وتشهد ان في نابلس يقظة تنبض بالحياة ونهضة تناولت كل شيء.

ما هبطت نابلس يوماً من الايام الا وأكبرت فيها نهضتها الفتية واعجبت بشبابها الميامين وراعني ان اتحدث الى هذا الشباب المثقف الراقى وان المس مآتهم في كليتهم الناشئة وناديهم الصغير وحرارة الكشفية عندهم، وان اجد فيهم الشباب العربي البررة الذين يتذوقون الحياة ويعرفون ان عليهم رسالة يجب ان يؤدوها وان يجاهدوا في سبيلها لا يبعثون من وراء ذلك الا وجه ربهم وصالح وطنهم.

من هذا الشباب الذين كنت اسكن اليه في نابلس شاب اسمر اللون حلوا الشمائل رقت نفسه ورق شعوره فاذا به هزيل الجسم شاحب اللون يذوب لطفاً وأدباً واذا به رغم مرضه طلق المحيا يرسل النكتة أثر النكتة ويبسم للحياة رغم عبوسها ويضحك في وجهها رغم تقطيعها له وازورارها عنه.

(١) الاستاذ محيي الدين النصوي صحافي قدير وصاحب جريدة «بيروت» (بيروت) ورئيس تحريرها. ولد في بيروت ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م). تخرج في الجامعة الاميركية في بيروت بدرجة بكالوريوس علوم (١٩٢٠) ثم بدرجة استاذ في العلوم (١٩٢١). اشتغل بتجارة الاجواخ (١٩٢١ - ١٩٣٦) وكان نائباً في مجلس النواب اللبناني A U B Directory 1953, p. 132, cf. 136. وولي الوزارة في لبنان مرتين: مرة وزيراً للانباء ومرة وزيراً للال وللابناء معاً.

(٢) احد مصاريع نشيد ابراهيم طوقان: «موطني».

(٣) الامالي، السنة الثالثة العدد الخامس عشر، ص ٤٠.

اما هذا الشاب فهو الشاعر الملهم ابراهيم طوقان خريج الجامعة الاميركية وريب بيت
من ارفع البيوتات العربية وصاحب النشيد الخالد « وطني ! » الذي اودع في كل كلمة
من كلماته روحه العالية وما يلهب بين جانحيه من وطنية صادقة وعقيدة عربية رفيعة .



ابراهيم طوقان عام ١٩٢٤ حيناً دخل الى الجامعة الاميركية في بيروت

ما اجتمعت اليه يوماً الا وسكرت بشعره الذي يسيل عنذوبة ورقة وحباً وما سمعته
ينشد « موطني ! » الا واحسست انه يجب ان يستقل العرب وشعرت ان هذا
الشاب الهزيل تحول الى رماد جبار ينفث ناراً ويرسل حمماً :

الشباب لن يكل همه ان يستقل او يبید
نستقي من الردى ولن نكون للعدى كالعبید
لا نريد لا نريد ذلكا المؤبدا وعيشنا المنكدا
لا نريد بل نعيد مجدنا التليد ، موطني !

(١) « وطني ، انت لي والحصم راغم » .

لقد اطفأ الردى تلك العينين السوداوين الهادئتين اللتين شع منهما نور اضاء الدنيا
العربية ونفذ الى قلب الشباب العربي فايقظ همماً كانت راکدة وبعث نفوساً كان ميتة
وحرك امة كادت تبيد .

رحمة الله عليك يا صديقي الحبيب وبلل ثراك بطلّ رضاه فانت شاعرنا الشاب وانت
رائد من روادنا الابطال وانت العربي الصادق الذي وان لم يتح له القدر ان يرى وطنه
« سالماً منعماً وغانماً مكرماً » الا ان الاجيال المقبلة ستراه فتذكرك يا ابراهيم وتحجج في
نابلس العزيزة الى مثواك الطيب حيث ترقد بامان .

وداعاً يا ابراهيم والى الملتقى

ورثاه الاستاذ زكي المحاسني^١ في مجلة الاحد الدمشقية^٢ بكلمة عاطفية رقيقة ختمها

بالايات التالية :

يا وبيع قلبي ، حين جاء نعيه	ناديت : يا دمعي ، فرد عصيئه ^١ .
يا آل نابلس ، استيجوا عبرتي	ففتاكم المحبوب جف جنينه ^٢ .
حزني عليه اذا سمعت نشيده	« يا موطني » ، اني اذت لشجيه ^٣ .
ورثاته قلب الشباب صدى لها	تدعو لمجد سالف عربيته ^٤ .
يا فاتح الاجفان تنظر كوكباً	قد لاح في اعلى السماء ، قصيه ^٥ ،
هو نجمك الحفاق في افق العلى ،	وبشعرك المعسول بان سنية ^٦ .
لهفي ، ابا سلمى ^٣ ، وانت خليله	مذ كنت في يوم الصبا وصفيه ^٧ ،
ما حال طرفك ^٥ ؟ هل بكفكفه العزا	أو هل يظل على البكاء نديبه ^٨ ؟
طوقارت ، يا ابراهيم ، يا حلو الهوى	يا جيد الدهر الكثير رديته ^٩ ،

(١) الدكتور زكي المحاسني ، وهو اليوم المالحق الثقافي في المفوضية السورية في القاهرة .

(٢) السنة الثالثة ، العدد ٩٤ (٢٢ ربيع الثاني ١٣٦٠ = ١٨ ايار ١٩٤١) . في التاريخ خطأ

مطبعي ١٣٦١ مكان ١٣٦٠ .

(٣) ابو سلمى هو عبدالكريم الكرمي .

(٤) صداقة ابراهيم لاني سلمى لم تكن منذ ايام الصبا ، بل منذ ١٩٣٣ .

(٥) الطرف : جانب العين ، العين ، النظر ، وهو مستعملة هنا مجازاً مرسلًا : يقصد الدمع .

يا بسمه الحسناء ، يا زهر الربى يا ضيعة الحظ القريب شبيهه ،
 ان مت فلا شعاع منك خوالد^١ وعلى الزمان يضمها ابدية .
 ونظم الشاعر الرقيق انور الجندي قصيدة عنوانها : احبك ، وهبها الى روح
 ابراهيم ، هي ^٢ :

أحبك ، انت الليل والشعر والهوى
 أحبك ، والدنيا بعيني هجعة ...
 أحبك سكران الاماني ذاهلاً
 أحبك ، يا زهر الندامى وضحوه
 أحبك ، والكاسات ملأى وليلنا
 أحبك ، انت الروض في همساته
 أحبك ، يا طيب الورود ، نديّة ،
 أحبك ، يا كف الشعاع على الربى
 احضك من وهج المهوى فكأنني
 وتغرق عينانا ، وللجنف رفته
 وللقبيل الحمراء همس منعّم ^٣
 نغيب فلا تدري أكنا سلافة
 ووشوشة الاحلام في الفنن التضرير .
 معطرة الاشواق طيبة النشر .
 أكب عياء ما يفتق من السكر .
 هي الامل المراح لوّنه شعري .
 شهبي ونجوانا معتقة العطر .
 نعيم من الآباد يعبق بالسحر .
 وباحلم الذكرى وباحلم الفجر .
 وعينك في عيني وتغرك في تغري .
 اضم لذاذات الحياة الى صدري .
 ارق من الانداء في شفة الزهر .
 تنهد عموراً على قبيل حمر .
 من الحجر ام كنا لهيباً من الحجر .



(١) من سلبية في سورية .
 (٢) قصيدة ارسلها الشاعر الى المرحوم الدكتور محمد خير النوري (ت ١٩٥٢) احد اصحاب مجلة الامالي
 للنشر في المجلة . وتاريخ الرسالة اول تشرين الاول ١٩٤١ .
 (٣) كذا في الاصل بالعين المهملة .

خصائص شعر ابراهيم

- ١ -

في الوقت الذي اعد فيه انا هذه الدراسة ينصرف الاستاذ احمد طوقان الى اعداد «ديوان ابراهيم» للطبع . ولا أعلم اي الكتابين سيصدر اولاً ، وان كان المعقول ان يسبق الديوان هذه الدراسة في الصدور^١ . على ان ديوان ابراهيم لن يضم كل شعره ، فان ابراهيم نفسه كان قد اختار ما يريد نشره من شعره ونسخه بيده ، ثم عاجلته المنون فحالت بينه وبين تحقيق غايته . هنالك قصائد اسقط منها ابراهيم اياتاً ، وهنالك قصائد اسقطها ابراهيم جملة . وفي هذه القصائد التي اسقطها جملة جميع ما قاله في الهجاء والمجون ، وهو غير قليل .

من اجل ذلك ينتظر القارئ ان تكون الخصائص المثبتة في هذا الفصل خصائص شعر ابراهيم المنشور لا جميع خصائصه ، وان كنت انا اعطف احياناً بين المقطع والمقطع فاثبت خصائص تتعلق بشعره المحذوف من ديوانه .

◊

تعددت انا و ابراهيم - يوم كنا تلميذين في الجامعة الاميركية - ان تنزه بعد ظهر كل خميس^٢ عند الجانب الغربي من بيروت^٣ . ولقد كنا نتحدث في اثناء تلك النزاه احاديث العلم والادب اللذين كنا نعرفهما يومذاك . وتفاوضنا مرة حديث الطلاب الذين كانوا

(١) لم يصدر ديوان ابراهيم بعد .

(٢) نابلس ٥/١٤ ، ٣٣/٥ ، نابلس ٥/١٤ .

(٣) على شاطئ البحر ، قرب المنارة .

ينظمون الشعر في الجامعة ، فقلت له : « إنك ، يا ابراهيم ، تأخذ المعاني من متناول يدك » .
واقر ابراهيم هذا الرأي وعزاه الى نوع مطالعته . والواقع ان ابراهيم لم يكن يغوص على
المعاني بل كان يتقبل منها ما يرد على طبعه ولكنه كان يطبعه بالطابع الوجداني ثم يسبكه
في لغة متينة جميلة عذبة .

وشعر ابراهيم متفاوت جداً في خصائصه اللغوية وخصائصه المعنوية . لقد نظم في
عام ١٩٢٤ - بعد ان تخرج من الدائرة الاستعدادية مباشرة وقبل ان يدخل الدائرة العلمية
في الجامعة الاميركية - قصيدته الرائعة : « بيض الحمايم حَسْبُ هُنَّة » فأنتى فيها بكل
احسان وبلغ ذروة الشاعرية من حيث الاسلوب والموضوع والعبقرية . ثم كان له بعد
ذلك قصائد لا يرضاها فلم يشأ ان تظهر في ديوانه . اما تليل هذا التفاوت في شعر ابراهيم
فيسير . ان ابراهيم شاعر وجداني - في صف عمر بن ابي ربيعة وبشار وابي نواس وابن
الرومي وابي فراس - والشاعر الوجداني لا يجيد إلا اذا انفعلت نفسه انفعالاً شديداً . اما
اذا « أراد » ان ينظم فانه يبطىء في نظمه كثيراً ويتعثّر ثم لا يرضى بعد ذلك كثيراً مما
تأتي به قريحته . وكذلك كان ابراهيم ، فمن الامثلة البارزة على شعره الوجداني الرائع
قصائده « ملائكة الرحمة - الفدائي - الثلاثاء الحمراء ' - رثاء فيصل - غادة اشيلية » .
اما شعره الذي لم يرض عنه - وان كان قد أجاد فيه - فمته قصيدته في مهرجان المتني ؛
مثلاً ، ثم قصائد او اقسام من قصائد لم ير ان يضمها ديوانه . وشعره الضعيف ليس من
عهده الاوّل بنظم الشعر فحسب ، ولكنه مفرق في جميع حياته الشعرية .

وهناك تفاوت لغوي في شعر ابراهيم . كان ابراهيم طالباً في الجامعة الاميركية ، في
الجيل السابق يوم اجتمع فيها نخبة من احسن الطلاب طبعاً في اللغة العربية ، حتى لقد
ألقى الاستاذ انيس المقدسي ذات يوم كتابه على المنضدة ثم قال : ان الجامعة الاميركية
لا تأمل ان يعود اليها « صف » يشبه هذه الصف في مقدرته العربية قبل خمسين عاماً .
وها قد مضى الآن على هذه الكلمة ثلاثون عاماً كاملاً .

غير ان التفاوت في لغة ابراهيم كان تابعاً للتفاوت في خصائصه المعنوية ، فحيث اتسقت لغته مع وجدانه كان لغة قوية . اما اذا جانب طبعه في النظم فان لغته كانت تركب احياناً . على انه من غير الانصاف ان نقول ان لغة ابراهيم المتينة الجميلة كانت نتاج الجامعة الاميركية في بيروت او نتاج مدرسة المطران في القدس . وانما هي في الحقيقة نتاج مطالعته الواسعة التي لم تنقطع . كان ابراهيم دائم القراءة للقرآن الكريم منذ فتح عينيه على عمته كريمة التي كانت لا تعرف القراءة الا في مصحفها مهتدية بعلامة من الورقة تنقلها بين صفحاته . فاذا تخابث ابراهيم مرة واخرج هذه العلامة من موضعها اقامت عمته الدنيا واقعدتها لأنها تضلُّ طريقها حينئذ في المصحف ثم لاتحسن القراءة بعد ذلك . وكان ابراهيم يقرأ القرآن تفقهاً وتلذذاً وصقلاً للغته . قال ^٢ : « الجميل في رمضان عندي خاصة اني اقرأ القرآن فيه ، واقراه كله . هذا ما اصنعه في كل سنة . وأتلذذ به فاصقل به لغتي ، ونعم صقال اللغة القرآن . وتستوقفني بعض التراكيب فأرجع الى كتب البلاغة فانفقته بكشف أسرارها ، وتشكيل عليّ بعض المعاني فارجع الى سيد المفسرين استاذ الدنيا جار الله محمود الزمخشري فاصدر عنه ريان شعبان . وأتنبه الى طريقة تاريخية فارجع الى ابي جعفر محمد بن جرير الطبري فأنسى نفسي بين احاديثه ورواياته . هذا هو فضل رمضان علي ، وهكذا أحسن استغلال شهر كامل في مدينة نابلس ... »

وكذلك كانت مطالعته واسعة في كتب الحديث ولا سيما صحيح البخاري . كتب الى يوماً في شأن مقال في العباس الاحنف كتبه المستشرق الالماني يوسف هل (١٨٧٦ - ١٩٥٠) . وليوسف هل بنت واحدة اسمها عائشة ، فحملته هذه الاشارة الغريبة الى الاستطراد الى العوائش فذكر عائشة بنت طلحة ثم قال ^٣ : « واما عائشة ام المؤمنين وزوجة

(١) يقول الاستاذ ابيس المقدسي (الامالي ، السنة ٣ ، العدد ١٥ ، ص ٤) : « عرفته بذلك منذ كان طالباً في الصفوف العليا في الجامعة الاميركية وبعد ان نصح اديه خارجها بالتنقيب والمطالعة . هذه الكلمة من استاذ ابراهيم في الادب العربي لا تدل فقط على حقيقة بل تدل ايضاً على الانصاف والخلق السمع اللذين يتمتع بهما استاذنا الاستاذ ابيس المقدسي .

(٢) مارس ، ١٠ كانون الاول ١٩٣٥ (١٤ رمضان المبارك ١٣٥٤) .

(٣) نابلس ، ١٦ تشرين اول ١٩٣٥ .

سيد المرسلين وابنة اول الخلفاء الراشدين فتلك يرحم الله روحها ما كان اشدّ مرحها
واكثر تيّها على رسول الله ودلائها . وحديث الافك - كما روي على لسانها في البخاري -
قطعة خالدة من الادب الحمي الرفاف ... »

وكان أحبّ امهات الادب اليه كتابُ الاغاني فاكثر من مطالعته^١ وبلغ من اعجابه ان
قال^٢ : « اذا ضاع كتابُ الاغاني - لا سمح الله - فقدنا ثلاثة ارباع الادب العربي ». وكانت
مطالعاته عاقلة يقرأ فيحفظ ويتشقف . لما صدر كتاب « تاريخ حياة معدة » لتوفيق الحكيم
وقرأه ابراهيم - فضولاً على الاقل لأن اسمه يجذب من اصيب بمعدته - قال^٣ :

« ... تاريخ حياة معدة لتوفيق الحكيم أغار فيه على ما انتثر من نواذر اشعب وطرائفه
فساقها كما يسوق المغيرون امامهم قطع الماشية وسماها كتاباً لا فضل له فيه إلا انه عنوان
خيّل اليه انه جذاب . اما وقد (أغار) على كتب الادب فانه لم يحسن الغارة فقد أعمى الله
قلبه عن ذخائر اشعب المودعة في بنك (الاغاني) عند مولانا ابي الفرج الاصفهاني . وعندما
استراح الى مرابعه واخذ يصنف المنهوبات وجدته يخلطها بما لابي دلامة ويحمل اشعب
من احضان بني امية وسكينة بنت الحسين ويلقي به بين يدي المأمون ... فتأمل واعجب . »
وكذلك كانت له مطالعات واسعة في كتب التواريخ كما ترى في المقطع التالي من
احدى رسائله^٤ ، قال :

« بعث اليّ الاستاذ المقدسي^٥ بديوان ابن الساعاتي هدية وإثر رسالة بعثت بها اليه
اشكره على التنويه باسمي في سلسلة المقالات التي نشرها تباعاً في المقتطف حول حركة
الادب الحديث . والديوان كما قلت فيه^٦ ، جهد يذكر رأيت ان اخصه باذاعة^٧ انوه فيها

(١) القدس ، ؟ آب ١٩٣٢ .

(٢) نابلس ، ١٣ آذار ١٩٣٤ .

(٣) القدس ، ٣٨/١٢/١٠ .

(٤) القدس ، ٣٩/٢/٣ .

(٥) الاستاذ انيس المقدسي .

(٦) كنت انا قد نقدته في مجلة الامالي (السنة الاولى ، العدد ٢٠ ، ص ٦٣٧ - ٦٣٨) .

(٧) يريد ان يذيع عنه كلمة من محطة الاذاعة الفلسطينية .

بالاستاذ وعمله . انما احب ان اقول لك شيئاً - ليس للنشر ^١ - وهو ان المصادر التي رجح اليها الاستاذ قد اهمل من بينها مصدرين هامين ، احدهما كتاب الروضتين في اخبار الدولتين (دولتي نور الدين وصلاح الدين) وهو لشهاب الدين ابي شامة دمشقي . وقد ورد فيه ذكر ابن الساعاتي مراراً واثبت له فيه قصائد ومقطعات في صلاح الدين لم يُشر اليها في الجزء الذي اصدره الاستاذ واخشى ألا يرد ذكرها في الجزء الثاني ، ذلك لأن في (الجزء) الاول الذي صدر قصائد مبتورة رأيت تمامها في (كتاب) الروضتين او لأن هذا القسم المبتور ليس مما تستسيغه نفس [الذين هم حول] الاستاذ لما يحتويه من ذم للحركة الصليبية ، لقول الشاعر :

وبكت جفون القدس ثانية دماً لترثم النافوس في افئافه

وما هو على هذا الطراز ، وانت ادري بالحال ^٢ .

« هذا ، وهنالك التاريخ الكامل لابن الاثير . ولا إخال ان الشاعر قد خلا ذكره منه ولو كان التاريخ بين يدي لصدق ظني ^٣ . وسترى عند المراجعة في الاذاعة انني سأمس هذه النقاط ما رقيقاً - رقيقاً بالقوارير ^٤ » .

ولم يكن ابراهيم حافظاً للادب فقط ، بل كان ناقداً بصيراً ايضاً ^٥ . لما نظم شوقي قصيدته في زحلة :

(١) كان لهذا التحفظ قيمة قبل وفاة ابراهيم .

(٢) يظهر ان ابراهيم طوقان قد قرأ الجزء الاول من ديوان ابن الساعاتي ومس النقاط التي اشار اليها مسأ رقيقاً . لذلك رأيت ان الاستاذ المقدسي قد عاد الى كتاب الروضتين واستدرك في الجزء الثاني من الديوان كل ما لم يذكره في الجزء الاول . فذكر كتاب الروضتين بين المصادر المستدركة (الجزء الثاني من ديوان ابن الساعاتي ، ص ٤١٢) ، ثم جمع من الابيات التي وردت في كتاب الروضتين ، ما لا يوجد في مخطوطات الديوان (راجع الجزء الثاني من ديوان ابن الساعاتي ، ص ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، مع الحواتي) . واستاذنا الاستاذ المقدسي منصف جداً في دراساته الادبية .

(٣) راجعت انا كتاب ابن الاثير (طبع ليدن) فلم اعثر على اسم « ابن الساعاتي » في فهرسه .

(٤) رقيقاً بالقوارير حديث قاله الرسول للحادي الذي كان يسوق الغافة التي فيها نساؤه . ويقصد ابراهيم أنه سرفق حينما يصل في نقد ديوان ابن الساعاتي الى قضية إغفال هذين المصدرين او الغفلة عنها .

(٥) راجع مثلاً بيروت ، ٢٥ تشرين الاول ١٩٢٨ ؛ نابلس ، ١٢ آب ١٩٢٩ ؛ رام الله ، ؟ تموز

١٩٣١ ؛ نابلس ، ٢٩ آذار ١٩٣٣ .

شبتت احلامي بطرفِ باكِ ولمت من طرق الملاح شبكي
ورجعت ادراج الشباب وورده امشي مكانها على الاشواك
ومنها :

وتأودت اعطاف بانك في يدي واحمرّ من خفريها خدك

كتب إلي رسالة ١ يقول فيها في تعليق على البيت الثالث خاصة : وهنا اريد ان اقول
كلمة لعلي استطيع ان اعبّر بها عما يجول في فكري . إن تأود اعطاف البان شيء ذكر منذ
هلل الشعر وبقي ينسج على منواله حتى تكاد لا تمر بديوان الا وترى فيه عطف البان .
ولكن جمال الشيء يبدو ويخفى بزيادة عليه او اخذ منه . وقد يحسن الشيء بزيادة شيء عليه
أو اخذ شيء منه ، وقل مثل ذلك في الحسن اذا قبح . وقد تبذل الفكرة ثم يقال عنها طريقة
مبتكرة بمثل ذلك . هذا ما فعله شوقي حين زاد كلمتي (في يدي) على فكرة عطف البان
التأود المتبذلة . الحق ان شوقي توفّق في هذه القصيدة . ولا بأس بها ابداً .

وكان ابراهيم قد قال في هذه الرسالة نفسها وقبل بضعة اسطر : « قصيدة شوقي فيها
غزل رقيق جميل سيما نظره الي ايام الصبا ، وهنا الابداع . غير ان هنالك بيتاً وددت لو لم
يقع في القصيدة وهو قوله :

خرزات مسك او فصوص الكهربا

... وما ادري ، يا اخي ، كيف يغيب عن ذوق شوقي بالكلمات وعلمه بمواضعها ان
يتنكب الخرز والفصوص . انا لا اريد ان اقول ان هذه الكلمة قبيحة . كلا ، ولكن اصبح
لها عند الناس شخصية بارزة ؟ والذي اعجبني في القصيدة هذه التعبيرات : لم الشباك من
طريق الملاح والرجوع ادراج الشباب ، وقوله : فتأودت اعطاف بانك في يدي » .

ويجب ان نعلم ان هذه الملاحظات ابداهها ابراهيم وهو تلميذ ، وقبل ان يتخرج في
الجامعة الاميركية بعامين اثنين .

هذا التدقيق الادبي ممكن من ان يعمل في دراسة المخطوطات وتحقيقتها فقد ساعد

المستشرق الدكتور نيكل في تحقيق كتاب الزهرة ونشره^١ كما حقق وحده ديوان العباس ابن الاحنف^٢، ولكنه لم ينشره، فعسى ان يتاح لاهله واصدقائه نشره قريباً^٣. وكذلك كان ابراهيم مطلعاً اطلاقاً وافية على التوراة. حينما كان ابراهيم يعد قصيدته للرد على رؤووين الشاعر اليهودي الذي عبر العرب باصلهم من هاجر وهي جارية لسارة ام اليهود:

هاجر امنا ولود^٤ رؤوم لا حسود ولا عجوز عقيم

كتب الي يقول^٥: « واراني ساجعل كل بيت من هذه القصيدة مأخوذاً عن مصدر تاريخي، بل من التوراة نفسها فانها تفيض بخبثهم » . .

ولابراهيم مشاركة طيبة في التاريخ^٥ فلقد درس التاريخ في الجامعة الاميركية في بيروت، ولكنه لم يكن كثير التعمق فيه^٦ لأنه لم يدرسه للاختصاص.

وامتاز ابراهيم - كسائر اخوته وكابناء اعمامه - بذكاء فطري. ولكنه اتجه بذكائه هذا الى النواحي الادبية عازفاً عن ميدان العلوم الطبيعية والرياضية حتى اصبح مع الايام يكره هذه العلوم، مع ان اخاه احمد^٧ وابن عمه قدرى^٨ خاصة من الذين يشار اليهم في هذا الباب. وهكذا غلبت على ابراهيم الاحاديث الادبية في جلساته ورسائله ومقالاته. ولقد كان اعظم اعجابه بالشعراء العباسيين وبابي نواس خاصة، حتى طبع شعره على منواله.

(١) راجع ص ٤١ .

(٢) القدس، ٢٢ ايلول ١٩٣٢؛ القدس، ٢٣ كانون الثاني ١٩٣٣؛ نابلس، ١٠ آذار ١٩٣٣ .

راجع نابلس ١٠ كانون الاول ١٩٣٥ .

(٣) يرى المستشرق نيكل ان فدوى طوقان خليفة بان تنشر هذا الديوان احياء لذكرى اخيها .

(٤) نابلس، ١١ ايلول ١٩٢٩ .

(٥) راجع رام الله، ٣ ايلول ١٩٣١ .

(٦) نابلس، ٩ نوفمبر ١٩٣٣ .

(٧) تخرج في الجامعة الاميركية برتبة بكالوريوس علوم عام ١٩٢٥ A U B Directory 1953, p 163 .

وكان تخصصه في الرياضيات، ثم تابع دراسة الرياضيات في جامعة كمبريدج بانكلترة .

(٨) قدرى حافظ طوقان عضو الجمعية الرياضية في لندن، وعضو الجمعية الرياضية الاميركية واستاذ

لرياضيات وله فيها تأليف كثيرة .

ان الشاعر الوجداني لا يستطيع ان يقول الشعر في كل مناسبة ، بل هو محتاج الى جو خاص يحيط به حتى تنشط قريحته ، كما ان الانفعال النفسي والتأثر بالمشاهد والاحوال يساعدان على الرغبة في قول الشاعر . وكذلك كان لابراهيم طوقان مواسم يقول فيها الشعر ويجيد قوله . وقد اتفق ان ابراهيم لم ينظم شيئاً يرضى عنه في بعض النصف الثاني من سنة ١٩٢٩^١ وكذلك كان في النصف الاول من عام ١٩٣١ ، قال^٢ : « لا ادري يا عمر ، شاعرتي قاحلة ولا تستطيع ان انظم شيئاً ذا بال في هذه الايام . بل قل منذ ستة اشهر لم انظم ما يستحق النشر . وكذلك كان في اواخر ١٩٣٣ كسلان عن الشعر^٣ . اما في مطلع ١٩٣٥ فكانت قريحته فياضة . يقول^٤ : « ليس لدي من جديد سوى انطلاق القريحة في هذه الايام على السياسات ولا اعلم السر في ذلك . خلال عشرة ايام نظمت خمس قطع (سبعة ابيات الواحدة) والحبل على الجرار كما يقولون . وهذه القطع تظهر اسبوعياً في جريدة الدفاع عندنا وفي صوت الاحرار عندكم . وقد ثبت لي انها تثير اهتماماً في الاوساط الحزبية لأنها قائمة على مناوئة المسمون^٥ و بيننا زعماء ورجال الحركة » . وهكذا نرى كيف تثير الاحداث عبقرية الشاعر . ان الكوارث تلهب الشاعرية وتدفع الشاعر الوجداني الى نظم الشعر ، واكثر شعر ابراهيم من هذا الباب .

اما المرض فانه يصرف عادة عن قول الشعر لأنه يصرف عن كل شيء . قال ابراهيم :
« لعلك تعجب من قعودي عن النظم في هذه الفرص الطويلة . فعندري يا عمر : بين وهذا هو : اظن انك لا تجهل ان باحدى اذني صمم . ولقد ازعجني ألمها كثيراً في الايام
الواخر ... »

- (١) نابلس ١١ ايلول ١٩٢٩ .
- (٢) رام الله ؟ تموز ١٩٣١ .
- (٣) نابلس ٩ نوفمبر ١٩٣٣ .
- (٤) نابلس ٢٨ كانون الثاني ١٩٣٥ .
- (٥) نابلس ، ٢٣ تموز ١٩٢٤ .

واحياناً يمتنع هو عن النظم لأن الشعر الوجداني يحتاج الى اجهاد . فاذا اتفق ان كان مريضاً فان اجهاد الفكر للمجيء بالشعر الجيد يزعجه جداً . قال ١ : « حركتي بقصيدتك هذه الى القول ، ولكن انازع نفسي هذه الايام فلا اود ان اقول شيئاً لاني الى الراحة احوج . والمعدة الى الدم افقر من الدماغ اليه » .

ومع ذلك كله فان ابراهيم كان يرتجل الشعر احياناً ، ولكن ارتجاله كان قاصراً على الاشعار الخفيفة التي تكثر فيها المداعبة او تكون في الغزل الصريح او الهجاء المملوء بالتهكم . اما القصائد الكبرى عنده فكان ينظمها في اوقات متطاولة ومتباعدة احياناً .

والشعر الجيد عند ابراهيم يجب ان يقترب بخصائصه اللفظية من النثر ، او هو - كما قال ابراهيم ٢ - عبارات نثرية اتفق ان تقع موزونة . « اريد ان اقول او ان اضع تعريفاً للشعر السهل الممتنع فلم اجد احسن من تعريفه بعبارات نثرية موزونة لا أثر لكذ الخاطر عليها ، بل اتفق لها هي ولم يتفق لك انت ان تكون موزونة » .

اما من الناحية الفكرية فابراهيم يجب « الفكرة البسيطة » تخرجها عاطفة معقدة ٣ .

ولم يكن ابراهيم يحب الصناعة : لا يحب ان يقرأ الادب المثقل بالصناعة ولا ان ينظم شعراً فيه مثل ذلك . يقول ٤ : « ... مرت علي كل هذه المدة من الحياة الادبية وانا استقل دم الكتاب العرب اصحاب الرسائل والمقامات وابطال السجع والبديع . ولكن في المدة الاخيرة منذ شهر او شهرين اخذت اضغط على نفسي بالمطالعة في كتاب الدرر اليتيمة ٥ وارهقها في قراءة نماذج النثر الموجودة فيه فلم يتغير رأبي في النثر العربي القديم الا بمقدار ... وهكذا فقد (استحللت) لبديع الزمان الهمداني هذه القطعة الآتية وقد بعث بها الى من كتب اليه : لم لا تديم الجود بالذهب كما تديمه بالادب ؟ قال : لا قرابة

(١) نابلس ، ١٢ آب ١٩٢٩ .

(٢) نابلس ١٩٣٥ .

(٣) نابلس ١٩٣٥ .

(٤) نابلس ١٣ آذار ١٩٣٤ .

(٥) لعله يقصد : ينمية الدرر للتهالي .

بين الذهب والادب ، فلم جمعت بينهما ؟ والادب لا يمكن ثرده في قصعة ولا صرفه
ثمن سلعة . . . »

واذا اراد ابراهيم ان ينظم في مناسبة ، او اذا اضطر الي النظم فيها ، فانه عادة ينصرف
عن تلك المناسبة الى موضوع عام من الادب او الوطنية او الاخلاق والتاريخ . لما رثي
ابراهيم موسى كاظم باشا الحسيني قال له احدهم : « اراك اتكأت على الرجل ثم انصرفت
عنه الى بحث آخر » . وقال له نفر آخرون مثل هذا ايضاً . فعقب ابراهيم على هذه الاقوال
بقوله : لا انكرك يا عمر اني سررت بهذه الشهادات وعلمت منها اني لم أعد الغرض الذي
اردته في تأبين الباشا ^١ . وابراهيم يحب البحث لا الدعاية ^٢ .

وكان ابراهيم حسن الالقاء جداً : كان فصيح الكلام صحيح اللفظ جميل الأداء ،
يتمهل في انشاده ، جموري الصوت فخم المخارج مما يضيفي على قصائده حينما يشدها رونقاً
وروعة . ولقد كان هو مدرساً لهذه الخصائص فيه ومدرساً موقعها من الناس .

في عام ١٩٣٣ اقامت مدينة نابلس حفلة تكريم للاستاذ قدري حافظ طوقان لمناسبة
منحه عضوية الجمعية الرياضية في لندن ، فاراد ابراهيم ان يكون لي ابيات تلقى في هذه
الحفلة فارسلت اليه ابياتاً منها ^٣ :

أن قدري أهلٌ لأن يخدم العلم م ويجزى عن سعيه بالشكور
نال في العلم رتبة لم ينلها غير أهل لها وغير جدير
رتبة لا تنال بالجاه والاهل ولا تشتري بال كثير . . .

وكانت الابيات موافقة جداً للجو الذي اقيمت فيه الحفلة او على الحقيقة للجو الذي
كان السبب في اقامتها. فكتب الي ابراهيم بعد الحفلة يقول ^٤ : « . . . فجاءت قصيدتك قبلة على

(١) نابلس ١٤ مايس ١٩٣٤ .

(٢) القدس ١٩٣٨ (في الاصل بلا تاريخ ولا اسم مكان) .

(٣) الجامعة الاسلامية ، يافا ، السنة الاولى ، العدد ٢١٣ .

(٤) نابلس ٢٩ آذار ١٩٣٣ .

الرؤوس كما اثلجت صدور قوم آخرين . واذا علمت ان هذا العاجز كان ملقياً ادركت
ما اضيف الى تأثيرها .»

— ٣ —

بين يدي صفحة من مجلة فيها مقال في خصائص ابراهيم الفنية عنوانه : « هذا شاعر »
للأستاذ عبد الحميد ياسين ، احد اصداق ابراهيم الحميمين المخلصين ، آثرت ان انقله هنا
لما فيه من اصابة وتوفيق . قال الاستاذ ياسين :

« ... ولعلنا نحسن صنعا حين نقيس شاعرية ابراهيم بالمقياس الذي وضعه ، وندلل
عليها بأمثله من شعره . فقد جرت له مناظرة ادبية ، عرّف الشعر فيها بأنه قول ذو ميزات
خمس : أولها حسن تخير الالفاظ ، وثانيها موسيقى الوزن والقافية ، والثالثة خطاب
الحس مباشرة وفي اقتضاب ، والرابعة اتساع أفق الخيال ، والاخيرة توهج العاطفة . وقال :
« ان الشاعر ، حين ينظم البيت ويعز عليه وجود الكلمة المختارة ، يشعر انها تراوغه
وتماطله وتدانيه وتباعده ، حتى اذا هبطت في مكانها الذي اختاره لها ، تنفس الصعداء ،
ومشى في قصيدته مضاعف النشاط . الشعر اذن هو الجمال مقتنصاً بالالفاظ » . رحم الله
ابراهيم ! فقد كان شاعراً حتى في نثره !»

كان شاعرنا يحسن تخير الالفاظ ، اذ كان يضم الى ثروته اللغوية ذوقاً ادبياً مصقولاً .
وثروته اللغوية جاءت من ادمان قراءة عيون الادب ، كما تعاونت هذه القراءة مع الهبات

(١) ليس على هذه الصفحة اسم العجالة التي قطعت منها ولا تاريخ . ويغلب على ظني انها مقطوعة من مجلة
« المنتدى » (القدس) . اما تاريخها فيجب ان يعود الى عام ١٩٤٥ لأن على ظهرها نعي لفرانكاين
روزفلت ، رئيس الولايات المتحدة ، ولأن المقال نفسه يبدأ هكذا : « ابراهيم عبد الفتاح طوقان شاعر مجيد
فقدناه قبل اربع سنوات ... » . اما رقم الصفحة فهو على كل حال ١٢ .
وكذلك على ظهر هذه الصفحة ، مع نعي روزفلت (ص ١١) ، مقال عام في ابراهيم كتبه « صديق » .

الطبيعية على صقل ذوقه . ولذلك كانت الالفاظ تنقاد له في سلاسة ورقة ، كما يتبين في
الايات التالية ، وهي من قصيدته (معين الجمال) :

ضجعتي في الرياض بين الرياحين قريباً من ماء عين معين
فتناولت اقحواناً ندياً وندها كالؤلؤ المكنون
وزعت الاوراق عنها تباعاً أتجرى شكى بها ويقبني
فاذا وافقت منامي تفاعلت والا كذبت فيها ظنوني
ذاك هو فيه العزاء لنفسي فاضحي من تعلمي وجنوني
والموسيقى في شعر ابراهيم وفيرة مطربة ، وما كان أوفرها حين ينشد شعراً يعجبه ،
من نظمه او من نظم غيره . وفي الايات التالية شاهد على ذلك ، وهي من قصيدته
(واحنيني !) :

ذاكرتُ أنت عهدنا يا غدير

يوم كنا والعيش غض نضير

وعلى ضفتيك كنا نسير ،

فرويت الحديث عنا شجوننا وأخذنا عليك ألا نخوننا ؟

فأعد لي ذلك الحديث ، فأني أذهلني النوى عن التذكار .

أما في الخطاب المباشر المقتضب للحس ، فقد قال شاعرنا : « الشعر نكتة . قد يحسن
الشاعر قولها وقد لا يحسن ، وقد (يلقطها) القارئ او السامع ، وقد تفوتها . » والمقصود
بالنكتة هنا وثبة الفكر . او انطلاقه الخيال ، الى القول البارع او الجامع ، لا مجرد الدعاية
او محض التطرف والتندر . ومن الامثلة على ذلك قوله في (رثاء فيصل) واصفاً ذلك
الفقيد العظيم :

راقد ينعم في ضجعتيه خلف الدنيا به في شغل

ثم مشيراً الى نجله المرحوم (غازي) وما عمله في غيبته :

غضبة من رجل في أمة جعلته أمة في رجل

ومنها (في هذا الباب) قوله في (الشهيد) :

لا تسل أين جسمه واسمه في غم الزمن

أو قوله مخاطباً مصر :

سُقوا (القناة) عساها عنك تبعدي أنتى ومن لغني جسر سيدنبنني

.... لمسنا ، في الايات التي اوردناها من قصيدة شاعرنا : (معين الجمال) قدرته على اجادة

التصوير . والتصوير قد يكون نقلاً عن واقع ، وقد يكون من ابداع الخيال . فمن ابداع

الخيال قوله في وصف معركة (حطين) :

تتطاير الارواح فيه من السنان الى السنان

ووصفه لعميدة المسرح فاطمة رشدي بقوله :

بين ابتسامتها وزفرة صدرها جند من الأفراح والأحزان

وأخيراً تأتي الى عنصر العاطفة ، وهي عند شاعرنا جد مشبوبة . رأينا مثلاً منها في

الآيات المقتبسة من قصيدته (واحيني !) ، ونورد مثلاً آخر من قصيدته (عند شباكي) :

وأخشى أن يرف الجفن بجرمئي محياك

مررت وقيل مرّ الناس هل أبصرت ولاك

وقد كان قوي العاطفة الدينية ، فقال في دور نقاهته من مرض :

اليك توجهت يا خالقي بشكرك على نعمة العافية

تباركت أنت معبد الحياة متى شئت في الرمم البالية !

وكان يولي العاطفة النصيب الأوفر من العناية في الشعر . فقال عن قصيدة نظمها سنة

١٩٢٥ بعنوان (نحن) ، انها « قصيدة باردة العاطفة ، مفككة الأوصال ، رخوة المعنى

والمبنى . وهل أدل من هذا العنوان عليها ؟ شعرت ان زمناً طويلاً مر بي دون ما نظم .

لماذا لا أنظم ؟ يجب ان انظم ! هذه هي النتيجة . حذقة ! » إذن كان ابراهيم أديباً

ناقداً ، الى جانب كونه شاعراً مجيداً . وقد كان نزيهاً جريئاً في النقد ، حتى على نفسه ، كما

كان مبدعاً في الشعر ، رحمه الله !

اغاريد الهوى

لاستطيع ان نفهم غزل ابراهيم عامة إلا اذا عرفنا طرفاً من صداقته وجه لطالبة كانت تدرس في الجامعة الاميركية اسمها ماري فلنرجع اذن الى الايام التي قررت فيها الجامعة الاميركية ان تفتح ابوابها للفتيات يتلقين العلوم والفنون مع الشبان جنبا الى جنب .

وهذا « التعليم المختلط » الذي نقص خبره هنا لا يتناول انشاء مدرسة التمريض عام ١٩٠٥ التي بدأت بتخريج طالباتها عام ١٩٠٨^٢ ، ولا التجارب الاولى بقبول الفتاة اليهودية ساره ليفي في دائرة الصيدلة حيث تخرجت عام ١٩٢٥^٣ . وكذلك لا نعد الآنسة هنريت حكيم ، او هنريت حكيمان على الاصح ، وكانت قد دخلت الجامعة عام ١٩٢٣ ثم تخرجت برتبة بكالوريوس علوم عام ١٩٢٧^٤ ، ولا سنية حبّوب^٥ التي بدأت دراسة الطب في الجامعة الاميركية في بيروت ثم ذهبت الى الولايات المتحدة لمتابعة دراسة الطب هناك .

على ان التعليم المختلط بالمعنى المقصود هنا لم يبدأ قبل العام المدرسي ١٩٢٤ - ١٩٢٥ حينما سجلت سبع طالبات اسماءهن في الدائرة العلمية منهن مسلمة واحدة هي السيدة

(1) Penros 252.

(2) A U B Directory 1953, p. 67.

(3) Penrose 253, A U B Directory 1953, p. 160.

(4) A U B Directory 1953, P. 175.

(٥) الدكتورة سنية حبّوب ، القابلة والطبيبة القديرة المشهورة .

احسان احمد القوسي المصرية . وكانت تتلقى العلم هي وزوجها معاً . وفي العام المدرسي التالي دخل الى الدائرة العلمية ثلاث عشرة فتاة اثنتان منهن مسلمتان ^٢ .

هذا الاختلاط اطلق هزةً شديدة بين الفتيان ، ولكنها هزة كانت منتظرة على كل حال ، ولم يكن ثمت بد للجامعة من ان تدفع ثمن هذه التجربة مشاكل متعددة . وأنا لا استطيع ان اُزعم ان هذه المشاكل قد زالت الآن . ولكن نظر الناس الي « المشكلة » قد تبدل . ان وقوف الطالب والطالبة اليوم في بعض أنحاء الجامعة الاميركية يدرسان او يتسامران اصبح امرأ مألوفاً ، ولكن الطالب في ايامنا كان يعرض نفسه للتأنيب او للطرده ايضاً لو حاول ان يستوقف طالبة ليسألها عن عدد الصفحات التي فرض الاستاذ قراءتها . على ان هذا التزمّت من قبل الجامعة الاميركية كان ظاهرياً ، فالجامعة يوم اقرت التعليم المختلط كانت عالمة بالنتيجة التي سيصل اليها الطلاب والطالبات بعد حين - وقد كانت تقصد ان يصلوا اليها - ولكنها كانت تقصد ان يتدرج اليها الجنسان تدرجاً حتى يتم الاختلاط على مقاعد الدرس وفي مياه البحر وفي حلقات الرقص على ما اصبحنا نرى منذ أمد .

ولنعد الآن الى حديث ابراهيم طوقان . ان ابراهيم قد نظم معظم قصائده الغزلة وأروعها في ماري هذه ، وهي فتاة فلسطينية من الناصرة كانت طالبة في السنة الثانية من الدائرة العلمية في العام المدرسي ١٩٢٦ - ١٩٢٧ .

ولفتت هذه الفتاة الفارعة الانيقة انظار عدد من الطلاب فأضاعوا قسماً كبيراً من وقتهم في تباع حركاتها وتبعها هي . من هؤلاء الطلاب ابراهيم طوقان . وجعل ابراهيم يقول فيها الشعر الرائق والغزل الصادق منذ بدء ذلك العام المدرسي . وكان ابراهيم يسكن في الجامعة الاميركية ، وكان غرفته في الجهة الجنوبية من بناية الدائرة العلمية المطلة على المدخل الرئيسي . وكانت الفتيات يسكنن في خارج الجامعة . فكان ابراهيم يقف كل

(1) Penrose 253.

(2) Penrose 253.

صباح في نافذته يترقب بحبيء فتاته . وفي ذلك يقول قصيدته : « وقوفي عند شباكي » ، عام ١٩٢٦ . غير انه حينما رتب ديوانه قبل موته جعل المطلع « بكوري عند شباكي »^١ :

بكوري عند شباكي لأنشَقَ طيب ريباكِ .
ولا سلوى سوى نجوی أسرُّ بها لمغناكِ .
أسرح نحوه طرفاً أمنيه بمرآك ،
وطرفاً في قرار الدار ، موعوداً بلبياك^٢ .
تترُّ علي ساعاتٍ أشيعُها بذكراك ؛
وأخشى ان يرفَّ الـ جفن بحرمني 'محبياك !

*

طلعت ، فما لقلبي شا . يفضحني فسماك .
صباحُ النور من دنفٍ تنهد ثم حياك ؛
سلامُ الرّوح والريحان ، أنت نعيمُ دنياك .
مررت ، وقيل مرّ النا س ! هل شاهدتُ لآلاك ؟

*

وداعاً ، يا معذبتي ، وعين الله ترعاك .
وداعُ سويعةٍ تضي على جمرٍ وألقاك .
وأنى لبلةٌ سلقت وطرفي ساهرٌ بياك ،
ومضجع اضلعٍ منيتُ بنيانٍ وأشواك .

*

شكرت الله أن الدار ، تجمعني وإياك ،
وتلقين السؤال علي في أمرٍ تعداك

(١) نشرت في العدد ٣٩ من الاحرار المصورة (عام ١٩٢٦) .

(٢) الدار هنا تعني الجامعة الاميركية لأنها طالبان في معهد واحد . ويمكن ان تعني « الوطن » لأنها كليهما من فلسطين .

وحين أُجيب تمنعني أب تسامَ الشكر عنك

*

هجرت الدار أضرب في فضاء الله لولاك ١ .
ولولا رحمة العينين ن قلباً بات يهواك ٢ ،
وعطف من لدنك على أسي في النفس فتناك ،
إذن لرأيتني يوماً صريعاً عند شباكي .

وقبل ان ينصرم عام ١٩٢٦ اخذ ابراهيم يقترب من فتاته ويتقرب إليها . ولذلك نرى في قصيدته الثانية جراءة أكبر ووصفاً أدق وأشد تفصيلاً لها وجلوسها وهي تطالع في مكتبة الجامعة الاميركية :

وغريرة ٣ في المكتبة يجالها منتقبه .
أبصرتها عند الصباح ح الغض تشبه كوكبه ٤ .
جلست لتقرأ أو لتك تب ما المعلم رتبته .
فدنوت أسترق الخطى حتى جلست بمقربة .
وحبست ، حتى لا أرى ، أنفاسي المتلهيئة .
ونيت قلبي عن خفو ق فاضح فتجنّبه .

*

راقبتها ، فشهدت ان الله أجزل في الهبه .
حمل الثرى منها على نور اليدين وقلّبه ،
وسقاه في الفردوس مخ توم الرجيق وركّبه ،
فاذا بها ملك تنزّل للقلوب المتعبه ٥ .

(١) لولاك لهجرت الدار ...

(٢) قلباً مفعول به من المصدر « رحمة » المضاف الى فاعله « العينين » . ولولا ما في عينيك من رحمة

لقلبي ومن عطف علي رأيتني ...

(٥) نشرت في العدد ٤٠ من الاحرار المصورة (عام ١٩٢٦) .

(٣) الغرير : الغرور المعجب بجاله ، والجبل والذي لا تجرّبه له .

(٤) كوكب الصباح .

(٥) نزل لتراه القلوب المستريحة فتعب .

يا ليت حظّ كتابها لضلوعي المتعذّبه :
حضنته تقرأ ما حوى ، وحضت عليه وما أنتبه .
فاذا أنتهى وجهه ، ونا ل ذكاؤها ما استوعبه ،
سمحت لأنفها الجيب ل بريقها كي تقلبه ١ .

*

وسمعت ، وهي تغفم الـ كلمات ، نجوى مطربه .
ورأيت في الفم بدعة خلاصة مستعذّبه :
إحدى الثنايا النيرا ت بدت وليس لها شبه
مشلوبة من طرفها لا تحسبها مثله ٢ .
هي ، لو علمت ، من المحا سن عند أرفع مرتبه
هي مصدر ، السينا ت «تكسبها صدى» ما أعذبه!

*

وأما وقلب قد رأيت في الساجدين تقلبته ،
صلى لجبار الجال ل ولا يزال 'معدّبه' .
خفقانه متواصل ، والليل ينشر غيبه .
متعذبٌ بنهاره حتى يزور المكتبه .
وأما وعينك والقوى الـ سحرية المتعجبه ،
ما رمت أكثر من حديد شِ طيب 'تفرك طيبه' .
وأروم 'سنتك ضاحكاً' حتى يلوح وأر'قبه ٣ .

وصله ابراهيم بفتاته هذه لم تنقطع بعد خروجها من الجامعة الاميركية ، بل إن صلته
بها زادت فيما بعد وثوقاً وخصوصاً في فلسطين . إلا انه كان يتذكر ايامه معها فيذكر تلك

(١) في القاموس : الاغلة : طرف الاصبع مؤنثة وجمعها اغلات وأنامل . أما أنسل بمعنى اغلة فلم ترد في
اللغة . وكان يمكنه ان يقول : لأصبعها ، ولكن ربما منعه من ذلك معرفته ان أصبع مؤنثة .

(٢) الطرف (بسكون الراء او بفتحها) : الجانب . المثلية : العيب .

(٣) السن مؤنثة ايضاً وتذكيرها خطأ .

بالخير او يشكو صباية ويرسل زفرة بعد زفرة . فمن الذكريات الجميلة التي تنطوي على مرح
وعبت ما ضمنه في موشح عنب جميل قاله في بيروت بينما لم تكن هي في بيروت ^١ :

حملتني نحو الحمى اشجاني
فنهيتت من جلال المكان .
وإذا فوق 'مقلتي' يدان

فلمست 'نصرة' ونعيا وتعرفت ما لثمت قديما .
قلت : « يا مرحبا » ، وقبئت كفاً أنزلني ضيفاً بأكرم دار .

خَطَرَاتُ النسيمِ في واديك
صَبَحْتَنِي بِقَبْلَةٍ من فيك .
ثم عادتْ بِقَبْلَةٍ تَشْفِيكَ .

فسلاماً ، يا وادي الرُّمانِ ، 'فزت' بالروح منك والريحانِ .
واحتنيتني الى ديارك والرُّما ن دانٍ يُظِلُّ أهلَ الديارِ !

ولكنه بعد بضعة اشهر طغى به الحب فزفر زفرة حرى حينما قال ^٢ :

أطفئني 'غلتي' بقبلة نغري كوثري الهمى برود الثنايا .
وأبسمي لي ، لعل فيضاً من النور يريني من الضلال هدايا .
أنت لا تعلمين ما لوعة الوجع ... يد ؛ ألا إنها نذير المنيايا .
أنت لا تدري كين ما يضع الشوق إذا هب عاصفاً بالحنايا .
إن في أضلعي لئاراً تلظى طار من هولها فؤادي شظايا .

وبعد عام كامل عاد ابراهيم فزفر زفرة شديدة اخرى من ألم الشوق الى فتاته بلا ريب
مما ترى من الايات التالية. ومع ان هذه الايات ليست من النمط العالي، فانها صادقة العاطفة

(١) البرق ٢١ ايار ١٩٢٨ .

(٢) نابلس ٢٧ آب ١٩٢٧ .

عذبة الكلمات ، ولا غرو ، فهي مقطوعة مرتجلة . في ثنايا رسالة في آب من عام ١٩٢٨ كنت اشكو ضعفاً في عيوني من اثر الاجهاد ، فكتب الي ابراهيم رسالة فيها هذه الايات ^١ :

كيف عينك ، يا عمر ؟ أنا أدماهما السهر ،
وعصي من الدموع طغى لهم فأنهم ،
وخيال ألم بي من حبيب لدى السحر :
طاف حيناً بضجعي ونواري عن النظر .
اتبعتُه جوانحي مهجتي عندما نفر ^٢ .

أين ليلى على شوا طى ، بيروت ، يا عمر .
كان من « فرعها » الظلام ومن « وجهها » القمر ^٣ .
ومسيري « مقبَل » طيب اللثم والسمر ،
ومدامي ، وقد ظفرت بها ، نشوة الظفر .

من « معيد » مسرتي والزمان الذي غير ^٤ ؟
حين لم افكر بهجتي رولا الهاجر افكر .
ولقد قبيل في الحياة هي اللح بالبر .
هكذا يذهب السرو رُ سريعاً إذا حضر .

وفي تموز من عام ١٩٢٩ ذهب ابراهيم الى القاهرة للاستشفاء في الدرجة الاولى ولللقاء اخيه احمد الذي كان راجعاً يومذاك من انكلترا بعد إتمام دراسته في جامعة كمبردج ^٥ . ويظهر بوضوح ان ايام الجامعة الاميركية التي كان قد ودعها في ذلك العام

(١) نابلس ٣١ آب ١٩٢٨ .

(٢) جوانحي فاعل اتبعته . مهجتي مفعول به .

(٣) فرعها : شعرها .

(٤) مقبل : فم . السمر : الكلام .

(٥) غير : مر ، مضى .

(٦) نابلس ٢٨ تموز ١٩٢٩ .

نفسه، اذ تخرج فيها برتبة بكالوريوس علوم، كانت لا تزال تملأ قلبه من هوى الغريزة التي نظم فيها بضع قصائد. وفي هذه القصيدة عتاب واضح لأخيه احمد وتعريض جلي. ان ابراهيم لم يكن يريد ان يترك هوى فتاته على الرغم مما كان به من السقم والنحول. ويبدو ان ابراهيم قال (في آب ١٩٢٩) بعد رجوعه من مصر ١:

أعيدي الى المضنى - وان بعد المدى -

بلهنية العيش الذي كان أرغدا ٢.

تبارك هذا الوجه ما اوضح السنى وما اطيب المفتر والمتوردا ٣
فقدتك 'فقدان الصبي؛ وهل أمرؤ' تولى صباح اليوم يرجعه غدا؟
فقدتك لكيني فقدت ثلاثة سواك: فؤادي والاماني والهدى.
وأبقيت لي - غير القنوط - ثلاثة: هواك وسقمي والحنين المؤبدا.

* * *

أيا وادي الرمان؛ لا طيبت منزلاً إذا هي لم تنعم بظلك سرمداً؛
ويا وادي الرمان، لا ساغ طعمه إذا أنا لم أمدد لهذا الجنى يدا؛
ويا وادي الرمان، واهأ! وعندم حرام على المحزون ان ينتهدأ؛
كأنني لم أنزل ديارك مرة ولم ألتق في أهليك حباً ولا ندى،
ولم تسقني كأس المدام حبيبة وردت ثناياها مع الكأس موردا،
ولم نوح لي شعراً، ولا قمت منشداً، ولم يرو شعري عندليبك منشدا.

* * *

أخي حبيبي، كنت أرجوك مسعداً؛ يساعحك الرحمن لم تك مسعداً.
ألم ترني في مصر أطلب شافياً وراعك إشفاي على هوة الردى؟

(١) نابلس ١١ ايلول ١٩٢٩: الامالي ٣: ٢٣٩.

(٢) بلهنية العيش: طيبه ورخاؤه.

(٣) ما اوضح السنى: ما أشد صفاء بياضك. المفتر: الفم. المتورد: الخد.

(٤) وادي الرمان عند كفر كنة قرب الناصرة من شمالي فلسطين.

(٥) يخاطب الشاعر اخاه احمد طوقان.

ألم ترني في مَضْجعي متقلِّباً أَقلِّب في الأفلاكِ طرفاً مسهبداً .
 ومن عجبِ أنتا شبيهان في الهوى ؛ بمن أنت هوى ، هل أظقت التجلدا .
 وتقلبت الاحوال بفتاة ابراهيم فنيها او اضطر الى ان يتناساها . فاراد صديقه ابو
 سلمى ان ينكأ جراحه ويستشير حبه القديم فنظم على لسانه قصيدة مطلعها :

يا صبايا كفر كنته ، آه من اعين كنته !

وذيلها باسم ابراهيم طوقان . وسارت القصيدة على الالسن . قال ابراهيم طوقان ^٢ في
 رسالة له إلى ^٣ .

« ابو سلمى : آخر ما فعله ان نشر قصيدة مطلعها : (يا صبايا كفر كنته : آه من اعين كنته)
 وذيلها باسم هذا العاجز . فقام شاعر آخر وخاطبني بايات يتشوق فيها ويتوجع ويبث هواه
 لكفر كنته . والايات مذيلة بامضاء ابي الخطاب . فاضطرت ان اكذب الخبر شعراً فنشرت
 قصيدة اولها :

« احبس يراعك ، يا ابا الخطابِ قد حل بي ما لم يقع بحساني . » *
 « تلك القصيدة لم أقل آياتها لكنها لمزور (نصاب) »
 « هذا ابو سلمى ، ولا والله ما نكأ الجروح سواه من اصحابي »
 « هيات ان يخفى علي وكله قلب بلا باب ولا بواب » ،

إلى ان أقول :

« هل كفر كنته مرجع لي ذكرها ما فاتني من عنفوان شباني » ؟^٥

(١) الباء في « عين » للقسم .

(٢) « ابو سلمى » امضاء مستعار للشاعر عبد الكريم الكرمي من طولكرم بفلسطين . وهو اليوم في
 دمشق ، وقد اخرج مجموعاً صغيراً من شعره سماه « المثرى » (دمشق ١/١١/١٩٥٣) .

(٣) رسالة فقدت صفحاتها الاولى ، ولعلها كتبت عام ١٩٣٤ .

(٤) الايات المحصورة بين الالهة الصغار وردت في رسالة ابراهيم لي . والايات المطلقة اخذتها من ديوان
 ابراهيم . على ان الايات الاربعة الاولى غير موجودة في هذا الديوان .

(٥) في هذا البيت تورية : قلب بلا باب ولا بواب : كنوم للسر او مذيع الأسرار (من رسالة ابراهيم) .

(٥) مرجع خطأ والصواب راجع . « ما » مفعول به .

« ام في صباها وفي رمتها ما يبعث المدفون من آرابي ، ؟
 « لو تنفع الذكرى ذكرت عشية »
 « فيهن آسرة القلوب مجسها
 روح أخف من النسيم وخاطر »
 « غرّ ثناها ، وأشهد أنها
 نلقي أحاجي بيننا فتشيونا
 ونزدد الأحان بين شجيرة
 ولقد نعرض باللقاء لموعدي
 فمنا وقد سقط الندى وتراحفت
 تخفي حيا البدر ثم تبينه
 وجفت مضاجعها الجُنبُ وملؤها
 يتنا على صفوٍ وخوفٍ تفرق
 نيسان هان عليّ حكيمك بالنوى
 ما يبعث المدفون من آرابي ، ؟
 زهراء بين كواعب اتراب ، .
 ودلالها وحديثها الحلاب ، .
 كالبرق مقروثٌ بحسن جواب .
 بمزوجة رشقاتها بشراب .
 للضحك خاطئة وذات صواب ؛
 تمثري مدامعنا وبين عذاب .
 فيها ، ونسلكها طريق عتاب .
 سجع الغمام ثقيلة الاهداب ،
 عبت المليحة دوننا بنقاب .
 خفقات مضطرم الهوى وثاب .
 للعاشقين مهياً الأسباب .
 لما تحطمت المنى في آب .^٦

واصف تلك الليلة بدقة^٣ ثم اختتم القصيدة بـ :

« يا ليت من فجعت فؤادي بالمني لم تبق لي ذكرى تطيل عذابي ، .
 على ان هذه الفتاة التي اوحث الي ابراهيم فنون الغزل لم تسد على قلبه سبل الهوى ،
 فلقد احب ابراهيم بضع مرات بعد ذلك .

حينما كان ابراهيم استاذاً في الجامعة الاميركية في بيروت^٤ كان يتردد على قهوة النجار ،
 في الجانب الغربي من ساحة البرج ، ليحضر ليالي راقصة اسبانية من اشيلية تدعو نفسها
 مرغريتا^٥ . وشغف ابراهيم بمرغريتا الحسنة وبمرغريتا الراقصة معاً فأوحث اليه ألواناً

(١) تمثري ادمعنا : نساها . العذاب بكسر العين جمع عذب : حلو .

(٢) مضطرم الهوى وثاب : القلب .

(٣) وصف الليلة يجب ان يكون الأبيات السابقة .

(٤) في العام بين المدرسين ١٩٣٠ - ١٩٣٢ .

(٥) القدس ١٣ تموز ١٩٣٢ : نابلس ١ تشرين الاول ١٩٣٢ .

جديدة من الغزل ، واوحى اليه رقصها مشاهد نظمها شعراً جميلاً جديداً .
ولكن يبدو ان هذا الشعر الجديد لم يثر في نفس ابراهيم الا بعد ان ترك ابراهيم
بيروت وانقطعت صلته بمرغريتا هذه . كتب الي من القدس ^١ يقول : طيه قصيدة لا بأس
بها بعنوان « حسرة وأمل » ^٢ اقرأها واعطني رأيك فيها . هذه القصيدة موشح جميل
صديق عذب :

أفدي بروحي غيدَ إشبيلية^١ وإن أذقنَ القلبَ صابَ العذاب

عَلِقْتُ مِنْهُنَّ بِتِرْبِ النَّهَارِ^٢ وَجَهَا ، وَصَوَّرَ اللَّيْلَ فِرْعَاوَيْنَ^٣ .
فِي مَثَلِهَا بِمَجْلَعِ مَثَلِي الْعِذَارِ^٤ وَلَا يَبَالِي كَيْفَ أَمْسَى وَأَبْنِ .
أَشْرَبُ مِنْ فِيهَا وَكَأْسَ الْعُقَارِ^٥ مَعَا ، فَكَيْفَ الصَّحْوُ مِنْ سَكْرَتَيْنِ ؟
لَهْفِي عَلَيْهَا يَوْمَ شَطِّ الْمَزَارِ^٦ وَسَاقَهَا الْبَيْنُ إِلَى النَّيْرَيْنِ^٧ .

*

وَدَعْنَهَا وَمَهْجَتِي مُشْفِيَةً^١ لَمْ يَشْفِي رِشْفُ الثَّنَائِيَا الْعِذَابَ^٢ .
وَوَدَّعْتُ بِالنِّظْرَةِ الْمُتَغْرِبَةِ^٣ تَضْحَبُ لَبِّي مَعَهَا فِي الرَّكَّابِ^٤ .

يَا أَعْصَرَ الْإِنْدَلِسِ الْحَالِيَاتُ^١ قَدْ فَازَ مِنْ عَاشَ بِتِلْكَ الرَّبُوعِ^٢ .
أَهْكَذَا كَانَتْ هُنَاكَ الْحَيَاةُ^٣ مَتْرُفَةً الْأَيَّامِ مِلءَ الضُّلُوعِ ؟
أَهْكَذَا الْفَتْنَةُ فِي الْغَانِيَاتِ^٤ وَنَشْوَةُ الْوَصْلِ وَحَرُّ الْوُلُوعِ ؟

(١) القدس ١٣ تموز ١٩٣٢ .

(٢) لما اعد ابراهيم ديوانه جعل عنوان هذه القصيدة « عادة اشبيلية » . هذه القصيدة نظمها ابراهيم في
نابلس والقدس وانتهى من نظمها في ١٢ تموز ١٩٣٢ ، راجع الدقة ١٩٣٢ الاول ، ص ١-٣ وارسلها
الي في اليوم التالي ، ١٣ تموز ١٩٣٢ .

(٣) الفرع : الشعر .

(٤) النيرين - النير اسم قريتين قرب دمشق : احدهما قرب دمشق والاخرى قرب حلب . يلح من
البيت ان الرافضة سافرت بعد مكثها في بيروت الى دمشق .

(٥) مشفية : قريية من الهلاك .

لئن مضى عهدٌ ذويناً وفات ١ ولم يعد من أملٍ في الرجوع ،

*

فدُميتي بعهدهم موفيةً أرُدُّ ماضيهم ببذل الشباب
أنا « ابن زيدون »^٢ ، وتصبر ليه « ولادة » ، في دها والاهاب .

أولُ عهدي بفنون الهوى بيروت ؛ أنعم بالهوى الأول .
وقيل : هل يرشدُ قلبٌ غوى ؟ والرشدُ غيٌّ في الصبي المُقبل^٣ .
مددتُ ، لما قلتُ قلبي أرتوى ، يدي فردته عن المنهل .
بيروت ، لو شئتُ دفعتُ النوى طوعاً ولم أهجرك ، فالويل لي !

*

في ذمة الله مني موديتي باسقة خضراءُ لدن رطاب^٤ .
لعل في أخيك ، يا سوريه ، حُسنَ عزاءٍ عن جليل المُصاب^٥ !

يلدُّ لي ، يا عينُ ، أن تسهدي وتشتري الصفو بطيب الكرى .
لي رقدة طويبة في غد لله ما أعمقها في الثرى .
ألم ترَي طير الصبي في يدي أخشى مع الغفلة ان ينفرا .
طال جناحاه ، وقد جهدي إلى أعالي دوحه مبكرا .

*

أرى الثلاثين ستعدو بيته مغيرةً أفراسها بأفتواب

(١) إشارة الى وجود العرب في الاندلس .

(٢) ابن زيدون شاعر كان مفرماً بولادة بنت الخليفة المستكفي . الاهاب : الجلد . أنا اشبه ابن زيدون

بحي وشعري . ومرغريتا تشبه ولادة بجها وجسمها .

(٣) في الصبي المقبل : في زمن الاقبال (عنفوان الشباب) .

(٤) كنت استطيع ان ابقى في بيروت ولا اتركها .

(٥) مودية : هالكة ، زائلة . لدن : طرية .

(٦) ...?

وبعد عشرٍ يلتوي 'عوديَه' وينضبُ الزيت ويجبو الشهاب^١ .

لا بد لي إن عشتُ أن أعطيَفاً على ربي الاندلس الناضرة^٢ .
وأجتلي أشباحَ عهد الصفا راقصةً فتانةً ساحره .
هنالك لا أمليك أن أذرفاً دمعي على أيامنا الغابره .
عماك ، يا دمعَ محبٍ وفي ، ترُدُّ جناتِ المُنى زاهره !

*

يومئذ أُلقي على 'عوديَه' لحن المسوى أنزجُه بالعتاب^٣ :
أفدي بروحي غيد إسبيليه وإن أذقن القلب صاب العذاب .

وكان ابراهيم قد اعطى الاستاذ الفنان مصطفى فروخ صورة صغيرة لمرغرتا وطلب منه ان يكبرها بالالوان المائية^٤. وانهى مصطفى فروخ الصورة وارسلها الى ابراهيم فاعجب بها ابراهيم فقال: « ولا زالت انامل مصطفى تخرج المبدع^٥ ». واوحت اليه الصورة ما كانت توحي اليه السنيورة^٦ ، فنظم فيها مقطوعة جميلة . ولكن نسي ان يرسلها الي في حينها فارسلها بعد مدة^٦ :

برّح بي الشوقُ ، فلما طمى فزعتُ الرسم فكبرتهُ .
وما شفى داءَ ... ولكننا قلبي شكاً البعدَ فعللته .

(١) ولد ابراهيم طوقان عام ١٩٠٥ ونظم هذه القصيدة عام ١٩٣٢ يوم كان عمره ٢٧ عاماً . وتوفي عام ١٩٤١ فيكون قد توفي بعد تسع اعوام من نظمها مما يعد اتفاقاً عجيّباً ، سواء كان ذلك حساً صحيحاً بدنو الاجل او اتفاقاً عادياً .

(٢) كان ابراهيم يريد ان يزور اسبانية وكان يجب ان تزورها معاً . وقد بدأ يتعلم اللغة الاسبانية (راجع : القدس ٢٢ ايلول ١٩٣٢ ؛ نابلس ١٠ آذار ١٩٣٣) .

(٣) القدس ١٣ تموز ١٩٣٢ ؛ ١٠ آب ١٩٣٢ ؛ ؟ آب ١٩٣٢ .

(٤) القدس ٢٢ ايلول ١٩٣٢ ؛ نابلس ١ تشرين الثاني ١٩٣٢ .

(٥) لما كلفني ابراهيم بأمر الاهتمام بارسال الصورة المكبرة قال (القدس ١٠ آب ١٩٣٢) : « لك اجر وثواب عند الله لقاء احسانك لهذا الغريب المقطوع الذي اصبح يتعامل بالخيال عن الحقيقة وتكفيه الصورة بدلاً عن (السنيورة) » .

(٦) نابلس ٢٣ اغسطس (آب) ١٩٣٣ .

ولم أجد في الرسم أخلاقها جربتها حيناً وجربته .
مُنْتَظري في مضجعي دهره : جودٌ بخيلٍ ما تعودته .
ظل ، وقد كآته ، باسماء ، ولم يمانع حين قبّلتَه .

...

عرفتُ للرسم إبداعه وعدتُ للرسم فأنكرته :
قد فاتَه دَلٌ تمتتَه منها ومُطَلٌ كم تذوّقتَه .
لو جاءني الرسامُ بالمُشتهى كُفرتُ بالله وأشركته !

ولكن بما يؤسف له ان هذه الصورة مفقودة الآن كما اخبرني الاستاذ احمد طوقان .
ومنذ اواسط عام ١٩٣٢ بدأ ابراهيم ينظم مشهد « البلبل الصريع » ، وهو مشهد
مستوحى من احدى رقصات مرغريتا ، ومن قصيدة البلبل والوردة للشاعر الانكليزي اوسكار
وايلد . هذا المشهد يمثل الشاب الساذج يدخل المدن ممتكناً صحة وثروة واملاً بالمستقبل
فيزلِق في مزالق اللهو فيخسر صحته وماله ومستقبله . فالشاب يمثلُه البلبل ، والوردة ترمز
الى بائعة اللهو والعبث ، والروض رمز للحانة او الملهى . اما مطلع هذا المشهد فهو :

قدرٌ ساقه فأواه روضاً لم يكن طار فيه قبلُ وغنى .

ومن اقسام هذا المشهد :

صارت الوردة الخليفة للبلد جبل همّاً ومأرباً يُشقيه .
حسرتاً للقرير ، اصبح كرباً ما يلاقيه من دلال وتيه .
شفّه الشهدُ فاعتراه من الحسب سقامٌ مبرّحٌ يَضنيه .
من رأها ، وقد تحامل يفو نحوها ، كيف أعرضتُ تغرية ؟
من رأى روحه تسيلُ نشيداً لاهباً لوعة الأسي تذكبه ؟
هي حواءُ ذلك الخلد . فاحذر ، لا تكونن أنت آدم فيه !
لا تهب قلبك الكريم لثياباً تحت رجله عابناً بلبقه .

(١) المنتدى ، احد اعداده ١٩٤٤ (راجع س ٨٠ ، الحاشية الاولى) ص ١٢ .

Oscar Wilde كاتب وشاعر انكليزي (١٨٦٦ - ١٩٠٠) .

ولقد نقل الاستاذ عبد الحميد ياسين هذه القصة الى اللغة العربية باسم العنديل والوردة (اقاصيص ، ص ٥ - ١٨) .

(٢) القدس ١٠ آب ١٩٣٢ . عنوان هذا المشهد في الديوان الذي اعده ابراهيم « مصرع بلبل » .

ويتتهي مشهد البلب الصريع بالمقطع التالي :

ضمها الطيرُ مطبقاً بجناحيه وهمت بشغره شفتاها .
لم يُبتّع بنشوة الحب حتى أشرعت شوكة تلطى شباها .
أوردتها قلباً ، إذارف يوماً خافقاً للهوى فذاك هواها .
كرعت في الدم البريء ، فلما عكسته وهاجة وجنتاها ،
نظر الطيرُ نظرةً أعقبتها روحه طي شهقة معناها :
وردة ، تبهر العيون .. ولكن كثرة الشم قد أذاعت شذاها .

ومن اللواتي وجدن سبيلا الى قلب ابراهيم فتاة مسلمة يسميها فوز كان يلقاها في غدوه ورواحه ثلاث مرات كل يوم ، فيما يقول . ثم إنها مرضت فلم يرها اياماً . وبعدئذ شفيت فعاد الى الالتقاء بها في طريقه . ولقد اوحى اليه هذا « اللقاء » في « الطريق » مقطوعة هي :

يا فوز ، ربي منك يا قاسيه ؛ عذبتني ظلماً ، كفى ما بيه .
أراك في اليوم ثلاثة ولا أنال إلا النظرة الجافية .
والله ، لو تدرين ما قصتي ما كنت عن حالي إذن راضيه .
بل كنت لي عوناً على غربتي ، وكنت لي راحة آسيه .
مرضت اياماً فلم تطلعي ظلمت فيها مهجتي داميه .
أسأل عنك الناس مستخبراً ولهان أدعو لك بالعافية .
حتى إذا أبلت ، يا منيتي ، خفف عني الله بلواتيه .
'بشراك ، يا قلبي ، فقد أصبحت تغدو إلى ملعبها ثانيه .
مليكة ما بين أترابها ؛ يا ليتني كنت مع الحاشيه .
يا وردة ترسل أنوارها فيضاً على الكون من الرابيه .
يا ربّة المنديل من تحتيه نبعه حسن ثرة صافيه ،
ناشدتكم الاسلام ، لا تقتلي أخاك في دينك يا قاسيه .

اما فوز هذه فيجب ان تكون من المصطافات في بحمدون لأن هذه المقطوعة نشرت

في السابع من تموز ١٩٣٥ . في ذلك الحين كان ابراهيم في بحمدون بلا ريب فقد كتب الي بتاريخ ٢٧ تموز ١٩٣٥ يقول : انا هنا اقضي اوقاناً لا بأس بها مع عبدالله مشنوق ولقيف من الاصحاب منهم الجديد وفيهم القديم . اما متى اعود الى فلسطين فالمرجع فيه الى الطبيب . ثم كتب الي رسالة بتاريخ ٦ آب ١٩٣٥ من بحمدون ايضاً وذكر لي انه ما زال يتردد على الدكتور خياط^٢ . والبيتان الثالث والرابع يدلان على انه لما نظم هذه المقطوعة كان غريباً (في غير فلسطين) وكان يتداوى .

وكذلك فتن ابراهيم بمرضة روسية يبدو انها كانت في نابلس في عيادة احد الاطباء . وكان ابراهيم يتردد على ذلك الطبيب ليصير حقنه بابر تتعلق محتوياتها بمرض القرحة في المعدة^٤ . والظاهر من المقطوعة ان هذه الممرضة الروسية هي التي كانت تتولى امر حقنه بتلك الابر . قال ابراهيم يتشوق الى تلك الممرضة ويثشا شكواه :

يا حلوة العينين يا قاسية ، مرعان ما أصبحت لي ناسية .
 أما أنا فلست أنسى يداً ناعمةً تجود بالعافية .
 لئن شفى الطبُّ ضني عارضاً فهمجتني أنتِ لها شافية .
 وذبرة الآسي ، على نفعها ، أفلُ منها نظرةً ساجية .
 تبعثها عيناك في أضلعي فيأضه بعطفها آسية .
 تلامُّ قلباً نكأت جرحه فعاد يهوى مرةً ثانية ؛
 وتطفى النار التي حرَّكت فأرجعتها زفرةً حاميه .

* * *

قبصرة الحسن ، ألا أشتكي إليك من جورك يا طاغية :

(١) جريدة فلسطين .

(٢) جعل عنوانه في هذه الرسالة : بحمدون - الخطة - لو كندة ثابت .

(٣) جورج خياط .

(٤) نابلس ٢٧ ايلول ١٩٣٥ .

(٥) الآسي ، الطبيب ، الشافي . الساجي : الساكن ، الهادي . ويقصد الشاعر هنا : العين الفاترة الغائبة

المملوءة بالدلال .

هل كان نسيانك لي هفوةً أم خبطةً أشراكها خافية ؟
سيدتي ، ذنبك مها يكنُ تغفيره أذارك الواهية .

وغزل ابراهيم عفيف ، واكثره نسيب فيه ذكر للايام الماضية وتشوق الى المحبوبة ، كما ان فيه تحليلاً بارعاً لنفسه في تلك الميادين . ولكن له ايضاً مقطوعاتٍ عليها نفحة من الصراحة والجرأة . وسأكتفي هنا بقطعتين فقط : اما الاولى ففيها وصف حسي وتحليل نفسي معاً ، وهي من شعره الاول قيلت عام ١٩٢٩ ، ويبدو انها في م.ص :

ما كنتُ أرغب ان أسمى قاسياً فأنقرَ الأحلامَ من عينها .
والشوق يدفعني الى إيقاظها ، ويدي تحاذرُ أن تُمدَّ اليها .
وكأننا شعرَ الرقادُ بنعمةٍ فأقام غيرَ مفارقٍ جفنيها .
ويلُ قلبي ، كيف لم يفتك به مرأى تقلبِها على جنبها .
وتنهدتُ بما تُكنُّ ضلوعها ؛ يا شوقُ ، وبجك لا تُرعَ نهديها !
حسي جوىً أني نظرت لشعرها ينكبُّ مرثفاً ندى خديها .
وأغارُ منه إذ اطمان به الكرى ، ويثيرني متوسداً زنديها .

...

أدنو بلهفة عاشقٍ لم يبق من صبرٍ لديّ وقد حنوت عليها ،
فيصدني أدبي وأبعدُ هيبهً ، وأودُّ لو أجتو على قدميها .
فالنفسُ بين تهربٍ مما ترى وتلهبُ ، فاحتوت في امرها ٢ .
ولعلَّ أشواقِي بلغنَ بي المدى فوَقعتُ لا أصحو على شفتيها .

اما القطعة الثانية فهي ايضاً من اول شعره ، قيلت عام ١٩٢٩ . ولكنها ابعثني المجون :

لم ألقَ بين لبالي التي سَلَفَتْ كليلةً بتُّها في ديرِ قديسٍ .
ضممتُ حسناءً لم يُخلق لها مثلُ بين الحسان ، ولا حورِ الفراديس .
ما عرشُ بلقيس في إبتان دولتها ، ولا سليمان مزفوفاً لبلقيس ،

(١) راجع ايضاً بحجة الاحد (دمشق) السنة الثالثة ، العدد ١٠٩ ، ٢ شباط ١٩٤١ .

(٢) احتوت من احتار لم ترد في اللغة ، يقصد حرت من حار يحار .

يوماً بأعظم منّا في السرير وقد دام العناقُ الى فرع النواقيس !
وهناك مقطوعة ثالثة في هذا الباب قالها يوم كان يسكن في رام الله (قرب القدس).
قال^١: « ولي جارة اسمها بهية وتسمي نفسها بهاء ، وهي بهاء حقيقة ... » ولقد كانت
بهاء هذه فلاحه في رام الله وكانت جميلة جداً ، ولم يذهب غزل ابراهيم فيها سدى .
قال ابراهيم :

بهاء يا جنةَ الحنِّ ويا كثره الصافي ،
ويا أفضلُ بين الغيِّ يد من عشرة آلاف ،
فديتُكُ حَقَّ للهمزِ ة ان توضع في الكاف^٢ .

المجون :

يبدو من مراجعة رسائل ابراهيم واشعاره انه ظل ينزه نفسه عن العبث وينزه شعره
عن المجون حتى اواسط عام ١٩٣١ . فبين دفاتر ابراهيم دفتر فيه قطع موسومة بالشرارات :
الشرارة الاولى ، الشرارة الثانية .. الخ نظمها بالاشتراك مع وجيه البارودي بين ٢٥
تشرين الاول ١٩٣٠ و ١٨ ايار ١٩٣١^٣ . هذه الشرارات في الغزل المؤنث وفي فتيات كن
في الجامعة الاميركية ومن خارج الجامعة الاميركية . غير ان في هذا الدفتر اربع قطع في
الغزل المذكور استقل بها وجيه البارودي وحده . وظل ابراهيم الى آخر حياته لم ينظم في
الغزل المذكور قط .

في اواسط عام ١٩٣٢ كانت صلات ابراهيم قد توثقت بالصديقين اللذين اشرت

(١) رام الله ، تموز ١٩٣١ .

(٢) ك - رسم الحرف هكذا ابراهيم نفسه بعد كلمة « الكاف » . اما الاشارة فواضحة « سوى صورة
حرف الكاف بالهمزة » : الهمزة مقطوعة من اول كلمة ، والكاف مقطوعة من اول كلمة اخرى .

(٤) س ٣٠-٣١ .

(٣) الشرارة الخامسة اشترك في نظمها ابراهيم طوقان ووجيه البارودي وغالب عرفات (ولد غالب عرفات
في نابلس سنة ١٩١٠ وتخرج في الجامعة الاميركية في بيروت برتبة B.B.A. بكالوريوس في الادارة التجارية
سنة ١٩٣١ . A U B Directory 1953, p 212 .)

اليهما في ترجمته^١ وكانت المياه قد عادت بينه وبين وجيه البارودي الى مجاريها فبدأ يتأثر
باتجاه هؤلاء الاصدقاء في المجون والنظم فيه .

ولم يلبث ابراهيم في اعقاب ١٩٣٢ أن سلك سبيل الهوى والكأس فذكر ذلك في
قطعة له عنوانها مغامرة^٢ :

ربَّ يومٍ كأنما كرع البحر فغطى السماء بالمعصرات^٣
يتزاحن في الفضاء المويّنا مُسبّلات الذبول منهمرات .
جمد القُرُء معشر الطير حتى بكمت في الوكون مرتكبات^٤ .
عصف الشوق يومذاك بأخ لاعبي فأزرى بثورة العاصفات .
لم يزل بي^٥ حتى تجشمت هول السير عدواً الى الحبيب المؤاتي .
اتقرى بين الضباب طريقي مستنيراً مقادح الزفرات^٦ .
أترعت لي كأس المدام وقالت : هاك ، لا ترفضتها بجياني .
قلت : منها اشربي قليلاً . فلما فرعتها^٧ بريقها قلت : هاتي .

وابراهيم لم يسم هذا الصديق الذي دلّه على طريق الهوى في هذه « المغامرة » ، ولكنه
ذكره باسمه الصريح وبكنيته في قطع اخرى ، ثم هو يذكر اساليب ذلك الصديق نثراً
ايضاً ، قال^٨ ،

« جاءني ... عصارى يوم وقال لي بلهفة : انها اجتازت من هنا قبل دقائق معدودة !

(١) ص ٤٣ .

(٢) الدفتر المخطوط ١٩٣٢ ، ص ١٣ .

(٣) المعصرات هي السحب التي امتلأت بالماء وحان لها ان تمطر . جاء في سورة التبا : « وانزلنا من المعصرات
ماء نجاباً » (٧٨ : ١٤) .

(٤) بك : خرس . الوكون : المواضع التي تمشش فيها الطيور . مرتكبات : مجتمعات بعضها على بعض
(طلباً للدف) .

(٥) الضمير في « يزل » يعود على احد صديقيه .

(٦) زفراتي الشديدة (من الشوق) كانت تقدح ناراً فتغير طريقي .

(٧) هنا : مزجتها .

(٨) الدفتر المخطوط ١٩٣٢ ص ٦ .

ولك إمشي معي بتلحقها... فتبعته...» ثم يذكر ابراهيم شعوره بعد هذه الحادثة في ثمانية ايات^١.

وفي عام ١٩٣٣ وعام ١٩٣٤ نظم ابراهيم شيئاً كثيراً من المجون مما ينطوى على صور شعرية صحيحة ولكن لا يصح اثبات شيء منها في هذه الدراسة. على ان آخر ما نظمته في المجون قصيدته المشهورة « شهر ايار ». ولا شك في انها رائعة في صورها الشعرية.

◊

ومما يدخل في غزل ابراهيم قصيدة مشهورة جداً ، ولكنها ليست لابراهيم وحده . هي قصيدة « يا تين يا توت » او حدائق الشام . هذه القصيدة نظمها ابراهيم طوقان وحافظ جميل ووجيه البارودي في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٩٢٨^٢ .
اما القصيدة تامةً فهي^٣ :

يا تينُ يا توت يا رمان يا غنبُ يا درُ يا ماس يا يا قوت يا ذهبُ .
اللهُ الله ، ما هذا الدلالُ ؟ وما هذا الصدودُ ؟ وما للقلب يضطربُ ؟
يا تين يا توت يا رمان يا غنبُ !
الشمسُ ما الشمسُ ، إن الشمسُ تنكسفُ ؛ البدرُ ما البدرُ ، إن البدرُ ينخسفُ .
والدمعُ يا تين ، إن الدمعُ يندرفُ ، يا منيةَ القلب ، هل وصلُ وأنصرفُ !
يا تين يا توت يا رمان يا غنبُ .
يا تين ، يا ليت سرحَ التين يجمعنا ؛ يا توت ، يا ليت ظل التوت مضجعنا ؛

(١) الدفتر المخطوط ١٩٣٢ ص ٨ .

(٢) الدفتر ١٩٢٦ ، الصفحة ١١ .

(٣) كتب الي الدكتور ووجيه البارودي (حاة ٧ ايلول ١٩٥٤) ان ابراهيم وحافظ جميل عادا ذات يوم من البحر ومما ينشدان المقاطع الثلاثة الاولى من هذه القصيدة فاشترك معها فأكملوا كلهم القصيدة على ما هي مشئة هنا .

... والدكتور ووجيه البارودي لا يرى هذه القصيدة بارعة جداً . قال : « وما يؤكد نظريتي هذه ان حافظ جميل ، بعد مضي سنوات ، عارضها بنفسه (وحده) فهذب وشذب و اضاف و جدد فيها فجاءت احلى واشهى وارق معنى ومبنى » .

وأنت ليتك، يا رمان، تُرضعنا؛ والكرم، يا ليت بنت الكرم تصرعنا.

يا تين يا توت يا رمان يا عنب .

يا يومَ أقبلنَ أمثال التائيل . مكاتلات بهالات الأكاليل ،

تبعث ليبي ، وليبي ذات تضليل . ليبي فديتك ما أفساك ، يا ليبي .

يا تين يا توت يا رمان يا عنب .

يا جارة القلب يا قمرية الوادي يا غادة لا عداها ريق الغادي ،

لئن ظفرت بقرب بعد إبعاد يوماً فإني من الزلفى ببعاد .

يا تين يا توت يا رمان يا عنب .

يا نفحة الآس يا ورد البساتين ، ويا شذا نرجسٍ غضٍ ونسرين ،

ويا هزاراً شدا بين الأفانين ، أراحل انت أم باقي الى حين ؟

يا تين يا توت يا رمان يا عنب .

يا كوكب الحسن يزهو في العشيات ، ويا ربيبة اتراب السماوات ،

يا مطلع الفجر وتضح الثنابات ، طوفي علينا بأكواب الحميات

يا تين يا توت يا رمان يا عنب .

يا كرت ، يا تين ، نحو التين أجنبيه وأذرف الدمع من عيني وأسقيه ؛

أسندت رأسي الى فرع أناجيه فرجع الطير نوحى في أعاليه .

يا تين يا توت يا رمان يا عنب .

هل نظرة لعبيد القلب مفتون أم نهلة من لملك العذب ترويني .

أواه ، أبكي على من ليس يبكي . يا من رأى نرجساً يبكي على تين !

يا تين يا توت يا رمان يا عنب .

حدائق الشام ، عين الله ترعاك ولا مبرت نسمة إلا برباك .

يا مرتع العرب الأتراب ، نعماك ؛ تفتو عن بهجة الدنيا ثناياك .

يا تين يا توت يا رمان يا عنب !

تجار السياسة والوطن

ان الشعراء الذين قالوا في فلسطين وفي الكفاح العربي في وجه العدوان البريطاني اليهودي كثار جداً . فليس في العالم العربي من لم يشعر بالكارثة التي هضمت العرب حيث كانوا في وطنهم المترامي الأطراف . ولا غرو « فلسطين تعد قضية قومية عامة ، ولذا نرى الأدب العربي في كل قطر يعطف عليها ويهتم بمصيرها . ولو جمعت الأقوال التي قيلت فيها منذ بدء الانتداب البريطاني إلى هذا العهد لملأت مجلدات ^١ » .

اما في فلسطين نفسها فهناك نفر وقفوا معظم شعرهم في الأكثر على هذه الناحية القومية الوطنية السياسية ، منهم ابراهيم طوقان وعبدالرحيم محمود^٢ وعبد الكريم الكرمي^٣ وبرهان الدين عبوشي^٤ وعبد المنعم الرفاعي^٥ وفدوى طوقان اخت ابراهيم^٦ . على ان

- (١) الاتجاهات الادبية ١ : ١٤٧ : راجع العوامل الفعالة ١٠٧ ، ١٠٩ : الفلطينيات .
 (٢) عبد الرحيم محمود يأتي في المرتبة الثانية بعد ابراهيم طوقان في هذا الباب من القول . ولكنه فوق جميع الذين قالوا لأنه كان من المجاهدين وقد سقط شهيداً في معركة الشجرة في ١٣ حزيران ١٩٤٨ . (راجع بعض قصائده الوطنية في مجلة الامالي : الشهيد ، موت البطل ، ذكرى الزمان ، ١ : ١٨٠٦٦٦ : ١٤٠٤١٠١٠٦٦٦) .
 (٣) راجع مجموع شعره « المشرّد » ، وهو يضم قصائد وجدانية يتزج فيها الغزل بحب الوطن والنيب بالحماسة ، ما عدا « التوب الازرق » (٩٥-٩٧) فانها غزل خالص .
 (٤) برهان الدين عبوشي من جنين ، ومن الذين جاهدوا باقوالهم واموالهم وانفسهم . نجد عدداً من قصائده الوطنية في مجلة الامالي : المرج الكتيب مرج ابن عامر - امة العرب - أنصفو البالي؟ - في ما التجمل يا زمان (الامالي ١ : ١٠٥١٠٨٨٨١٧٩٣٠٦٩٧) . ولبرهان الدين عبوشي « شيخ الاندلس » ، وهي مسرحية شعرية عن نكبة فلسطين ومعركة جنين الكبرى (بيروت ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م) .
 (٥) عبدالمنعم الرفاعي ، نجد له ثلاث مقطعات في الامالي (١٠٧٨ : ١) بعنوان : الفردوس المتهب أو ألحان فلسطين .

(٦) فدوى طوقان (ولدت في نابلس نحو عام ١٩١٤) نجد لها قصيدة في الامالي (٤٠٣ : ١) بعنوان : « الله فيك وفي بئيك » . ولها ايضاً مجموع شعر « وحدي مع الايام » فيه خمس قصائد فيها نفحة من الوطنية والحماسة : الروم المستباح - البيظفة - بعد الكارثة - مع الاحبة في العيد - رقية (ص ١٢٠-١٣٧) .

ابراهيم كان اوسعهم قولاً وانفذهم بصراً . ومع انه توفي قبل وقوع الكارثة بسبع سنوات كاملة ، فانه كان يجزم في اشعاره ، وفي رسائله إلي ، بالتائج المنتظرة من تخاذل العرب وتنازع رؤسائهم على سفاسف الأمور وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح . اما نغمته البالغة فكانت على الزعماء المنافقين كما سئرى ذلك في مواضعه . ولم يبالغ استاذنا - استاذي واستاذ ابراهيم - الأستاذ انيس المقدسي لما قال : « ولعل شعر ابراهيم طوقان أصدق مرآة لحال فلسطين السياسية والاقتصادية وهي في طور الانتداب . ونفثاته الوطنية الحارة منشورة في مختلف الصحف كالبرق وفلسطين والدفاع والمعرض والجامعة الاسلامية وسواها . . . ولولا حرج الحال لأثبتنا هنا كثيراً من نفثاته الوطنية المستمدة من شقاء فلسطين وسوء احوالها » .

بدأ الانكليز منذ بدء انتدابهم على فلسطين يرسون قواعد الوطن القومي اليهودي فارسلوا الى فلسطين مندوباً سامياً يهودياً ثم جعلوا يسنون القوانين حتى يفسحوا المجال امام اليهود بالهجرة وبشراء الاراضي وبالاتقرار ونيل الامتيازات . ثم انهم اخذوا يضطهدون العرب - والمسلمين منهم خاصة كما يحدث في جميع البلاد المستعمرة - او يهملون شأنهم فتبقى قراهم او احياء المدن التي هم فيها على ما كانت عليه ، فنشأ الجيل العربي في فلسطين جيلاً جاهلاً ضعيفاً فقيراً . بعدئذ قام الانكليز بافساد الخلق العربي فنشروا المسكرات - والويسكي على الاخص - بين الشبان وخصوصاً من اهل البيوتات الكبيرة حتى ندر ان نجد بين رجال الطبقة الاجتماعية العليا من لا يشرب الوسكي ولا يلعب البريدج ، لاهين بذلك بعض اللهو او كذبه عن الاهتمام بحال بلادهم . اما الطبقات الوسطى والدنيا فتولى امرها اليهود يسهلون لها سبل الفسق في كل مكان فيسلبونها صحتها ومالها واخلاقها . ويعود الانكليز واليهود معاً الى جميع الطبقات في فلسطين فيغرونهم بالاموال لبيع اراضيهم ويبدلون لهم فيها اثماناً جنونية مئين وآلافاً . فالفلاح الذي كان لا يستغل ارضه الا بوضع جنيتها في

(١) العوامل الفعالة ١٠٩ ، الاتجاهات الادبية ١ : ١٤٧ - يذكر الاستاذ المقدسي (الاتجاهات الادبية ١٤٧ : ١ ، الخاشية ٣) قوله : « وقد جمعت شقيقته شعره ونثرته في ديوان خاص » . ان ديوان ابراهيم لم ينشر بعد ، الا اذا كان الاستاذ المقدسي يعني بديوانه الذي جمته اخته فدوى ونثرته في كتابها « اخي ابراهيم » (المكتبة المصرية - يافا ١٩٤٦) .

العام باع ارضه بعشرات الالوف . ولكن هذا الاثمان لم تغد عرب فلسطين كثيراً لأن اليهود كانوا يأخذون منهم بالشمال ما يعطونهم باليمين ، كما يقول ابراهيم . كان الفلاح يبيع ارضه بعشرة آلاف جنيه مثلاً فتعلق به فتاة يهودية ولا تزال به حتى تبتز بدلالها ودهائها منه آخر جنيه منها ثم يعود هو فلا يجد فلساً من ثمن ارضه ولا يجد ارضه . ان هذه السياسة لم تكن قاصرة من جانب المستعمر على فلسطين وحدها، ولكن المستعمر طبقها تطبيقاً واسعاً مستعجلاً على فلسطين . واغرب من هذا كله ان هذه السياسة تطبق الى اليوم في اقطار مختلفة ولما يتنبه مجموع المسلمين بعد الى خطرها الداهم .

ثم ان الانكليز عادوا مرة اخرى الى المسلمين من عرب فلسطين وشغلوهم بالسياسة المحلية التافهة وقسموهم احزاباً وشيعاً يقاتل بعضها بعضاً على الاستئثار بمرکز في المجلس البلدي في القرى . أما رئاسة البلدية في القدس خاصة ثم في يافا وحيفا فكانت البلاء الاكبر . وحديث النزاع بين « دار الحسيني ودار النشاشيبي ، ثم تدخل دار الخالدي » تدخلاً فرعياً في هذا النزاع امر مشهور الأسباب مشهور المجري مشهور العواقب . ولكن محله في كتب التاريخ لا في هذه الدراسة التي يكفيننا ان نعرف فيها هذا القدر الذي قصصناه مجملًا لنفهم به شعر ابراهيم في هذا الباب .

غير اني أحب ألا يذهب الوهم بالقارىء الى أنني ألوم المسلمين في فلسطين على ضياع فلسطين . لا ، ان جميع المسلمين في جميع اقطارهم ملومون في ذلك ، ولكني « أصف هنا العمل الاستعماري الذي عمله الانكليز في فلسطين ويعمله سائر المستعمرون في بلاد الاسلام ، ولكن بصورة أهدأ وأبطأ » . وعلى كل فاننا لا نستطيع ان نفهم الشعر الوطني السياسي في ديوان ابراهيم طوقان إذا لم نفهم هذه الأحوال او إذالم نحيط بتلك العوامل . اما انا شخصياً فأرجو من بني أمتي في كل صقع خاضع للاستعمار الظاهر او الباطن ان يفتحوا أعينهم على وسائل إضعافهم بالسياسة التي كانت تتبع في فلسطين .

هذه الحال التي أبسطها شعر بها كل مخلص نافذ البصر . كتب السيد برهان الدين العبوشي - وقد عرفته تلميذاً متوقفاً حمياً وحماسة يوم كنتُ استاذاً في مدرسة النجاح الوطنية بنابلس في العام المدرسي ١٩٢٨ - ١٩٢٩ - يقول عن الانكليز وعن سياستهم في

فلسطين : « فقد خدعوا الوجوه والأعيان وطلاب الوظائف ... فجردونا من كل ما
 يميمي لنا بناء دولة عربية مستقلة وأيقظوا في العائلات في المدينة والقرية الفتنة النائمة ..
 ثم اقتحموا مضارب الخيام فأطمعوا أهلها بالذهب وأفسدوا بين العائلات الحاكمة وأغرّوا
 غيرها (لما أشاروا إليها ان) تنهياً للحكم فأصبحت الرؤوس أطوع لهم من بنانهم . وكانوا
 قبل ذا قد ابتدعوا وعد بلفور فترعرع على أكفهم بينما العرب مشغولون بالشقاق العائلي
 والتنافس على العرش الذي يصنعه العدو » .

لم يحتج الانكليز واليهود الى أكثر من بضع سنوات حتى تمت لهم الخطوة التي ارادوها
 وتشقق العرب في فلسطين ودخل عليهم الوهن واصبح اليأس اغلب عليهم من الرجاء . لقد
 خسر العرب معركة فلسطين الاولى عام ١٩٢٨ قبل عشرين عاماً من دخول الجيوش العربية
 اليها لتخرج منها هي واهل فلسطين الى حين .

في الحفلة الختامية لكلية النجاح الوطنية في نابلس (أيار ١٩٢٨) القى ابراهيم طوقان
 قصيدة عرض فيها لضرورة التفاؤل ثم استنهض الهمم وحمل على محترفي الوطنية والدجالين
 حملة شديدة . وها أنا 'مثيت' المقطعين الاولين من هذه القصيدة :

كفكيف دموعك ليس ين فعك البكاء ولا العويل .
 وأنقض ولا نشك الزما ن ، فما شك إلا الكسول ٢ .
 وأسلك همتك السبي ل ، ولا تقل : كيف السبيل ؟
 ما ضلّ ذو أمل سعى يوماً وهمته الدليل ؛
 كلا ، ولا خاب امرؤ يوماً ومقصده نبيل .

أفنت ، يا مسكين ، عم رك بالتأوه والحزن .
 وقعدت مكتوف البدي بن تقول : حاربي الزمن .

(١) شبح الاندلس ٩ .

(٢) يقصد الكسلان ، لأن « كسول » صفة للفتاة المنمة التي لا تبرح مكانها كثيراً . و « كسول » عند
 العرب صفة مدح .

ما لم تقمُ بالعيب، أنت فمن يقوم به إذن ؟

كم قلت : « أمراض البلاد » ! وأنت من أمراضها ؛
والشؤمُ علَّتْها ، فهل فقتت عن أعراضها ؟
يا من حملت الفأسَ تدمها على أنقاضها .
أقعدتُ فما أنت الذي يسعى الى إنقاذها .
وأنظرُ بعينيك الذنبا بَ تعبُ في أحواضها .

وطنٌ يُباعُ ويُشترى وتصبح : « فليحى الوطن ! »
لو كنت تبغي خيرةً لبذلت من دمك الثمن .
واقبنت تضمدُ جرحه لو كنت من أهل الفطن .

إن هذا العتاب الرقيق وهذا الأمل الغض في شعر ابراهيم سرعان ما تحولاً نقمة
مُحزنة على سماسة الأراضي الذين يبيعون البلاد من غير ان يفكروا في مصير « احفادهم » ،
فنظم في النصف الأول من عام ١٩٢٩ قبل الثورة (آب ١٩٢٩) ' مقطوعة صريحة جداً
تنضح بالتشاؤم :

باعوا البلاد الى أعدائهم طمعاً
قد يُعذرون لو أن الجوع أرغهم .
وإنه ما عطيوا يوماً ولا جاوعوا .
وبلغة العار عند الجوع تليظها
نفس لها عن قبول العار رداع .
لكنهم ، وعذاب الله يحقهم ،
للبطن والفرج دون الخير نزاع .
تلك البلاد إذا قلت اسمها « وطن »
لا يفهمون ؛ ودون الفهم أطماع .
أعداؤنا - منذ أن كانوا - صبارفة ؛
ونحن - منذ بطننا الأرض - زراع .
لم تعكسوا آية الخلاق ، بل رجعت
الى اليهود بكم قربي وأطباع .

(١) نابلس ١١ ايلول ١٩٢٩ .

(٢) هذا البيت غير موجود في الديوان الذي يمدّه احمد طوقان للطبع .

يا بائع الأرض لم تحفل بعاقبة ولا تذكرت^١ أن الحُصم خدّاع .
 لقد جنبت على الأحفاد ، والمهفي ، ومم عيبد وخذّام وأتباع .
 وغرّك الذهب الدّماع تحرزه ، إن السراب - كما تدر به - لمتاع .
 فكثرت بموتك في أرض نشأت بها وأنرك لقبوك أرضاً طولها باع .

في عام ١٩٣٢ كانت مساحة الأراضي التي انتقلت إلى اليهود بطرق مختلفة قد أصبحت واسعة جداً أرعبت اهل فلسطين. فتنادي نفر منهم إلى وجوب إيجاد وسيلة لانقاذ الأرض من التسرب إلى اليهود، ورأوا ان افضل السبل إلى ذلك ان يؤسس صندوق عام تشتري من الأموال المجموعة فيه تلك الأراضي التي يحاول أهلها ان يبيعوها الى اليهود اضطراراً من فقر او حاجة او طمعاً بمال كثير يدفعه اليهود. وقد أنشئ يومذاك صندوق الامة. ثم اصدرت جريدة فلسطين عدداً ممتازاً لتلك المناسبة نشرت فيه رسوم القائمين على هذا الصندوق وهم الحاج امين الحسيني وموسى كاظم باشا الحسيني مع اعضاء اللجان في المدن الفلسطينية المختلفة، وكان عدد اعضاء هذه اللجان ثمانية وعشرين. ولم يؤمن ابراهيم بمشروع «صندوق الامة» لاسباب منها - كما يقول في رسالة له إلى^٢ - ان ثمانية من هؤلاء جميعهم كانوا سماسرة على الاراضي لليهود. ومنها ايضاً ان اللجان لم تستطع ان تجمع - على الرغم من الخطب والقصائد والناشيد الحماسية - إلا اقل من الف جنيه. يقول ابراهيم في هذه الرسالة:

و « (تيّست) فليت دعوة جريدة فلسطين للمعاوضة بقصيدة . واقسم بالله والرسول والملائكة اجمعين إنني لو علمت ان النتيجة ستكون برهاناً على موت اهل فلسطين ما حركت قلبي . ولكن هكذا كان ، ونظمت القصيدة^٣ وذيلتها بامضاء (ابو جعفر) .
 واليك هي :

حبذا لو يصوم منا زعيمٌ مثل «غندي» عسى يفيد صيامه .

(١) في الديوان الذي يمداه احمد طوقان للطبع « تملت » .

(٢) القدس ٢٢ ايلول ١٩٣٢ .

(٣) نظمت هذه القصيدة في ١٤ ايلول ١٩٣٢ (المتمر ١٩٣٢ الاول ، ص ١٣) .

لا يصم عن طعامه ... في فلس
ليصم عن مبيعه الارض يحفظ
بارك الله في حريص على الأر
هم حماة الديار من كل سوء^٢
نهجوا منهج القوي وصفوا
إنما حجة الضعيف احتجاج
كل يوم حزب وحلم، فحدث
مُعزَم بالبلاد صب ولكن
بطل إن علا المنابر كرا

آزروا القائمين بالعمل الصا
آزروهم بالمال، فالأرض صندو
اشتروا الارض تشتريكم من الضيم
لح، إن الكريم هذا مقامه .
ق « حفيظ المالك بل قوامه .
وآت مسودة آياته .

واشدت نقمة ابراهيم على باعة الارض وعلى الزعماء الذين كانوا « دالين ». ثم زاد
قنوطه من صلاح حال العرب في فلسطين وازداد تشاؤمه من الايام المقبلة وقرب جلاء
العرب عن بلادهم فذكر ذلك في قصائد ومقطعات مختلفة نظمها كلها في عام ١٩٣٥ :

لا تلمي إن لم أجد من وميض لرجاء ما بين هذا السواد .
- أجلاء عن البلاد تريدون ° فنجلو أم محقنا والازالة ؟
- بني وطني ، هل يقظة بعد رقدة ، وهل من شعاع بين تلك الغياهب ؟

(٥) الملاحظات التالية (١-٤) لابراهيم نفسه:

- (١) وفي سوريا ولبنان .
- (٢) هنا التياسة (يقصد انه قال هذا عن حسنة ، ولكن هذا غير صحيح) .
- (٣) عزة دروزة واشباعه قاموا حديثاً بتشكيل حزب يسمى « حزب الاستقلال » .
- (٤) تشتريكم يجب ان تكون تشتريكم (بجزمها بحذف حرف العلة لأنها في جواب الامر) ولكنها لم تقع له الا هكذا . ثم يعلق عليها فيقول ان تشتريكم عبر جيلة ، ولكن هذا عنر فقط .
- (٥) يخاطب الانكليز .

فوالله ما أدري - وللأس هبة - أنادي «أميناً» ام أهيب «براغب» ؟
 - يا قوم ، ليس عدوكم من يلين ويرحم .
 يا قوم ، ليس أمامكم إلا الرحيل فجزموا !
 - يا حسرتا ، ماذا دهى اهل الحمى ؟ فالعيش ذل والمصير بوار !

وكان ابراهيم يشكو في ذلك كله قلة المخلصين من الذين يتصدون للزعامات وللمناصب ،
 وقد ردّد شكواه في سنوات كثار . من ذلك ما قاله عام ١٩٣٣ و ١٩٣٥ :

رحم الله مخلصاً لبلادنا ساموه الدنيا بها فأباها .
 لو أنوّه بالنبر وزن تراها لأباه وقال : أفدي تراها !
 صكت الأسن المسمع حتى لقيت من ضجيجكم ما كفاها .
 - وما حسرتي إلا على متعقّب يقوم لوجه الله بالنهضة الكبرى !

وفي العام ١٩٣٥ كان العرب قد تناسوا قضيتهم الكبرى في فلسطين واستحال كفاحهم
 النبيل ضد الانكليز واليهود نزاعاً فيما بينهم هم في سبيل الفوز برئاسة البلديات المختلفة
 وخصوصاً في القدس بين آل النشاشيبي وآل الخالدي ، وكان آل الخالدي في صفوف الحاج
 امين الحسيني . فقال ابراهيم يخاطب المتنازعين على رئاسة البلدية :

بليت قضيتكم فصارت هيكلاً يتهدم .
 ضمّرت الى بلدية فيها العدا تتحكّم .^٢

وكان في فلسطين مواسم شعبية متعددة يقيمها الناس في اماكن مختلفة . اشهرها موسم
 النبي موسى في القدس وموسم النبي روبين في يافا . هذه المواسم تعود الى ايام الحروب
 الصليبية ابتكرها صلاح الدين الايوبي حتى يكون الشعب مجتمعاً مرة بعد مرة في اماكن
 معينة بعاطفة دينية وطنية فتظل شعلة الدين والوطنية متقدة في النفوس ، كما تكون الجموع
 نفسها إرهاباً للصليبيين . ولما انقضت الحروب الصليبية زال المعنى المقصود من تلك المواسم

(١) أهاب به : دعاه . امين : الحاج امين الحسيني . راغب : راغب النشاشيبي خص الحاج امين .
 (٢) « كان الحسام بين الاحزاب العربية وقتئذ على اشدّه بسبب انتخاب البلديات في فلسطين » (تاملق

ابراهيم طوقان) .

ولكنها بقيت اعياداً رمزية . فلما احتل الانكليز فلسطين وبدأ امر اليهود يستفحل عاد لهذه
المواسم شيء من معناها الاول . وكان الانكليز عادة يتخذون لمناسبة هذه المواسم احتياطات
مختلفة غايتها في الاكثر ان يدافعوا عن اليهود لو وقع عليهم اعتداء من جانب الجموع
المحتشدة . وفي عام ١٩٣٥ - عام النزاع الشديد على الانتخابات البلدية - اتخذت الحكومة
الانكليزية احتياطات اوسع .

وكان يصحب موسم النبي موسى موكب يسير على رأسه قائد الموسم يركب جواداً
ويحمل في يده سيفاً مما اصبح مع الايام مظهرأ فارغاً . في هذا العام قال ابراهيم سبعة
ايات يعرض فيها بذلك المظهر الفارغ ويشير الى عنعنات العرب بعد ان يخاطب الحكومة
الانكليزية ويلومها على كثرة احتياطاتها التي لم يبق لها ، بعد استفحال النزاع بين العرب ،
مبرر كبير . قال ابراهيم :

علامَ احتراسك ؟ لا أعلم ! وفيمَ احتشادك ؟ لا أفهم !
وهل في فلسطين ما ترهبين سوى أنه اجتمع الموسم ؟
جوادٌ براكبه عاثرٌ ؛ ... وأين له الفارس المعلنم !
وسيفٌ بحامله ساخرٌ ؛ وأين له الكفُّ والمعصم !
وهذا بتهديده يدعي ، وذلك بتهديده يزعم ...
معاذيلُ إلا من العنعنات مشاغلُ عن كل ما يكترم .

مظاهرُ ليس بها ما يخيف ؛ ولكننا خاف من يظلم ...

وابراهيم لا يلوم الانكليز على افعالهم التي تؤول الى تأمين مصلحتهم ما داموا اقوياء ،
فالقوي لا ينحني إلا امام القوة . ولكنه يلوم العرب الذين يخدعون انفسهم حينما يظنون
ان الضعيف يستطيع ان ينال من القوى حقاً من طريق المسالمة و « السياسة » . قال في
عامي ١٩٣٣ و ١٩٣٥ :

نبئتوني عن القوي ، منى كما ن رحيماً ؟ هيهات ، من عزّ تأها .

لا يلين القوي حتى يلاقي مثلَه عزّةً وبطشاً وجاها .
- يا مَنْ تَعَلَّلَ بالسياسة ظنّها لَطَقَتْ ولانَ عَصِيْبُها الجَبَّارُ ،
ما لطفُها ؟ ما الين ذاك ! وكلّهم مُستعمرون وكله استعمار .

اما الزعماء في فلسطين ، او المتصدون فيها للزعامة على الاصح ، فقد خصهم ابراهيم من شعره بكلهم قوارص . وكان شعره ، إذا ورى ، أشد من شعره الصريح فيهم . اما موقف ابراهيم من الزعامة والزعماء فصريح في مقطوعته التي مطلعها (١٩٣٥) :

إن قلمي لبلادي لا لحزب او زعيم .

وكذلك كنا رأينا اياتاً كثراً في شعره السياسي الذي مر بنا تنال من الزعماء نيلاً

شديداً ! على ان له قطعة بارعة يسوق انتقاده فيها للزعماء في تهكم مر . قال (١٩٣٥) :

ايها « المخلصون » ، للوطنية ، انتم الحاملون عبء القضية .
انتم العاملون (من غير قول) ، بارك الله في الزنود القوية .
و (بيان) منكم يُعادِلُ جيشاً بمعدّات زحفه الحربية .
و (اجتماع) منكم يبرُدُ علينا غابر المجد من فتوح أمية .
و خلاص البلاد صار على البا ب ؛ وجاءت أعياده الوردية .
ما جحدنا (أفصالك) ؛ غير أننا لم نزل في نفوسنا أمية :
في يدَيْنا بقيه من بلاد ، فاسترجوا كيلا تطير البقية !

هؤلاء « الزعماء المخلصون » هم في الحقيقة « السماسرة » : « يدعون الحرص على

البلاد علناً » وعملهم « بيع البلاد » للمستعمر ولليهود سراً . ومع ذلك فانهم يُدعون زعماء

وحمّاة . قال ابراهيم فيهم (شباط ١٩٣٥) :

أما سماسرة البلاد فعصبة عازة على اهل البلاد بقاؤها .
إبليس أعلن صاغراً إفلاسه لما تحقّق عنده إغراؤها .

(١) في مجموعة الشعر « المترد » لاني سلمى عبدالكريم الكرمي بيت يشبه هذا البيت (من ١٠٣) :

لا تذكروا حق الضعيف فكلكم مستعمرون وكله استعمار

يَتَعَمَّنُونَ مُكْرَمِينَ كَأَنَّا لِنُعِيْبُهُمْ عَمَّ الْبِلَادِ شَفَاؤُهَا .
هَمْ أَهْلٌ يُجَدِّدَتَهَا ، وَإِنْ أَنْكَرْتَهُمْ هُمْ - وَأَنْفَكَ صَاغِرٌ - زَعَاؤُهَا ؛
وَحُمَاتُهَا ، وَهَيْمٌ يَتَمُّ خَرَابُهَا ، وَعَلَى يَدَيْهِمْ بَيْعُهَا وَشَرَاؤُهَا !

من اجل ذلك لا اظنك تعجب اذا قلت لك ان ابراهيم كان جازعاً من المصير الذي
كان ينتظر عرب فلسطين ، وان ما حدث عام ١٩٤٨ كان ابراهيم يراه بوضوح قبل خمسة
عشر عاماً وقبل عشرين عاماً . قال (١٩٣٥) :

أمامك ، أيها العربي ، يومٌ تشيبُ لهوَلِهٍ سودُ النواصي^١ .
وأنت - كما عهدتُك - لا تبالي بغير مظاهر العيبِ الرِخاص .
مصيرُك بات يلمسه الأذاني ، وسار حديثه بين الأقباسي :
فلا رَحْبُ القصورِ غداً بباقي لساكنها ولا ضيقُ الحُصاص^٢ .

والغريب ان اهل لبنان كانوا يغبطون اهل فلسطين على الاثمان المرتفعة التي
كان يدفعها اليهود في شراء الاراضي العربية وعلى الترف الذي غرق فيه الفلسطينيون بضع
سنوات . وكان ابراهيم يدرك ان هذا المال الذي كان اليهود يدفعونه ثمن الاراضي العربية
كانوا يستردونه من العرب ثمن لهو وفسق او ثمن اسباب ترف لا قيمة لها . قال ابراهيم
(نابلس ١٩٣٥)^٣ :

يقولون في بيروت : انتم بنعمة شقيقتنا مهلاً ، متى كان نعمة
وباذل هذا المال ، يعلم أنه
على أنها أوطاننا ... ما كنتوزم
ولو كان قومي أهل بأسٍ ونخوة
ولكنهم قد آثروا السهّل مركباً
تبيعونهم توباً فيعطونكم تبراً .
هلاك ألوف الناس في واحد أترى ؟
يسلّم باليسنى إلى يده اليسرى ...
وأموالهم ، حتى تساوى بها قدراً .
إذن أصبحت للطامعين بها قبوا .
تسيّره الأهواء ، واجتنبوا الوعرا .

(١) الناصبة : الشعر في مقدمة الرأس . وهو اخر ما يشيب .

(٢) الحصاص بكسر الحاء جمع خص بضم الحاء : البيت من قصب او البيت المقوف بختب .

(٣) جريدة صوت الاحرار ، بيروت ، يوم السبت ٢٠ نيسان ١٩٣٥ .

وما حسرتني إلا على 'متعقّف' يقوم 'لوجه الله!، بالنهضة الكبرى .
 ان هذا المعنى الواضح المجمل كان قد جاء عند ابراهيم في قصيده تامة تتألف من
 ثلاث مقاطع نظمها في اوائل ايار ١٩٣٣ او اواخر نيسان على الاقل . في هذه القصيدة
 يبسط الشاعر رأيه في الزعماء وفي الصحافة بسطاً وافياً .

إخواننا أهلَ الرفاء ، أهل المودّة والولاء ،
 من كلِّ قطرٍ بالعُرو به ذي أزدهارٍ وازدهاء ؛
 أحبّابنا ، لا نخذعوا عنا بظاهرة الثراء .
 ليست فلسطين الرّخيّة غير مهدي للشقاء .
 عرّضت لكم خلف الزّجاء ج تيس في حبل البهاء !
 هيبات ذلك ، إن في بينع الثرى بينع الثراء . ٢ -
 فيه الرّحيل عن الربو ع غداً الى وادي الفناء .
 فاليوم أمرح كاسياً ، وغداً سأنبذُ بالعراء .
 وأضعتُ صادقة الرّجاء ، فأين كاذبة الرّجاء ؟
 من ذا أومّ سوى بني وطني على هذا البلاء !

*

للحق سطرٌ في صحا فتنا ، وللتضليل نهرٌ ٣ .
 قلبٌ صحائفها يُطيل م عليك بهتان وهجر ٤ .
 للخاملين نباهة فيها وللأنعام ذكر ٥ .
 هذا يقال له الزعيم م كما يقال لذاك حر ٦ .
 وهناك سمارُ البلا د فإنه الشهم الأغر ٧ .
 فالمدح ، مثل القدح ، تض منة لهم خضرٌ وحر ٨ .

- (١) نابلس ١٤ ايار شهر الورد ١٩٣٣ . والقصيدة نشرت كاملة في مجلة المعرض (بيروت) عام ١٩٣٤ -
 (٢) بيع الارض خسارة للثروة الحقيقية .
 (٣) النهر هو العمود او الحقل الكامل في الجريدة يتألف عادة من نحو ثمانين سطرأ . الصحافة تكتب في
 الباطل اضعاف ما تكتب في الحق .
 (٤) البهتان . الافتراء على الابرياء . الهجر . الكلام القبيح .
 (٥) النمر ، القليل التجارب . ذكر ، شهرة .
 (٦) الحفرة والحجرة من الوان العملة الفلسطينية ، مال .

تلك الصحافة ' كيميا ، لها بجدتق الله سر .
 تدع الكرامة وهي هنز ل والمروة وهي سُخرأ .
 ابن الصحافي الصريد ح تراه يعلن ما يُسرأ !
 حُلب فلا قربي تيد ل به ولا مال يفرأ .

*

منذ أحتلال الانكاز ٢ ونحن نبحت في السياسة * .
 شأن الضير مع السيا سة كالرفيق مع النجاسة .
 مرت علينا ست عش مرة كن مجلبة التعاسة .
 فإلى متى ، يا ابن البلا د ، وأنت تؤخذ بالحماسة ؟
 وإلى متى (زعماء) قو مك يخلبونك بالكياسة ٣ ؟
 ولكم أخطنا خائناً منهم بهالات القداسة .
 ولكم أضع حقوقنا الر جل الموكئل بالجراسة .
 والله ، ليس هناك إلا كل فتاص الرئاسة ،
 تأتيه من بيع البلا د وما إليه من الحساسة ؛ .
 وإذا اتقاك فبالجرا ند ؛ والنجاسة للنجاسة .



- (١) تدع ، تجمل .
 (٢) في رسالتي وفي الدفتر ١٩٣٢ الاول ، ص ٢٠ : الانكاز . في ديوان ابراهيم : الفاصين .
 (٣) خلبه : سلبه عقله ، عشه ، خدعه . الكياسة : النظاهر بالتعقل والسلوك الحسن .
 (٤) تأتيه الرئاسة ... وما إليه : ما يشبه بيع البلاد كالحيانة والتجسس والرشوة ... الخ .
 * الايات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ تأتي (في الدفتر ١٩٣٢ الاول ، ص ٢٠) مقطوعة
 مستقلة مع تقديم ٣ على ٢ .

المجاهدون الاولون

وبينما كان عدد عظيم من المترفين والوجهاء والمتزعمين في فلسطين لا يحآون من احترام ابراهيم - ولا من احترامنا نحن - مكاناً ، كان ثمت نفر كثار من العامة يأتون ضروباً من البطولة لم يحدثنا عنها التاريخ إلا في باب الخرافات في الغرب او في باب انتشار الدعوة الاسلامية والفتوح العربية الاولى . من هذه الآثار النبيلة الجميلة خبر تلك العجوز التي جاءوا اليها يوماً بابنها مقتولاً بينما كان يحارب اليهود . فلما وصلوا به الى قرب بيتها ورآته كان اول ما سألت عن بندقيته . فقالوا لها : ان اهتمامنا بنقله شغلنا عن بندقيته . فقالت لهم : قد يكون قتل غير مجاهد ، او قد يكون قتل وهو هارب او قد يكون غفل عن سلاحه ، فانه لن يكون حينئذ ابني ولا ادخله بيتي . فوضعوا ابنها ارضاً ثم عادوا الى المكان الذي كان فيه القتال ورجعوا ببندقيته وبمن شهد امام الام بأن ابنها قتل مجاهداً ، ومقبلاً غير هارب . قالت : هو الآن ابني ، ثم ادخلته الى البيت وهي تزغرد حوله هي واخواته وجيرانها . كذلك كان يفعل العامة والقرويون بينما كان معظم وجهاء المدن يتنازعون على المناصب البلدية ثم يدوسون في سبيل الوصول اليها كرامة بلادهم ومستقبل احفادهم وابنائهم أو مستقبلهم هم انفسهم .

ومن هذا الباب ، الذي يشبه ان يكون اسطورياً ، بطولة محمد محمود مجموع : في صيف عام ١٩٢٩ قام اليهود بفتن وبمحاولة للاعتداء على الحرم الشريف في القدس غير مكثفين بالصلاة الهادئة عند السراق^١ . هذا الاستفزاز اليهودي أدى الى حدوث

(١) الجدار الغربي من الحرم الشريف .

اضطرابات في القدس والخليل ويافا وصفد قتل في اثنتائها نحو مائة وخمسين يهودياً وجرح
بضع مائة - أكثر مما سقط من اليهود في « نزهة الحرب » التي قامت بها الدول العربية
رسمياً عام ١٩٤٨ .

ورأى البريطانيون ان يحملوا الذنب كله على العرب - كعادتهم طوال مدة انتدابهم على
فلسطين - فقبضوا على عدد من الشبان العرب ثم حكموا على ثلاثة منهم بالاعدام هم عطا
الزير ومحمد جمجوم من الخليل وفؤاد حجازي من صفد. وقد رتب تنفيذ الاعدام بهؤلاء
في ثلاث ساعات متوالية من يوم ١٧ حزيران ١٩٣٠ على ان يكون اولهم فؤاد حجازي
وثانيهم عطا الزير وثالثهم محمد جمجوم . ولكن محمد جمجوم حطم قيده وزاحم رفيقه
على دوره حتى شقق ثانياً .

ولقد اوحى بطولة محمد جمجوم الى ابراهيم طوقان مشهداً رائعاً سماه « الثلاثاء
الحمراء » ، لأن شقق اولئك الابطال الثلاثة كان في يوم الثلاثاء .
من هذا المشهد مقطع في وصف يوم « الثلاثاء الحمراء » يقارنه الشاعر بايام المظالم
التي مرت في تاريخ الانسانية :

يومٌ أطلّ على العصور الخالية	ودعا : « أمرٌ على الوردى أمثاليه ؟ »
فأجابه يومٌ : « أجل ، أنا راويه	لمحاكم التفتيش تلك الباغية .
واقدم شهدتُ عجائباً	وغرائباً ،
لكنّ فيك مصائباً	ونوائباً
لم ألقَ أشباهاً لها في جورها .	فأسألُ سوايَ وكبها من مُشكرٍ ! »

وإذا بيومٍ راسفٍ بقيوده	فأجاب ، والتاريخُ بعضُ شهوده :
« أنظرُ الى بيضِ الرقيقِ وسوده	من شاءَ كانوا ملككهُ بنقوده .
بشرٍ يُباعُ ويشتري	فتحرراً
ومشى الزمانُ القهقري	فيا أرى ...

فسمعت من منع الرقيق وبيعه* نادى على الأحرار : يا من يشترى،
 اما الساعة التي شق فيها محمد جمجوم فقد انطقها الشاعر بالمقطع التالي :

أنا ساعة الرجل العتيد ، أنا ساعة البأس الشديد .
 أنا ساعة الموت المشر ، ف كل ذي فعل مجيد .
 بطلي يحطم قيده رمزاً لتحطيم القيود .
 زاجت من قبلي لأسد بيها الى شرف الخلود .
 وقد حث في نهج الشبا ب شرارة العزم الوطيد .
 هيهات نجدع بالوعو د وأن نجدر بالعهود .
 قسماً بروح محمد ، : تلقى الردى حلو الورود .
 قسماً بأمك عند مو تك وهي تمثف بالشيد .
 ما نال من خدام البلا د أجل من أجر الشهيد !

الفدائي :

نورمان بنتويش يهودي الجنس بريطاني الجنسية كان قاضياً للقضاة في فلسطين والمسؤول
 عن التشريع في فلسطين . وقد أمعن في النكايه بالعرب وكان مسؤولاً عن عدد من القوانين
 الاستبدادية الجائرة التي اضرت بالعرب . ولقد كان يهدف الى تحقيق الوطن القومي
 اليهودي من طريق اضعاف الكيان العربي . وقد حاول احد الشبان العرب ان يقتاله فتخفى
 له عند مدخل دار الحكومة ثم اطلق عليه النار فاصابه بجرح ولكن لم يقتله .

ولابراهيم في هذا الشاب الذي تعرض للمهالك في سبيل اغتيال بنتويش قصيدة أشبه
 بالموشح اسمها « الفدائي » ، قال فيها الشاعر بشارة الحوري : « أتعرف شيئاً عن الشاعرية
 المتوثة التي تجيش بها النفوس الضمأى إلى حرياتنا ، ثم اتعرف شيئاً عن البلاغة تطلقها
 الشفاه الملتهة دماً وناراً ؟ تعرف اليها اذن :

* الانكليز يدعون انهم ابطلوا تجارة الرقيق .

(١) الورد مصدر ورد برد : انجى الى النهر لشرب الماء ، الوصول .

(٢) البرق ٩ حزيران ١٩٣٠ .

(٣) كذا في الاصل : ثم اتعرف ...

- ١ -

لا تَسألُ عن سلامتِهِ ، روحُهُ فوقَ راحَتِهِ !
بَدَلتُهُ هومُهُ كَفَنًا من وِسادَتِهِ .
يرقُبُ الساعَةَ التي بَعْدَها هَوَلُ ساعَتِهِ ،
شاغِلُ فِكرٍ من يَرا هُ بِاطِراقِ هامَتِهِ .
بينَ جَنَبَتَيْهِ خافِقُ ١ يتَلَطَّى بِغايَتِهِ .
مَنْ رَأى فَحمةَ الدُّجى أَضْرَمَتَ من شِراوتِهِ ؟
حَمَلتُهُ جَهَنَّمُ طَرَفًا من رِسالَتِهِ .

*

هُوَ بِالْبابِ واقِفُ والرّدى مِنْهُ خائِفُ .
فاهدأى ، يا عواصفُ ، خَجَلًا من جِراءَتِهِ !

- ٢ -

صامتٌ لو تَكَلَّمَتِها لَفَطَتِ النارَ والدِّما .
قُلْ لمن عابَ صَمَتَهُ : خَلِيقَ الحِزْمِ أبْكَما !
وأخو الحِزْمِ لم تَزَلْ يَدُهُ تَسْبِقُ الفِما .
لا تَومِوهُ ، قد رَأى مِنْهَجَ الحِقِّ مَظَلِّما ؛
وبِلاَدًا أَحَبَّها رُكِنُها قد تَهَدَّما .
مرَّ حِينٌ ، فَكادَ يَقُ نَلُّهُ اليأسُ ، إنَّما ...

*

هُوَ بِالْبابِ واقِفُ والرّدى مِنْهُ خائِفُ .
فاهدأى ، يا عواصفُ ، خَجَلًا من جِراءَتِهِ .

ومن هذا النجر المتين الجميل الزاخر بالعاطفة والفياض بالاسى والانفة معاً قصيدته

« الشهيد » التي نظمها لمناسبة الذكرى الرابعة (١٩٢٣) لشهداء « الثلاثاء الحمراء » .

وهذه القصيدة ايضاً نوع من الموشح في مقطعين ، مطلعها :

(١) قلب .

عيسَ الخطيبُ فابتسمُ ، وطفى المولُ فاقنحمُ ..

ومن اجمل اياتها خمسة ايات في مطلع المقطع الثاني هي :

ربما غاله الردى وقو في السجن مررتن .
لم يشيع بدمعة من حبيب ولا سكن .
ربما أدرج التوا ب سليبا من الكفن .
لست تدري^٣ : بطاحها غيبته أم الفتن .
لا تقل : ابن جنبه وأسسه في غم الزمن !



(١) السكن : الزوجة .

(١) أدرج في التراب : وضع فيه ، دفن .

(٣) تدري (انت) .

أناسيد

ان رقة ابراهيم طوقان وعاطفته الجياشة المتأججة قد اوجبتا له ، منذ عهده الاول بنظم الشعر ، قدراً كبيراً من الاجادة في نظم الاناشيد الوطنية والحماسية . واول محاولة بارعة له في هذا الباب كان « نشيد عبدالكريم » نظمه في شتاء عام ١٩٢٤ ، يوم كانت مراكش الاسبانية تغلي بثورة على المستعمرين يقودها الامير عبدالكريم الخطابي . ولم تستطع اسبانية وحدها ان تغلب على ثورة الريف (المنطقة الاسبانية وهي جبلية) فاعاتها فرنسة على ذلك بعد ان امتدت الثورة الى حواشي الامبراطورية الافرنية في شمالي افريقية . ولهذا النشيد قصة يحسن سردها بين يديه :

في احد ايام الشتاء من عام ١٩٢٤ اجتمع ابراهيم طوقان وعبدالرحيم قليلات ومحمد فليفل في مقهى الكاريون او قهوة المرصد (ويسمى اليوم مقهى مسرح فاروق) ويقع هذا المقهى في غربي ساحة البرج من مدينة بيروت . كانت البلاد العربية تعصف يومذاك باخبار انتصارات العرب في شمالي افريقية على الجيوش الاسبانية والجيوش الفرنسية . وخطر لابراهيم في هذا الاجتماع الذي اشرنا اليه ان يضع نشيداً لهذه الثورة او يدون صدى هذه الحرب في نفوس العرب المتوثبة الى التحرر من النير الاجني في كل مكان ، فكان هذا النشيد الذي وضعه ابراهيم في تلك الجلسة التاريخية :

في ثنايا العجاج والتحام السيوف
بينما الجوف داج والمنايا تطوف

بتهادى نسيم نحو عبد الكريم
حاملاً أركى نحاباً المشرق

كلنا يُعجَبُ بفتى المغرب
كلنا يطربُ لانتصار الأبي
ها قرومُ العدى أصبحوا أعْبدا
سحقتهم ساحقات الفيلق

طالما استعبدوا وأذلوا الرقاب
أهـ الأيـدُ جاء وقت الحساب
فلْيذوقوا الرُءافَ ولنُعَلِّ الهُتافُ
لفى الحرب ورب البيرق

واستطاع الشاب محمد فليقل (الاستاذ محمد فليقل اليوم) ان يضع لنا قوياً يليق
بهذا النشيد العاصف في تلك الجلسة التاريخية نفسها. ولم يكن هذا النشيد باكورة اناشيد
ابراهيم طوقان، بل كان باكورة شعره الجيد كله.

علي ان قصة هذا النشيد لم تنته.
في ذلك الحين ارادت الحكومة اللبنانية ان يكون لدولة لبنان الكبير نشيد رسمي
فاعلنت عن مسابقة لوضع هذا النشيد. فتبارى في هذا المضمار بضعة نفر منهم رشيد نخلة
وبشارة الخوري وشبلي ملاط وحليم دموس. وكان «نشيد المغرب» يومذاك ملء الافواه
والاسماع فجرى المتبارون كلهم مجرى واحداً في بحر هذا النشيد فكانت المطالع كما يلي:

قال رشيد نخلة: كلنا للوطن.

وقال بشارة الخوري: يا تراب الوطن.

وقال شبلي ملاط: هلي يا بلاد.

وقال حليم دموس:

ولقد فاز النشيد الذي نظمه رشيد نخلة (عام ١٩٢٦) ، فاصبح منذ ذلك الحين
النشيد الوطني اللبناني^١ .

اما لحن النشيد الوطني اللبناني فقد وضعه وديع صبرا (ت ١٩٥١) مدير الكونسرفاتوار
(معهد الموسيقى) يومذاك ، ولكن طبعه على لحن « نشيد عبدالكريم » .

ولابراهيم طوقان نشيد آخر للمغرب نظمه عام ١٩٣٠ . واغلب الظن انه نظمه استجابة
لطلب نفر من شبان مراكش الاسبانية كانوا يومذاك يتلقون العلم في مدرسة النجاح بنابلس
(كلية النجاح الوطنية) . ومطلع هذا النشيد :

فتبة المغرب هيا للجهاد نحن أولى الناس بالاندلس
نحن أبطال فتاها ابن زياد^٢ ولها ترخص غالي الأنفس .

على ان اشهر اناشيد ابراهيم طوقان نشيد « موطني »^٣ الذي لا يزال الى اليوم ينشد
في معظم الاقطار العربية .

موطني الجلال والجمال والسناء والبهاء في ربناك
والحياة والنجاة والمناء والرجاء في هواك
هل أراك

سالماً منعتها وغانماً منكرها

هل أراك في علاك

تبلىغ السماك

موطني



(١) صدر من مجلة « المكشوف » (بيروت) عدد خاص عن رشيد نخلة (ت ١٩٣٩) ليس فيه شيء من
هذه الملابسات (العدد ٢٤١ من السنة السادسة - بيروت ١٨ آذار ١٩٤٠) .

(٢) طارق بن زياد فاتح الاندلس في ايام الوليد بن عبدالملك .

(٣) في دفتر ١٩٢٤ ، ص ٢١ : نشيد موطني ، على لحن فلنسيا (Valencia) بتصرف .

موطني الشبابُ لن يكِلَ همُّهُ أنْ تسنَقِلَ أو يبيدَ
نسنَقِي من الردى ولنْ نكونَ للعدى كالعييدَ
لا نريدُ

ذلننا المؤبداً وعيشنا المنكدنا

لا نريدُ بل نعيمدُ

مجدنا التليدُ

موطني

•

موطني الحسامُ والبراعُ لا الكلامُ والنزاعُ رمزنا
مجدنا وعهدنا وواجبُ الى الوفا جزنا
عزنا

غايةُ نَشْرَفُ ورايةُ ترفرفُ

يا هنالكُ في علاكُ

قاهرآ عداكُ

موطني

وهذا النشيد ايضاً من تلحين الاخوين محمد واحمد فليفل .

وبعد سبع سنوات حاول الاخطل الصغير (بشارة الخوري) ان يضع نشيداً جديداً للبنان فعاد الى ابراهيم طوقان يغرف من بحره ويأخذ البحر والمعنى والالفاظ والقوافي والتوشيح . وظفر الاستاذ عبد المشنوق ، وكان يكتب زاوية « نكرزات » في جريدة بيروت بأمضاء « عصي » ، فكتب القطعة اللاذعة التالية بعنوان توارد خواطر عجيب ! قال :

« ولعل اجمل ما عثر عليه من توارد في خواطر الادباء هذا الشبه العجيب بين نشيد لبنان الجديد الذي نظمه شاعر العرب الاكبر الاستاذ بشارة الخوري وهناه عليه وزير التربية وبين نشيد « موطني » لشاعر فلسطين ابراهيم طوقان .

(١) جريدة بيروت (بيروت) العدد ١١٨ ، ١٤ ، ١٥ شباط ١٩٣٧ .

قال الاخطل الصغير :

لبنان ، لبنان الخ . . .
الجمال رصعا بازاهير ربناك
والجمال توجا بمصايح هداك
واليراع والحسام في الملمات الجسام
كل آن كل آن

« اما مقطع « كل آن كل آن » ففيه توارد خواطر غريب بين الاخطل وبين الاستاذ
عمر فروخ الذي يقول في قصيدة « سفينة الحيوانات »^١ على لسان الدجاجة :

نعطي البيض للانسان كل آن كل آن

* * *

« أنا أربأ بشاعر العرب الاكبر ان يلتجىء الى امثال هذه السرقات ! واعتقد ان
القضية توارد خواطر بسيط .
اتهى كلام عبدالله المشنوق .

ان هذا كلاًه يدل على التأثير البالغ الذي تركته اناشيد ابراهيم طوقان في نفوس
الشبان وفي نفوس الابداء على السواء. ان بشارة الخوري كان صديقاً لابراهيم طوقان معجباً
به ، وقد نشر له بضع قصائد وطنية وغزلة في جريدة « البرق » وقرظها احسن تقریظ . لقد
قدم بشارة الخوري قصيدة « الفدائي » بقوله^٢ : « اتعرف شيئاً عن الشاعرية المتوثبة التي
تجيش بها النفوس الضمأى الى حرياتها ، ثم اتعرف شيئاً عن البلاغة تطلقها الشفاه الملتهبة
دماً وناراً ؟؟ تعرف اليها اذن . . .

(١) راجع « سفينة الحيوانات » مشهد تمثيلي غنائي للاطفال نظم عمر فروخ (بيروت ، مطبعة
الكشاف) ١٩٣٢ .

(٢) البرق (بيروت) ٩ حزيران ١٩٣٠ راجع ايضاً ص ١١٩ .

ومن اناشيد ابراهيم طوقان نشيد « وطني » :

وطني ، انت لي والحلم راغم . وطني ، انت كل المني .
ونظم ابراهيم هذا النشيد ليغني على لحن نشيد انكليزي من اناشيد الجامعة الاميركية^١ .
وهناك نشيد رقيق نظمه ابراهيم في وداع صديقه سعيد تقي الدين لماسافر سعيد
تقي الدين الى الفيليبين في كانون الثاني من عام ١٩٢٦ . ولقد غنى هذا النشيد احمد افندي
التنير (ت ١٩٥٢) ، وسجله على اسطوانة كانت تدار في مناسبات مختلفة لان هذا النشيد
قطعة وجدانية عامة :

لا تقل لله لبنان الأثم
لا تقل أشتاق ألحان الحضم
عش كما أهواك مكفوفاً أحم
يا فؤادي ، وأسل أيام الهوى .
هل رأيت الروض أيام الحريف
ذابل الأزهار مسلوب الحفيف
متواري الحسن في الغيم الكنيف
يا فؤادي ، أين أيام الهوى !
هل رأيت الطير في الروض يدور
هائماً يبحث عن عهد السرور
مرغماً ينساق والريح تتور
يا فؤادي ، أين أيام الهوى !
لا تسلي ، يا فؤادي ، عن هنا .
لك في الروض وفي الطير عزاء
إنما العمر نعيم وشقاء
يا فؤادي ، وهنا خل الهوى !

(1) 'Twas Friday morn' when we set sail.

راجع نابلس ١ تشرين الاول ١٩٢٩ .

الموضوعيات

جميع قصائد ابراهيم طوقان « موضوعات » حتى ما كان منها في الغزل او في السياسة والوطنية . إنما افردت الغزل في فصل ثم السياسة والوطنية في فصل لكثرة هذا النوع من القصائد وجودتها وشهرتها .

ولابراهيم سوى هذه من القصائد عشر قصائد في الرثاء ، ثم قصيدة تشبه ان تكون مديحاً ، هي التي ألقاها في استقبال شوقي يوم جاء شوقي الى فلسطين عام ١٩٢٨ . ثم هنالك قصيدة في آل عبد الهادي تعد في باب المديح الخالص . على أن له قصائد هي موضوعات مقصورة آياتها على معانيها ، فيها وصف وتحليل أربعا ملائكة الرحمة والحبشي الذيح والشاعر المعلم .

كان ابراهيم يكره القول في المديح والرثاء ويحمل على 'معانيهما' (من المعاصرين لنا) حملات شداداً .

— ١ —

على ان ابراهيم اضطر إلى ان يقول رثاءً كثيراً ومديحاً ايضاً . قال في الرثاء في اشخاص أعجب بأديهم او عظمتهم او وطنيتهم . ثم قال ايضاً في اشخاص لصلة سياسية لاهله بهم واعتذر عن قوله تصريحاً أو تلميحاً . وشعر ابراهيم في الرثاء موضوعات تنطوي على نظرات وطنية وتأملات في الحياة . وهكذا إذا كنا لا 'نعجب' بطباع نفر من الذين رثاهم فاننا 'نعجب'

(١) رام الله ، تموز ١٩٣١ .

بالشعر الذي رثاهم به . وكان ابراهيم ينحو في ذلك نحو شوقي فيتخذ الرثاء وسيلة الى الاستطراد الى موضوعات سياسية او وطنية او اجتماعية .

ولا ابراهيم في آل هاشم عدد من المراثي الجياد ، في الحسين وفيصل خاصة . ولكن يجب علينا - انصافاً لعبقريه ابراهيم - ان نقول ان ابراهيم كان يكرم في اشعاره الغاية الكبرى التي يتمثلها العرب في آل الحسين او ان اعجابه بهم كان اعجاباً باعمالهم التي كانت في سبيل العرب . اما حينما كان الواقع يصطدم بالخيال العربي فكان ابراهيم يميل عن آل الحسين الى اعتبار الواقع المرير الذي نحن فيه . كتب الي يقول ^١ :

« لا ادري ، يا عمر ، شاعرتي قاحلة ولا استطيع ان انظم شيئاً ذا بال في هذه الايام . بل قل منذ ستة اشهر لم انظم ما يستحق النشر . حاولت ان ارثي الملك حسيناً ^٢ فبدأت هكذا :

كان الوفاء فضيلة في الناس حتى تعهده ضمير سياسي ^٣ .
فعدا مريباً لا 'يصدق' عهده احدٌ على شفّة ولا قرطاس .

والبيتان طيبان جداً كما ترى . ولكن لما تقدمت في التفكير لم اجد مناصاً من مس «
الاسر الحاكمة في الشرق . وهكذا اضرب ابراهيم عن القول مرة واحدة .

اما اذا اردت ان تعرف موقف ابراهيم بين المبادئ والاشخاص فاقرأ هذا المقطع من احدي رسائله ، وسأترك بعض تعابيره على ما هي ، لأن ذلك ادل على روح ابراهيم :

« حضر الملك فيصل الى القدس . واحتفلت بمقدمه البلاد . شاطرين يا اخي ...
النكته ان المندوب السامي دعاه مع امين الحسيني وكاظم باشا على حفلة عشاء . ورفع المندوب كأسه (فيها خمر او كازوز او ماء - مش مهم - ولكن رفع الكاس) وقال نشرب نخب

(١) رام الله ، تموز ١٩٣١ .

(٢) توفي الملك حسين بن علي في فيرس ١٩٢٨ . والواضح ان ابراهيم كان يريد ان يقول شيئاً في ذكره . يتطرق الى موضوع سياسي وطني جرياً على عادته .

(٣) يشير ابراهيم بلا ريب الى السياسة الانكليزية .

(٤) القدس ٢٢ ايلول ١٩٣٢ .

الملك . فرفع الحاج امين كأسه وكذلك المسلم الجليل موسى كاظم رفع كأسه وشربوا
النخب . ونسأل اي ملك عنى المندوب . . . ونسأل عن موضع النخب في دعوة ملك
مسلم عربي .

وابراهيم يقول صراحة ^١ ان اقواله في بني هاشم شعرية اكثر منها تاريخية . ثم هي -
كما سبق لي ان قلت - تمثل المبدأ الذي حمله آل الحسين . لما توفي الملك علي نظم ابراهيم
سبع ابيات « تعزية مرفوعة الى مقام البيت الهاشمي » ^٢ ،

بني هاشم ، بين المنايا وبينكم ترات ^٣ ، وما تغفو المنايا عن الوتر ^٤ .
وفي احدي رسائله ابدي ابراهيم إعجابه البالغ بالملك عبدالله وبما يتحلى به من ذوق
ادبي ، قال ^٥ :

« منذ ايام حملت كتاب الزهرة ^٥ تحت ابطي وطلعتنا ، انا واخي احمد و ابراهيم
باشا هاشم (رئيس الوزارة) الى مقر سمو الامير عبدالله . فقابلنا بالترحاب و « لم ينس
الشاعر الذي حركه الى البكاء بقصيدة فيصل . . . » ^٦ « قدمت اليه الكتاب وحدثته عنه
ببعض الحديث وحدثته عن الكعكبان ^٧ . فأخذ يقلب صفحاته ويقف هنا وهناك يعجب
بالشعر الجاهلي وحسنه ويرجع ويقول : يا جماعة ، واين قول العباسيين من قول الجاهلية ،
انظر ، انظر « ولكن ام اوفى لا تبالي » ^٨ . يقرأ ذلك بلهجة حجازية ساحرة ويقارن بين

(١) نابلس ٩ تشرين الثاني ١٩٣٣ .

(٢) نابلس ١٩ الشهر المعلوم ١٩٣٥ - يقصد بالشر المعلوم شباط ، يدل على ذلك شيان في الرسالة
احدهما كلامه على الامطار الغزيرة في نابلس او طوفان الامطار في نابلس ؛ وثانيها انه يسألني عن بدء موعد
عطلة الربيع ويتكلم عن عيد الاضحى الذي سيقع بعد مدة . فاذا كان عيد الاضحى سنة ١٣٥٤ قد وضع في
نحو ١٥ اذار ١٩٣٥ فلا ريب في ان هذه الرسالة كتبت في شباط .

(٣) ترات جمع ترة : ظم ، تأر .

(٤) عمان ٤ شباط ١٩٣٦ .

(٥) كتاب الزهرة مجموع شعره . اخرجه المستشرق الدكتور نيكول و ابراهيم طوقان (بيروت ١٩٣٢) .

(٦) رثاء فيصل ، راجع هذه القصيدة في هذا الفصل .

(٧) الكعكبان لقب أطلقه ابراهيم على الدكتور نيكول لأن الدكتور نيكول لفظ ذات يوم كلمة فقال ، كعكبان .

(٨) الشطر زهير بن ابي سلمى : لقد باليت مظنن ام اوفى ولكن ام اوفى لا تبالي .

مظنن ، ذهاب . ام اوفى ، امرأة زهير . وكان زهير قد طلق ام اوفى ففارقته ثم ندم هو على فراقها .

هذا الشعر وبين آخر من معناه ويطلب بالثناء على زهير . . . ثم دعانا الى العشاء وتقدمنا الى المائدة فجلسنا فكان حديث المائدة اشبه من الطعام . . . وعدنا فأعدنا السهرة ومعنا فؤاد باشا الخطيب^٢ . الامير محدث خلّاب الحديث ، واضح التفكير ، قوي الججة . . .

هذه المقدمة تضعنا في الجو الذي يساعدنا على فهم قصائد ابراهيم في آل هاشم : « ادب جم وذوق ادبي ومثل اعلى متصل الحلقات توارثوا حملة أباً عن أب » ، مع غمزات يسيرة تدور حول الثقة بالانكليز فوق ما تقتضي السياسة او تبرر المصلحة او تقضي الحكمة . وهذا شيء يبالغ فيه ابراهيم فيجعله عاماً في العرب كلهم حين يقول^٣ : « العرب طول عمرهم . . . قصيرو النظر . منذ خروج امرىء القيس للاستعانة بالروم على بني اسد » .

وسأخذ ، في ما يلي ، مقطوعة في رثاء الحسين بن علي ، ملك الحجاز ، ثم القصيدة التي رثى فيها ابراهيم فيصلاً الاول (ابن الحسين بن علي) ، فاقرأهما وانت تتذكر جميع ما مر بك من الملاحظات . قال يلتمس عنراً للملك حسين ويأسى لمصيره :

رحمة الله عليه ، إنه غاله البأس وكان الأمل .
ويح قوم خذلوه بعدما أخذوا الميثاق ألا يخذلوا^٥
شيمة الغدر بمن ينصروهم ذهب ، بأبن علي ، مثلاً .

. . .

(١) النقاط الموجودة في هذه النص موجودة في الاصل .

(٢) فؤاد الخطيب شاعر ادبي عالم سياسي محدث حسن الحديث . وينحو في شعره منحنى القدماء وله ديباجة جميلة واسلوب متين .

(٣) القدس ، ؟ اب ١٩٣٢ .

(٤) لما ثار بنو اسد على أسرة امرىء القيس الكندي وقتل حجر ، والد امرىء القيس ، في المعركة اراد ان يتأمر امرؤ القيس لايه فذهب الى القسطنطينية يستجد بملك الروم على قومه العرب . وقد شعر امرؤ القيس نفسه بفداحة هذه الحياثة فقال يعبر نفسه تبريراً جاهلاً .

ولو شاء كان الغزو من ارض حير ولكنه عمداً الى الروم انفرا .

(٥) قوم ، يقصد الانكليز . اخذوا الميثاق ألا يخذلوا ، إشارة الى مفاوضات الملك حسين مع السير همفري مكماهون في اثناء الحرب العالمية الاولى للتورة على العثمانيين مقابل استقلال العرب تحت زعامة البيت الهاشمي .

آل بيت المصطفى، لم تبرحوا . تردون الموت في ظل العلي^٦ .

كادت الكأس التي في قبرس . تشبه الكأس التي في كربلاء^٧ .

اما أعظم قصائده في الرثاء فقصيدته في الملك فيصل :

كان الامير فيصل بن الحسين معقداً آمال العرب، دافع عن حقهم في الاستقلال منذ مؤتمر الصلح في باريس عام ١٩١٨ - ١٩١٩ ، وكان يطالب باستقلال جميع البلاد التي سلخت عن الامبراطورية العثمانية ولو اقتضى ان تكون تلك البلاد تحت الانتداب ، على ان يرسل المجلس الأعلى لعصبة الامم لجنة للاستفتاء يعلن العرب امامها رغباتهم . ولقد كان من نتائج ذلك ان جاءت لجنة كنج - كراين على ما هو مشهور . وكان فيصل كثير الاعتماد على الرئيس ويلسن ، رئيس الولايات المتحدة . غير ان انكلترة وفرنسة خلبتا ويلسن وفضلاً معاً : خلبت الأول لأنه كان رجلاً مثالياً نظرياً ، وخبلت الثاني لأنه كان لا يزال قليل الاختبار السياسي ، إذ لم يكن قد عانى بعد السياسة العالمية ، فكان موقفه من اجل ذلك الى جانب لويد جورج وكليمنصو شائلاً جداً . إن كل ما كان يعتمد عليه الامير فيصل كان وعداً شفوياً من اشخاص غير مسؤولين رسمياً ، لأن وعودهم هذه كانت مخالفة للمحادثات التي كانت جارية في مجلس عصبة الامم نفسه .

ورأى بعض أنصار فيصل الخداع يتجلى في عصبة الامم فاجتمعوا في دمشق في الحادي عشر من آذار ١٩٢٠ وأعلنوا سورية ملكية ونادوا بالأمير فيصل ملكاً عليها . ولكن في الخامس والعشرين من نيسان ، بعد شهر ونصف ، وقع الحلفاء فيما بينهم معاهدة سان ريمو وأعطوا الجزء الشمالي من سورية الى فرنسة . وهكذا أصبح على الملك فيصل ان يثبت اركان عرشه بمقاومة فرنسة . وبعد اربعة اشهر من المقاومة في انحاء سورية اعلن الجنرال غورو - المفوض السامي لفرنسة في الشرق وقائد جيوشها فيه - في ٢٥ تموز ١٩٢٠ : « ان حكم الملك فيصل قد انتهى وانه قد طلب منه ان يغادر البلاد مع أسرته » . فعاد الملك

(١) اشارة الى ان الامويين والعباسيين كانوا يقتلون المطالبين بالخلافة من آل علي بن ابي طالب .

(٢) قبرس هو الاسم الفصح لجزيرة قبرس . يشبه الشاعر موت الحسين بن علي (ملك الحجاز) منفياً في

قبرس يقتل الحسين بن علي (بن ابي طالب) في معركة كربلاء .

فيصل الى سويسرة^١ لييسط شكواه الى اعدائه المتظاهرين بصداقته . وعرضت انكلترة على الملك فيصل عرش العراق فتسهم العرش في آب ١٩٢١ والعراق يومذاك تحت الانتداب البريطاني . وأخذت بريطانية تضيق ذرعاً بفيصل وبعزيمته التي ارادت ان تجعل من العراق دولة قوية فجعلت تثير له المشاكل وتبعث الثورة في العراق اثر الثورة . وكان فيصل في عام ١٩٣٣ في سويسرة يستشفى فتوفي هناك ليلة الثامن من شهر ايلول . وجيء بالجثمان الكريم من اوروبه ماراً بمرقاً حيفا في فلسطين إلى العراق . وكان وصول الجثمان الى بغداد في الخامس عشر من ايلول^٢ .

في هذا العاصف العاطفي الذي هب على العرب بعد موت الملك فيصل في اوروبه - ذلك الموت الذي حرم العرب مناصلاً في سيلهم وأراح بريطانية من ملك في امبراطوريتها احب ان يرقى بامته رقياً صحيحاً - قال ابراهيم هذه الدرّة الثمينة من الشعر الوطني النابض بالحياة والقوة والعاطفة :

وقد ألقى ابراهيم هذه القصيدة في الحفلة التي اقيمت لتأبين الملك فيصل في عمان وحضرها الملك عبدالله . فلما انتهى ابراهيم من الالقاء قام اليه الملك عبدالله فقبله :

شِعْمِي اللَّيْلَ وَقَوْمِي أَسْتَقْبِلِي طَلْعَةَ الشَّمْسِ وَرَاءَ الْكَرْمَلِ^٣
 وَأَخْشَعِي، بوشك أن يغشى الحمى، يَا فِلَسْطِينَ، سَنَى مِنْ فِصْلِ^٤ .
 يَا لَهَا مِنْ دَيْمَةٍ يَرْفَعُهَا مِنْ كَيْبِ الْأَفْقِ لِعَيْنِ الْمَجْتَلِي^٥ .
 نَشَأَتْ أَمْنًا وَظِلًّا وَهُدًى كَهْدَى النِّجْمِ لِفُلْكَ مَقْبَلِ .
 مَا دَنَا حَتَّى هَمَى الدَّمْعُ، فَهَلْ «إِبِلْيَاءِ» الْغَيْثِ فَوْقَ الْجَبَلِ^٦؟

*

(1) Ca qui se passa réellement à Paris en 1918-19, Paris 1923.

(٢) تاريخ العراق السياسي الحديث ٣ : ٣٩ ، ١٢٤ .

(٣) الكرمل جبل صغير مطل على حيفا ، يمتد منه رأس داخل في البحر .

(٤) السنى : ضوء البرق .

(٥) ديمة : سحابة ممطرة . منكب الارض : ما ارتفع منها . المجتلي : المتطلع .

(٦) ابلياء = ؟

ذلك الفلك الذي يحمله ، مثلته منذ جرى لم يحمله^١ .
لو تعدى جثة البحر به خاض في لجة دمع مسبل^٢ ؛
وأنطوى العاصف والموج له فأكنسى البحر غضون الجدول^٣ .
وإذا بالفلك يجري بينها كمرور الطيف بين المقل ،
يكرّم الرافد يدري أنه يؤثر الراحة والقلب الحلي .
راقد ينعم في ضجته خلف الدنيا به في شغل .
أيقظ اللوعة فيها والأسى ، وغفا بينهما لم يحفل .
يطبق الأجان عن جفن طغى جامع الدمع ، وجفن يحفل^٤ .
مطمئن القلب ما ترعجه زفرات كالغضا المشتعل^٥ .

*

مالذي أعددت من طيب القرى ، يا فلسطين ، لضيف معجل^٦ .
لا أرى أرضاً نلاقه بها ؛ قد أضع الأرض بيع السقل .
فأسثري وجهك لا يلمح على صفحتيه الحزي فوق الحجل .

*

أكرمي ضيفك إن أحببتيه بأمانيه الكبار الحقل^٧ .
لا تقومي حوله معولة ؛ من جلال الملك الأنا تعولي !
وأسألي الباغيين^٨ - ماذا هاكم منه في أكفانه - إن تسألي .
راعهم حياً وميتاً فاتقوا همّة جبارة لم تخذل .

- (١) الفلك المركب . - الفلك لم يحمل أحداً قبل فيصل مثل فيصل .
(٢) اللجة : معظم الماء . مسبل : منهزم . - لو خرج المركب من ماء البحر الى البر لاستطاع ان يجري في بحر من الدموع .
(٣) غضون : ثنايا ، تموج .
(٤) فيصل مطبق اجفانه غافل (لأنه ميت) عن عيون كثيرة نبكي بدمع مدارر (من عظم الحزن)
وعن عيون كثيرة لا دمع فيها لأنها مجفلة (مدعورة) لعظم المصيبة .
(٥) الغضا : نوع من الشجر شديد الاشتعال شديد الحرارة .
(٦) القرى : الضيافة ، المعجل : العجلان ، المار بالمكان مروراً .
(٧) الحقل : الملوثة . - إشارة الى الاعجاب بفيصل لما كان يتله من امانى العرب .
(٨) الباغيون : الطاغون ؛ يقصد الانكليز .

ورأوا في كل قلب حوله جذوة العزم ونور الأمل .
بطل قد عاد من مبداه ظافراً ، يا مرحباً بالبطل .

*

فارس (الشقراء) يجلو بأسمها غمرة ليلتها ما تنجلي ١ ؛
صاحب التاجين في موكبه راية المجد المنيع الأطول ٣ .
من رأى (نسر الملوك) المرتجى طار من عقباته في جهنم ٤ ؟
وسواء في الأعاصير مَضَوْا أم مضوا في نفحات الشمال ٥ .
كجنود الله طارت خيلهم يوم (بدر) في سماء القسطل ٦ .

*

من رأى ناراً على عاصفة ؛ هكذا أنقض غضوباً من عل ٧ .
هبط المعقل يخشى حدثاً ، ويمين الله حرز المعقل ٨ .

(١) الشقراء اسم فرس ، وهو هنا رمز . لما اراد الحسين إعلان الثورة لم يكن فيصل في الحجاز . فإرسل إليه الحسين برقية رمزية يستدعيه بها فقال له : « أرسلوا الفرس الشقراء » إشارة الى وجوب رجوعه الى الحجاز . غمرة ليلتها ما تنجلي : مصائب تصعب ردها .

(٢) التاجان : تاج سورية وتاج العراق .

(٣) حول فيصل (النسر) جيش من مجاهدي العرب (العقبان) .

(٤) الشمال : الريح الشمالية الباردة اللينة . - هؤلاء المجاهدون ينبعون فيصل في الشدائد وفي الرخاء .

(٥) بدر غزوة شهيرة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة ٢ هـ . جنود الله هنا الملائكة . هذا هذا البيت يشير الى الآيات الكريمة في سورة آل عمران : « ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول (يا محمد) للؤمنين : أن يكفكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين؟ النع .

(٦) هذا المقطع كله يشير الى ثورة التبايرين في العراق : كان الملك فيصل قد غادر بغداد في ١٥ حزيران ١٩٣٣ قاصداً الى لندن تلبية للدعوة التي وجهها اليه ملك الانكليز جورج الخامس ، وترك ابنه «غازي» مكانه . ولكن ما كاد فيصل يترك العراق حتى أثار الانكليز التبايرين (الاشوريين) ، نصارى العراق ، ليخرجوا موقف فيصل في مفاوضاته . فثار التبايريون في الموصل بزعامة رئيسهم الديني مار شمعون . عندئذ أخذ غازي التهمة على عاتقه كاملة وقضى على ثورة التبايرين بحزم وشدة ، فأغضب ذلك الانكليز . عندها عاد فيصل الى العراق ليهدى الحال ولام ابنه «غازي» على تظاهرة هذه الشدة . وابراهيم طوقان يلتبس لغازي عذراً عند ابيه . ثم عاد فيصل مرة ثانية الى اوروبة (راجع تاريخ العراق السياسي الحديث ٣ : ١٢٤) .

(٧) رجع فيصل مسرعاً الى العراق (كالنسر الذي يقع غاضباً من كبد السماء على فريسته) .

(٨) المعقل : الحصن ، حصن المروبة (العراق) . ويمين الله حرز ذلك المعقل : الله يدفع الاذى عن العراق .

أثرت (آشور) حتى جاءها
كلُّ لؤمٍ وعقوقٍ دونه
ثورةُ الغاضبِ للحقِّ ترى
ذلك السيفُ الذي جرَّده
بالعينِ سهرتٍ عن فيصلٍ
وأنتِ العدرَ فأذاها ، فهل
خلدُ في أبنكِ غازي لم يكن
لم يطقِ شبكِ ضياءً ، سيدي ،
قد يكونُ الحزمُ في العزمِ ، وقد
غضبةٌ من رجلٍ في أمةٍ
من هفا للمثلِ الأعلى يجيدُ
أيكم ، يا آل بيتِ المصطفى ،
أمرها بين الطبى والأسل ١ .
فعلُ شمعونَ لئيمِ الموصلِ ٢ .
هذه أمُّ شعبٍ من و كسل ٣ !
فضحتُه عينُ ذاك الصيقلِ ٤ .
تحرسُ الملكَ له ما تأتلي ٥ .
تحميلُ الضيمِ ، ولما تغفل ٦ .
بغريبٍ عن قريبِ المنهلِ ٧ .
فاستمع للعذرِ قبل العذلِ ٨ .
يكتبُ التوفيقُ للمستعجلِ ؟
صيرته أمةً في رجلٍ !
في بني هاشمٍ أعلى مثل ٩ .
ما قضى مستشهداً منذ علي ١٠ !

- (١) أثرت : بطرت ، تمردت . جاءها امرها : جاءها الموت ، الهزيمة (اخضاع ثورتها) . آشور :
كتابة هنا عن التباريين نصارى العراق اتباع مار شمعون .
(٢) شمعون ، الرئيس الديني للاشوريين (التباريين) . ولما هزم شمعون واتباعه استقبالهم الافرنسيون في
سوريا ، ولبنان ولا يزال بقاياهم فيها الى الآن . يجب ان نلاحظ ان المستعجلين كانوا يسمون التباريين
« الاشوريين » نسبة الى آشور ، قدماء سكان العراق ، ليجعلوا لهم حقاً في العراق ، وليجعلوا لهم فيه وطناً
قومياً على غرار فلسطين ...
(٣) هل كانت ثورة مار شمعون هذا في سبيل احقاق حق او كانت مشاغبة قام بها جماعة متكلمون على الانكاز؟
(٤) ان السيف الذي شربه مار شمعون (الثورة التي قام بها) عرفته عين غازي وميزته فادركت انه سيف
انكازي . الصيقل ، الحداد الذي يضع السيوف .
(٥) كان غازي ثابتاً عن ابيه مدة غياب ابيه في اوروبه . « ما تأتلي » (تقسم ، تخلف مبنياً) ولا وجه لها
هنا . والصواب ما أتلي (بتشديد التاء) ، تقصر وتبطل .
(٦) ولما تغفل ، عين غازي كانت ساهرة مدركة لتبعاتها فلم يكن بالامكان ان تحمل الضيم (تسكت عن
ثورة التباريين) .
(٧) لم يكن بغريب عن قريب المنهل . المنهل ، النبع (نبع الفضائل) . ان هذا الفعل من غازي غير
مستغرب لأن غازي ابنك (قريب منك) .
(٨) هذه جلية الامر فاسمع عذره قبل ان تبادر الى لومه .
(٩) هفا : قصد ، طرب . - من يبعث عن المثل الاعلى يجده دائماً في بني هاشم .
(١٠) إشارة الى ان كبراء آل البيت من نسل الامام علي قتلوا في سبيل المطالبة بحقوقهم كما توفي فيصل في
اوروبه في اثناء مطالبته بحقوق العراق كاملة .

لا أحاشي بينكم من أحدٍ فكيمي الحرب صنواً لأعزل^١ .
 كلُّكم ينشأ - قلباً ويداً - ولساناً - في جهاد المبطّل .
 فتح الحلدُ لكم هيكله ؛ فإذا أنتم بدور الميكل .
 ضمّ جبريل جناحيه على 'سؤددٍ محضٍ ونبيلٍ أمثل .

*

وأطاف الملاء الأعلى بمن عزمه في الحقّ عزّم الرُّسل^٢ .
 فيصلُ شَيْدُ ملكاً لم يزلْ بحمى الله وغازي يعتلي .
 وبشعبٍ بذلّ الروح ؛ ومن يتشدّ الملك وطيداً يبذل .
 ليس من (حامٍ) لكيدٍ ينبري فيه أو (منتدبٍ) محبّتل^٣ .
 أضرّمو النارَ وصبّوا فوقها دمهم 'حرّاً أبيتاً يغتسلي .
 صهروا الأغلالَ وأنصاعوا إلى دأيس الأرض فقالوا أغتسلي^٤ .
 وإذا دجلةُ عذبٌ وردها ، وإذا النخلُ كريمُ المأكل ،
 وإذا بغدادُ بما أزهرت حليةُ التاريخ بعد العطل^٥ .
 ووقاها الله - والعونُ به - دُولَ العدرِ وغدَرِ الدُّول .

ورثى ابراهيم نفرأ آخرين رثاءً اعجاب او رثاءً لياقة او رثاءً فيه شيء قليل من
 الاعجاب الى جانب شيء يسير من اللياقة . و ابراهيم في مرثيه لم يخرج عن اتجاهه العام
 في انه كان يتطرق في كل مرثيه إلى موضوع وطني او اجتماعي يرفع به شعره عن مستوى
 الشعراء المدّاحين والرثائين .

(١) لا استنتي احدآ من استحقاق الشهادة : سواء منكم من مات يحمل سيفاً او من مات على فراشه لأنكم
 جميعكم طلاب حق مجاهدون .

(٢) أطاف هنا : احاط . الملاء الاعلى : الملائكة . بمن عزمه في الحق ... : فصل . عزم الرسل : اولو
 العزم من الرسل ، الرسل الذين قاسوا كثيراً في سبيل هداية قومهم ومقاومة اعدائهم .

(٣) يجب ألا يكون في تلك الدولة (العراق) حياة تعمل في الباطن على الكيد لأهل البلاد ولا انتداب
 يخدع اهلها ويصرفهم عن حقهم .

(٤) انصاع : انقتل ، دار - غسل العراق من ثورة اللؤماء .

(٥) حلية : زينة . العطل : التجرد من الحلي . المرأة العاطل : المرأة التي لا تتزين بالحلي والجواهر .

من مرثي ابراهيم مرثية قالها في جبر ضومط (١٨٥٨ - ١٩٣٠ م) . كان جبر ضومط استاذاً للغة العربية في الجامعة الاميركية وله في اللغة العربية وصرفها ونحوها وبلاغتها تأليف اشهرها الخواطر العرب في النحو والاعراب والخواطر الحسان في المعاني والبيان . غير اننا نحن لم نتعلم عليه لأنه في ايامنا في الجامعة كان قد أصبح استاذ شرف^١ ، وان كنا قد سمعناه محدثاً وخطيباً . وقد نظم ابراهيم قصيدته في رثاء جبر ضومط وألقاها في الحفلة التأيينية التي اقيمت في القدس (١٩٣٠) ومطلعها :

أحمدان ، ما يُبكيك ، يا كعبة الهدى ؟ وفيم الأسي ، يا هيكل الفضل والندى^٢ ؟

ثم تطرق ابراهيم في هذه المرثية الى امر إغلاق المدارس الرسمية في لبنان . في عام ١٩٢٩ كان اميل إده رئيساً للوزارة في لبنان فإغلق المدارس الرسمية بحجة انها تكلف الدولة مالا كثيراً . والحقيقة ان هنالك ايدياً كانت منذ ذلك الحين تريد إغلاق المدارس الرسمية لتدفع الطلاب اللبنانيين الى المدارس الاجنبية ، وخصوصاً مدارس اليسوعيين ، على ان اغلاق هذه المدارس لم يطل كثيراً فقد اعيد فتحها . وفي ذلك كله يقول ابراهيم :

ولاعلم في لبنان شيدت معاهد^٣ ؛ فلم تُبقي أيدي الجهل منهن معهدا^٤ .
وأقبح بما قد جَسَّوه اعتذارهم ، فقالوا يضيع المال في رفعها سدى .
وقد زعموها تُنفدُ المالَ كثرةً ، فهل تركوا مالا هناك قيسَفاً ؟
مصاييحُ إن هم أطفالها فإنها جبابحُ شوم كما أخلت من أهدي^٥ ؛
وما لهنقي إلا على ساعةٍ بها صدقنا العدا ؛ لا ببارك الله في العدا^٥ .
فكم من يدٍ بيضاءٍ للعربِ عندهم ! (ومن لك بالحيرة الذي يحفظُ اليدا)^٦ ؟

(1) cf. A.U.B. Directory, 1953, pp. 6,41.

(٢) أحمدان منزل جبر ضومط في جبل لبنان . هيكل الفضل والندى : الجامعة الاميركية .

(٣) شيدت هذه المعاهد في ايام الحكم العثماني .

(٤) هذه المعاهد اصبحت في ايام الانتداب الافرنسي مدارس ابتدائية ، وكانت تفضل الذين يصدقون انها

مدارس صحيحة اذا اطمأنوا اليها . الجبابح : البراع ، ذباب يرى في الليل مضيقاً .

(٥) صدقنا العدا : أخلصنا لاعدائنا .

(٦) عجز بيت الفتني .

في اواخر آذار ١٩٣٤ توفي موسى كاظم الحسيني رئيس اللجنة التنفيذية في فلسطين ، تلك اللجنة التي كانت توجه الحركة الوطنية . وقد طلب من ابراهيم ان يعد قصيدة للحفلة التأسيسية التي كانت في الرابع من ايار ١٩٣٠ . كتب الي ابراهيم يقول ' موجزاً قدر الامكان ومقتصراً على الاشياء التي يجوز ان تقال في كتاب مثل هذا :

منذ عشرة ايام كان الاحتفال الاربعيني بوفاة موسى كاظم باشا الحسيني . . قالوا : يجب ان ارثيه . نعم ، لأنه حضر جنازة عمي الحاج حافظ و (حضر) حفلة تأيينه ولأن في الرجل - على قدر الحال - موضعاً للقول . أضف الى ذلك عنعنات عائلية حزبية يجب ان احتفظ معها بشيء كثير من الموازنة . وهكذا ، وفي ضوء هذه المقدمات الشعرية اخرجت واحداً وعشرين بيتاً لم اشك بعد فراغي منها في مقدرتي الخارقة على النظم . . . قال لي جمال القاسم : « يا ابراهيم ، كأنني بك مجفلاً في قصيدتك التي رثيت بها موسى كاظم باشا تخشى ان تكيل له المديح والثناء » . وقال لي آخر : « أراك انكأت على الرجل ثم انصرفت عنه الى بحث آخر . » وقال غيرهما : « يا اخي ، ما هذا الرثاء ؟ لم تقل عنه اكثر من انه كان رجلاً عجوزاً فيه خير . . . » لا انكرك يا عمر اني سررت بهذه الشهادات وعلمت منها انني لم اعد الغرض الذي اردته في تأيين الباشا . القصيدة طيه ، فاقرأها اذا شئت .

• بدأ ابراهيم هذا المرثية بمقطع مؤلف من سبعة أبيات تناول فيها جهاد موسى كاظم باشا فقال :

وجه القضية من جهادك 'مشرق' ، وعلى جهادك من وفارك رونق .
لله قلبك في الكهولة انه ترك الشيبة في حياء تطرق .
تلك الثانوث التي وقبت بها في نصفها 'عذر' لمن لا يلحق .

ولما انصرف عن المرثية الى الكلام في فلسطين وزعمائها قال :

وطني اخاف عليك قوماً اصبحوا يتساءلون : من الزعيم الاليق ؟

(١) نابلس ١٤ مايس (ايار) ١٩٣٠ .

لا تفتحوا باب الشقاق ، فإنه بابٌ على سود العواقب 'مغلق' !
 والله لا يُرجى الخلاص وأمركم قَوْضَى وشمل العاملين بمزق .
 على ان رثاءه لعبدالمحسن الكاظمي ينضح عاطفة ويفيض شاعرية وان كان قد قلد فيه
 احدى قصائد المتنبي كما كان قد قلد قصيدة اخرى للمتنبي في رثائه لموسى كاظم باشا .
 عبدالمحسن الكاظمي اديب شاعر بغدادي اشتهر بقصائده الطوال المرتجلة وبدياجته
 البارعة واسلوبه المتين وبالروح الوطنية التي تشيع في شعره . قال ابراهيم يرثيه (١٩٣٥)
 بقصيدة مطلعها :

سلّ جنّة الشعر ما ألقى بدوّحتها حتى خلت من ظلال الحُسْن والطيب .
 وبعد ان خص الميت بشمانية ايات التفت الى العرب وفلسطين فقال واحداً وعشرين بيتاً
 من غير ان يعود الى الكلام على الكاظمي . من هذه الايات :

أبا المكارم ، قم في الحفل مرتجلاً 'مهذباً' لم 'نصقل' بتهديب .
 وأضرم النار ، إن القوم هامة' قلوبهم . ذل قلب غير مشوب .
 وأنفخ إباءك في آناهم غضباً فقد 'تحرك' أصنام المحارب .
 تمكن الذل من قومي ، فلا عجب ألاّ يبالوا بتقريع وتأنيب .
 ما أشرف العذر لو أن الوغى نثرت' أشلاءهم بين مطعون ومضروب ،
 لكن دهتهم اساليب العداة وهم ساهون لاهون عن تلك الاساليب .
 يا رائداً كلّ ارض اهلها عرب يجتازها نضو تصعيد وتصويب ،
 هل جئت منهم أناساً عيشهم رغد' أم هل نزلت بقطر غير منكوب ؟
 أم ايّ راعٍ بلا ذئبٍ يجاوره ، إن لم تجد راعياً شراً من الذئب !
 ويدخل في هذا الباب « رثاء نابلس » بعد الزلزال الذي اصابها :

في تموز من عام ١٩٢٧ حدث في مدينة نابلس زلزال شديد مما لم تألفه بلادنا في عصرنا

(١) هذه القصيدة معارضة في البحر والروي والنفس لقصيدة المتنبي :

من الجأزر في زى الاعاريب حمر الحلى والمطايا والجلابيب ؟

الحديث ، وان كانت بلادنا تقع على طريق الزلازل . وقد ذكر ابراهيم حال نابلس في احدي رسائله فقال ^١ :

« اما المدينة فقد تدمرت بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، فلا دار الا وهي مهدومة او بحاجة الي الهدم او الى اصلاح تربو (نفقاته) على نصف قيمتها . وقد كان عدد القتلى بين ١٠٠ و ١٢٥ والجرحى بين ٣٠٠ و ٤٠٠ ، منهم نحو خمسين في حالة خطر . واهل المدينة الآن في خارجها يسكنون بيوتاً خشبية او خياماً ، ومنهم من هاجر ... راقب الاحرار المصورة فسأبعث اليها قصيدة في وصف الحالة الحاضرة ونكبة الزلزال . » ولكن ابراهيم عاد فقال ^٢ : « راقب صدور البرق فاذا صدرت وكان لي فيها قصيدة عن الزلزال فارجوك ... ان تتابع لي من ذلك العدد خمس نسخ وترسلها الي » . وقد صدرت هذه القصيدة في جريدة البرق ^٣ بعنوان كارثة نابلس ، مقطعها الاول :

أدموعُ النساءِ والأطفالِ تجرحُ القلبَ أم دموع الرجالِ ؟
بلدٌ كان آمناً مطمئناً فرماهُ القضاء بالزلزال .
هزّةٌ إثرَ هزّةٍ تركتهُ طللاً دارساً من الأطلال .
مادت الأرض ثم شبت وألقت ما على ظهرها من الأثقال ؛
فتهاوت ذات اليمين ديارُ لفظت أهلها وذات الشمال ،
بعجاجٍ تُشيرُهُ ترك الدن يا ظلاماً وشمسها في الزوال ؛
فاذا الدور وهي إماماً قبورُ تحتها أهلها وإماماً خوال .
وأرقُّ النسيم لو مرّ بالقبا ثم منها لدكتهُ ، فهو بال .

وبعدئذ يمضي ابراهيم في وصف حال الناس في هذه الكارثة وصفاً جميلاً جديداً يمزج فيه المتانة بالعاطفة ويمزج الاسى بالتجلد ثم لا ينسى ان يعطف على اليهود بملاحظة عابرة ولكنها شديدة . من ذلك كله :

-
- (١) نابلس المدمرة ، تموز ١٩٢٧ .
(٢) نابلس المدمرة ٢٢ تموز ١٩٢٧ .
(٣) جريدة البرق (بيروت) ٢٦ تموز ١٩٢٧ .
(٤) العجاج : الغبار . خط الزوال في كبد السماء . يقصد : في نصف النهار .

قد رأينا في لحظةٍ وسمِعنا كيف تلهو المنونُ بالآجال .
هنا نسوةٌ جِياع بلا ما وى سَتَرْنَ الجسوم بالأسمال .
هنا نسوةٌ تماجر والغم بديلُ الأثاث فوق الرجال .
دُخَلَاةَ البلاد ، وإن فلس طين لأرضٍ كنوزها من نكال ...

— ٢ —

اما « الموضوعيات » الخالصة فقد أثرت ان اختار منها ملائكة الرحمة ، الحبشي
الذبيح ، الشاعر المعلم ، الرد على شاعر اليهود ثم مرابع الخلود . هذه القصائد ليست احسن
شعر ابراهيم - من الناحية الفنية - فحسب ، بل هي من احسن الشعر العربي المعاصر .
في اواخر عام ١٩٢٤ دخل ابراهيم مستشفى الجامعة الاميركية في بيروت للبقاء فيه
اياماً «تحت المعالجة» استشفاءً من القرحة التي في معدته . ولكن مكثه في المستشفى استمر
مدة غير قصيرة عاد بعدها الى نابلس للنقاهة والاستجمام فتأخر - من اجل ذلك - في المضمار
الدراسي عاماً مدرسياً تاماً . ولقد لفتت الممرضات عاطفة ابراهيم فقَالَ فيهن ابراهيم
قصيدة تعد بحق من روائع الشعر ، سماها ملائكة الرحمة . تبدأ هذه القصيدة بسبعة عشر
بيتاً يصف فيها الشاعر الحمام وصفاً حسياً أخذاً . ثم انه عطف على الممرضات فشبهن
بالحمائم ، بجامع اللون : لون الحمائم المحجب المألوف في الحمام ولون ثياب الممرضات .
اما الذي جعل للمقطع الثاني قيمته الفنية فهو ان ابراهيم ألقى على الوصف الحسي
للممرضات نفحة هادئة من الغزل . وليس بعجيب ان تكون هذه القصيدة الرائعة من اوائل
شعر ابراهيم اذ قالها عام ١٩٢٤ - مع انه قال بعدها قصائد كثراً اقل منها قيمة . إن
هذا شأن الشاعر الوجداني لا يجيد الا اذا قال في امور تتصل به اتصالاً مباشراً عنيماً .
وروي هذه القصيدة هو النون المفتوحة ، اما القافية فهي النون المشدودة المفتوحة المسبوقة
بحركة ' والمتلوة بهاء السكته (وهذه القصيدة قد خضعت لتتقيح يسير) وانا اثبتها كما
نقحها ابراهيم نهائياً لا كما نظمها أولاً :

(١) اتفق ان هذه الحركة تقع في قوافي هذه القصيدة على الهاء في ضمير النسوة الا في البيتين الثالث والاخير .

بيضُ الحمامِ حَسْبُهُنَّهٗ ۱ أني أرددُ سَجْعَهُنَّهٗ
 رمزُ الوداعةِ والسلا مة منذ بدء الخلق هه .
 في كلِّ روضٍ فوقَ دا نية القطوف لمن أنه ١ .
 ويمِلُنَّ والأغصانَ ما خطر التسيم بروضهنه ٢ .
 فإذا صَلاهنَّ الهَجِي ر هَبَّيْنِ نحو غدِيرهنه ٣ ؛
 يَبْسِطُنَّ بعدَ الحوْمِ مَهْ ل الوحْيِ لا تدرِي بهِنَّهٗ .
 فأذا وقعن على الغدي رُ تَوَتَّبَتِ أسرابهنَّهٗ
 صَقِيْنَّ طولَ الضفتي ن تعرَّجا بوقوفهنَّهٗ .
 كلُّ نَقَبَلُ رأسها في الماء ساعة شربهنه .
 يُطْفِئْنَ حَرَّ جُسُومهنَّ (م) بغمسهنَّ صدورهنَّهٗ .
 يقعُ الرِّشاشُ إذا انتفضنَّ لآلئاً لنجورهنهٗ .
 ويطرنَّ بعدَ الابترا د إلى العصون مُهودهنهٗ ٤ .
 نُنْبِيكَ أجنحةً نَصَفَّ قُ كيف كان سرورهنهٗ ،
 ويقرُّ عينك عبثهنَّ (م) إذا جثمنَّ بريشهنهٗ ٥ .
 وتخالهنَّ بلا رؤو س حين يقبل ليلهنهٗ :
 أخفيهنَّ تحت الجنا ح وثنَّ ملء جفونهنه .
 كم هجنتني ، ورويتُ عن هنَّ الهديل ، فديتهنهٗ !

...

المحسناتُ إلى المرید ضِ غَدَوْنِ أشباهاً لهِنَّهٗ .
 الرِّوضُ كالمُسْتَشْقِيَا ت دواؤها إيناسهنهٗ .
 ما الكهرباءُ وطيبها بأجل من نظراتهنهٗ :

(١) دانية القطوف : شجرة (مثقلة بالتمر) . أنة : الاين وهنا اللحن والتعريد .
 (٢) والأغصان : مع الاغصان .
 (٣) صلاه : اصابن بالحر .
 (٤) الابتراء : الاغتسال بالماء البارد . قطع ابراهيم همزة « ابتراء » والصواب وصلها .
 (٥) جثم الطائر : وقف ، لزم مكانه . العث : النسلي ، اللعب .

يشفي العليلَ عَنَّاوَهِن (م) وعطفُهِن ولطفُهِنه^١ .
 مرُّ الدواهِ بِفِيكَ حُلْدٌ . و من عُدُوْبَةٍ نُطَقِهِنه .
 مهلاً ، فعندي فارقٌ بين الحمام وبينهِنه :
 فلرُبَّما أَنْقَطَعَ الحما تُمُ في الدُّجى عن شدِّ وهنه .
 أما جميلُ الحسنا ت ففي النهار وفي الدُّجى^٢ .

ومن اروع قطع ابراهيم الموضوعية قطعة نظمها عام ١٩٣١ ، حينما كان استاذ في الجامعة الاميركية ، وسماها « الحبشي الذبيح » . و ابراهيم يشبه ديك الحبش (الديك الرومي) الذي تعود الاميركيون من الغربيين خاصة ، ان يزينوا به موائد اعيادهم وبين « الحبش » (الشعوب غير البيض من الامم الضعيفة) التي تُذبح مصالحها كل يوم على موائد الامم القوية .

اما الصورة الشعرية فمأخوذة من ان نفرأ من القصابين (اللحامين) في بيروت - وربما في غيرها ايضاً - يذبحون الدجاج بطريقة تسمى « التشريق » فهم « يُشَرِّقون » الديك خاصة بعض دمه في اثناء عملية الذبح ، فيسير الديك مضطرباً مسافة ما ، بينما الدم يسيل من عنقه بغزارة حتى يهد فجأة فيقع ميتاً . والضمير المستتر في « برقت » يعود على السكين :

برقت له مسنونة تتلهب^١ أمضى من القدر المتاح وأغلب^٣ .
 حزت فلاخذ الحديد مخضب^٢ بدم ، ولا نحر الذبيح مخضب .
 وجرى بصيح مصفقا حيناً فلا بصر يزوغ ولا خطى تنكب^٤ ؛
 حتى غللت بي ريبة فسألتهم : خان السلاح أم المنية تكذب ؟

(١) العناء : التعب . يقصد تعبهن في سبيل راحة المريض .

(٢) الدجنة . الظلام ، الليل .

(٣) المتاح : المدد ، المنقش ، الهاجم .

(٤) مصفقا : يصفق بجناحيه . يزوغ ، يقصد « يزيع » : يكل ، يميل ، يضطرب . تنكبت الخطى الطريق :

مالت ، جارت ، عدلت ، ابتعدت .

قالوا : حلاوة روحه رقصت به ! فأجبتهم : ما كل رقص يطرِب .

*

هيات ، دونكاه ، قضى فإذا به صَعِقُ يُشْرِقُ تارةً ويفرَّبُ ١ .
وإذا به يزورُ مُخْتَلِفَ الحُطَى وزَكِيَّةٌ مَوْتُورَةٌ تتصَبَّبُ ٢ .
يعدو فيجذبُه العيَاءُ فيرتمي ؛ ويكادُ يظْفَرُ بالحياة فتهرَّبُ .
'متدفقٌ' بدماؤه ، 'مقلَّبٌ' 'متعلقٌ' بدماؤه ، 'متوتَّبٌ' ٣ .
أعدابُه يُدعى حلاوةً روحه ؟ كمَ منطِقٍ فيه الحفيقة تُقلِّبُ !
إن الحلاوةَ في فمِ 'متنمِّظٍ' شرهاً ليشربَ الضحية تسكِبُ ؛
هي فرحةُ العيدِ التي قامت على ألمِ الحياة ؛ وكلُّ عيدٍ طيبٌ ٥ .

لم يكن ابراهيم سعيداً في حياته التعليمية ، وكان يكره التعليم كرهاً شديداً ولكنه دخل التعليم بعوامل مختلفة كان يظهر فيها انصافاً للعلم وللמידأ وللانسانية فلم يجد من ذلك عند بعض المشرفين على التعليم شيئاً : علم في كلية النجاح الوطنية في نابلس (١٩٢٩-١٩٣٠) . لأنه يريد ان يؤدي خدمة لبلده ومستقرأسه، ولكن مصالح القائمين على المشروع كانت مناقضة لمثله العليا . وعلم في الجامعة الاميركية في بيروت عامين (١٩٣٠-١٩٣٢) ، واي معهد في هذا الشرق يطمع الانسان ان يلتبس المبادئ السامية والمثل العليا الحق إلاه . ولكن ابراهيم اسيء اليه في الجامعة الاميركية اكثر مما اسيء اليه في حياته كلها . ثم علم في المدرسة الرشيدية الرسمية في القدس معتقداً ان الحكومات ، اذا ادارت المؤسسات ، تكون عادة فوق المصالح

(١) صعق : مفتحي عليه ، فاقد وعيه . يشرق تارة ويفرب : يضطرب في سيرة نية ويسرة .

(٢) ازور : مال (الى جانب واحد ، وقع على احد جنبيه) . مختلف الحطى : مضطرب ، يجرى رجليه فاحصاً في الارض . زكية : بقية من دم طاهر . مواتورة : مأخوذة ، مسفوحة ظلاً .

(٣) الذماء : بقية الروح في الجسد .

(٤) يتلفظ : يتحلب ريقه في فم تشبهاً للطعام الطيب المعروض امامه . يسكب : يصب . ما الضحبة تسكب : الدم .

(٥) في هذا البيت تورية : (أ) العيد للناس الذين يملكون هذا الديك المذبوح والذين سبأ كلونه في عيدهم ، وان كان هو قد تألم - ان كل سرور في جانب يقوم على ألم في جانب آخر . (ب) فرحة العيد لنا نحن المستعبدين بعد ان تألمنا في حياتنا وبعد ان يتألم مستعمرونا كما يتألم هذا الديك الآن .

والغايات وتكون اقرب الى الاخذ بمبدأ العدل والمثل الاعلى . ولكن امله هنا ايضاً خاب .
في هذا الدور ضاق ابراهيم ذرعاً بالتدريس - وكان في ذلك الحين يعلم في المدرسة
الرشيدية في القدس . وحاول ابراهيم جهده ان يقوم بواجبه كما يملي عليه ضميره فلم يكن
ذلك بالامكان ، لانه كان يرى ما يفعل غيره ، فقال ^١ :

قعودي طوال اليوم فوق دفاترٍ أصلحها شيء يفيض على الفيض .
ولولا شعوري بالذي هو واجب لدرت لها . . . وقلت على . . .

وساءت صحة ابراهيم فاتفق الممرض النفسي مع السداء في الجسد . ولم يبق امام
ابراهيم الا ان يترك التعليم . في هذا الطور قال ابراهيم اياتاً رائعة على ما فيها من معان
قريبة المتناول . ولقد كان الناس في ذلك الحين يرددون قصيدة لشوقي قالها عام
١٩٢٤ مطلعها ^٢ :

'قم للمعلم وفه التبجيلا' ^٣ ؛ كاد المعلم أن يكون رسولا .
فقال ابراهيم بعد ان ترك التعليم في المدرسة الرشيدية على الاغلب ^٤ :

شوقي يقول ، وما درى بمصابتنا ^٥ : (قم للمعلم وفه التبجيلا) .
أفعد - فديتك ! - لا يكون مبيحلاً من كان للنشء الصغار خليلاً ! ..
ويكاد يقلقني الأمير ^٦ بقوله : (كاد المعلم أن يكون رسولا) .
لو جرت التعليم شوقي ساعة لقضى الحياة شقاوة وخمولاً .
حسب المعلم نعمة وكآبة مرأى الدفاتر بكثرة وأصيلاً .
مائة على مائة إذا هي صلحت وجد العمى نحو العيون سبيلاً .

(١) القدس ١ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٢ .

(٢) ديوان شوقي ١ : ٢٢٤-٢٢٨ ، راجع ٢٢٧ ، الحاشية الثانية .

(٣) الاحتفاء والتعظيم .

(٤) راجع نابلس ١٠ آذار ١٩٣٣ .

(٥) في الديوان : بمصيتي .

(٦) في الديوان : هل يكون .

(٧) الامير : شوقي ، اذ كان لقبه امير الشعراء .

ولو أن في التصليح نفعاً يُرْجى ، وأبيك ، لم أك بالعيون بجيلاً ١ .
 لكن أصححُ غلطةً نَحْوِيَّةً ، مثلاً ، وأتخذ الكتاب دليلاً ٢ .
 مستهداً بالغُرِّ من آياته ، أو بالحديثِ مفصلاً تفصيلاً ٣ .
 وأجيءُ بالشعرِ القويمِ فأنتقي ما ليس ملتبساً ولا مبدولاً ٤ .
 وأكادُ أنشرُ سَيَبِيَه من البيلى وذويه من أهل القرون الأولى ٥ .
 فأرى ابنَ كلبٍ ، بعد ذلك كله ، رفعَ المضافِ إليه والمفعول ٦ .
 لاتعجبوا إن صحنتُ يوماً صيحةً ووقعتُ ما بين البنوك ٦ قتيلاً .
 يا من تريد الانتحارَ وجدته ؛ إنَّ المعلمَ لا يعيشُ طويلاً !

وفكرت الجامعة الاميركية في بيروت ان تحتفل - مثل غيرها من المؤسسات في الشرق والغرب - بمرور الف سنة هجرية على وفاة المتنبى (٣٥٤ للهجرة) فأقامت حفلة في هذه المناسبة في ٣١ ايار ١٩٣٥ ألقى فيها ابراهيم قصيدة . هذه القصيدة تنكشف عن احاطة واسعة بحياة المتنبى وادبه وتنضح بالشاعرية . إلا ان ابراهيم لم يكن راضياً عنها في النهاية . وفيما يلي الادوار النفسية التي مرت فيها تلك القصيدة . يقول ابراهيم في رسائله :
 ١ - ثم الاستاذ انيس الحوري^٥ يكلفني ان أكون احد شعراء حفلة المتنبى التي ستقيمها العروة الوثقى^٨ في ٧ نيسان ١٩٣٥ . وقد اجبت طلبه لأن هذه الحفلة على خطرها فيها مشوار^٩ لبيروت ، ومثلي لا يمكن ان يفلت منه مشوار بيروت !! (١٩ شباط ١٩٣٥) .

(١) وأبيك ، الواو للقم . أك : أكن (مجزومة) .

(٢) الكتاب : القرآن الكريم .

(٣) الغر (جمع اغر وغراء) : البيض ، الكريمة . الحديث : اقوال محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٤) الملتبس : الغامض ، المتشابه ، الذي تفهم منه معان وأوجه كثيرة . المبدول : المتبدل ، السوقي ، الذي لا قيمة ادبية كبيرة له . - لا أدري لماذا قد علق بذهنى رواية اخرى لهذا البيت ؛

وأجيءُ بالشعر القديم فأنتقي ما ليس مبتذلاً ولا منحولاً .

(٥) سيبويه ؛ من اكابر علماء النحو . ذووه ؛ آله واتباعه في علم النحو ، أي النحاة الآخرون .

(٦) البنوك (جمع بنك ؛ كلمة دخيلة عامية) : مقاعد المدرسه .

(٧) الاستاذ انيس الحوري المقدسي ، استاذ الأدب العربي في الجامعة الاميركية .

(٨) العروة الوثقى جمعية عربية أدبية خدمت الادب العربي والفكرة العربية خدمات جلى . ولكن ادارة الجامعة الاميركية عطلت اجتماعاتها .

(٩) مشوار كلمة عامية معناها ؛ مسير مسافة ، نزهة .

٢ - فكرة القصيدة ومحورها جاهزان ولا ينقصهما غير النظم . فإذا توقفت في ابراز الفكر والمحور كما ينبغي لهما ان يبرزتا جاءت القصيدة آية ، لأن الفكرة والمحور طرفان بكل ما في الطرافة من معنى ...

اسمع . قد لا يفتح علي بقصيدة المتنبّي فأتأخر عن الحضور يوماً او يومين 'ريشما أدبر نفسي . ولكني اشعر بكثير من الثقة في نزول الوحي علي . رب اشرح لي صدري ، ويسر لي امري ، واحل عقدة من لساني يفقهوا قولي ' . آمين .

٣ - ويبدو أن موعد الحفلة تأخر من السابع من نيسان الى الواحد والثلاثين من ايار . ثم ان الجرائد تناولت الحفلة وخطباءها بالتقد . قال ابراهيم :

« اما تعليقك على الحفلة ^٣ فقد انصفت في كل ما قلته ... وقاربت ان تنصفي لولا صداقتك وعطفك علي . فانهما وثبا الى المقال وجمحا بالقلم فرحمانني منك . اما مقالة توفيق عواد في النهار ^٤ فقد اطلعت عليها . ولم يزعجني ما قاله في خاصة ... وقد لاحظت انه (كمش) موضع الضعف في قصيدتي وعرف تماماً كيف كنت احاول التغلب على ذلك الضعف . لقد اكتشف المؤامرة التي دبرناها في عرفة فريد ... ° تذكرها؟! طبعاً . »

اما القصيدة فنعنوانها مراع الخلود : استعراض حياة المتنبّي وديوانه ، وهي مخمس من بحر الرجز مطلعها :

لما أنجلت من حجب الزمان مراع الخلود والمغاني
ضاقت على النفس الكيان الفاني وعالم يعص بالأشجان
ويفجع القلوب بالأمان

(١) نابلس ، ٣٠ آذار ١٩٣٥ .

(٢) سورة طه (٢٠ : ٢٥ - ٢٨) .

(٣-٤) لم يتح لي مراجعة هاتين الكلمتين . ان تعليقي انا على الحفلة يجب ان يكون قد نشر في جريدة الاحرار (بيروت) ، ولكن مقالاتي المنشورة في الجلات والصحف اكثرها غير مرتب الآن فلا يمكن الرجوع الى كل شي منها . وكذلك لا استطيع الوصول الآن الى كلمة توفيق عواد في جريدة النهار (بيروت) .

(٥) لا اذكر الآن فريداً الذي يشير اليه ابراهيم .

ومنه : طافت على الملوك والقيصرة فانتقلت تقول وهي ساخرة :
أضخمكم أسطورة أو نادره وإنما الخلود للعابقره
جبار النفوس والأذهان

وخاتمته : عودي إلى دنياك ، دنيا العرب ،
بجذوة 'نضرم' روح الأدب
وتغمر الشرق بهذا اللهب . قد يسترد الحق بعض الكتب ،
وقد يكون المجد في ديوان

أما القصيدة التي رد بها ابراهيم طوقان على شاعر اليهود فلم يتح لي الحصول عليها من
احمد طوقان^١ ولا الاطلاع عليها في جريدة العهد الجديد^٢ . من اجل ذلك سأكتفي
بإثبات ما كتبه ابراهيم إلي منها . قال^٣ :

« ترجمت جريدة فلسطين نهار امس قصيدة لشاعر يهودي يعيرنا فيها بأننا ابناء هاجر .
فبدأت بقصيدة مطلعها :

هاجر أمنا ولود رؤوم لا حسود ولا عجوز عقيم^٤ .
ومنها : يوسف باعه ابوكم يودا ؛ إن حب الدينار فيكم قديم .

وهذه الفكرة مقبسة من التوراة (سفر التكوين ، إصحاح ٣٧ ، رقم ٢٦ ،

٢٧) .^٥

(١) لعلنا لم ألح في الحصول عليها كثيراً .

(٢) لم اصل الى مجموعة جريدة العهد الجديد التي تتضمن القصيدة . يجب ان تكون هذه القصيدة قد نشرت
في احد اعداد النصف الثاني من شهر ايلول عام ١٩٢٩ .

(٣) نابلس ، ١١ ايلول ١٩٢٩ .

(٤) تزوج ابراهيم الخليل سارة فلم يرزقافي اول امرهما اولاد حتى شاخا . ثم ان سارة اهدت الى زوجها ابراهيم
جارية اسمها هاجر ولدت منه اسماعيل - جد العرب كما جاء في الاخبار . بعدئذ ولدت سارة نفسها اسحق - جد
اليهود . الرؤوم : التي تعطف على اولادها .

(٥) تكوين : ٣٧ : ٢٦ ، ٢٨ : « فقال يهوذا لاختوته : ما الفائدة ان تقتل اخانا ونخفي دمه . تعالوا
نبيعه للاسماعيلين » .

ومنها : وشكسبير خالده القول فيكم امر (شيلوخ) في الوري معلوم
غير أن الذين منهم شكسبير تناسوا ما قال ذاك العظيم .

وأراني سأجعل كل بيت من آيات هذه القصيدة مأخوذاً عن مصدر تاريخي ، بل
من التوراة نفسها ، فإنها تفيض بحبثهم منذ قال الله لموسى : اضرب بعصاك البحر الى اليوم ...»

(١) للروائي الانكليزي وليم شكسبير رواية اسمها « تاجر البندقية » The Merchant of Venice تدور على ان شيلوخ مرابح يهودي في البندقية ، جاءه يوماً رجل اسمه باسانو يريد ان يستدين منه ثلاثة آلاف شوقه لمدة ثلاثة أشهر . فطلب شيلوخ من باسانو كفيلاً على المبلغ وفأثتته لمدة ثلاثة أشهر . فكفل باسانو صديق له اسمه انطونيو كان تاجراً كبيراً في البندقية (وباسمه سميت الرواية) ولكن انطونيو لم يكن يملك في ذلك الحين شيئاً لأنه كان قد اشترى بجميع امواله بضائع وأرسلها على مراكبه الى بلاد مختلفة . وروى شيلوخ اليهودي في مقدار الفائدة التي يريدتها على ثلاثة آلاف دوقه لمدة ثلاثة اشهر فقال في نفسه ، ان انطونيو نصراني يكره قومي وأنا ابغضه وأود ان اشبع حقدتي عليه من دمه ولذلك اشترط انه اذا تأخر باسانو وانطونيو عن أداء المبلغ فحينئذ يحق له (لشيلوخ) ان يقطع ليرة لحم من موضع يختاره . من جسم انطونيو . وقبل انطونيو بذلك . ويتفق ان يعجز باسانو عن أداء المبلغ وأن تفرق سفن انطونيو ثم يبين حين دفع المبلغ فيقف الجميع امام القاضي . ولما اسر شيلوخ على ألا يقبل مالا ولا عروضاً وأن ينفذ الشرط باقتطاع ليرة من لحم انطونيو ، قال له القاضي : اختر المكان الذي ستقطع منه اللحم . فاختر شيلوخ الصدر لأنه قريب من قلب انطونيو . حينئذ اعترضت بورشيا خطيبة باسانو وقالت لشيلوخ : ان الشرط بينك وبين انطونيو أن تقطع ليرة من لحمه ولكن لا يجوز لك ان تترك نقطة من دمه تسيل ... ويمان شيلوخ عجزه عن ذلك ويريد ان يسترد رأس ماله فقط ، ثم يتنازل عن رأس ماله ايضاً فيرفض القاضي الا ان تصادر اموال شيلوخ فيعطى انطونيو نصفها ويرد نصفها الآخر الى خزانة الدولة ... والرواية تبرز الكره المتبادل في زمانها بين النصارى واليهود .

الشيء ما بي

١ - بيئة العامة

ان التعبير الجغرافي « شمالي افريقية » يطلق في التاريخ الحديث على الصقع الشمالي الغربي من قارة افريقية والذي يتألف من الوحدات السياسية الثلاث : تونس والجزائر ومراكش . فتونس هي الجناح الشرقي لهذا الصقع وقد عرقة العرب باسم « افريقية » وباسم المغرب الادنى لأنه ادنى اقسام المغرب الى المشرق . واما الجزائر فقد عرفها العرب باسم المغرب الاوسط لتوسطها بين تونس ومراكش . واما مراكش فكان اسمها المغرب الاقصى . وتبلغ مساحة تونس نحو مائة وعشرين الف كيلومتراً مربعاً تنقسم ثلاثة اقسام : قسماً شمالياً جبلياً معظمه مراعي خصبة ، ثم قسماً شرقياً ساحلياً على شيء من الخصب في شماله ، أما جنوبه فصحراوي ؛ ثم قسماً جنوبياً داخلياً يتألف من سهول عظيمة ومراعي شاسعة وواحات نخيل . وجنوب هذه الواحات من النخيل صحراء افريقية الكبرى .

في هذا القسم الجنوبي من تونس بحيرة مثلثة واسعة تدعى شط الجريد تقع على ساحلها الشمالي الغربي مدينة توزر . ولمدينة توزر هذه ضواحي تدعى احداها الشايبية ، وهي البلدة التي ولد فيها شاعرنا ابو القاسم الشابي .

وتاريخ تونس الحديث مأساة من تلك المآسي التي ما زالت تحل بالشرق وبالغرب والمسلمين منذ خروج العرب من الاندلس في مفتح العصور الحديثة .

لما كان السلطان سليم الاول العثماني يفتح البلاد في الشرق كانت الدولة الحفصية في تونس قد آلت الى الضعف ففكر العثمانيون بفتح المغرب وفرضوا عليه حمايتهم مدة من

(١) راجع خلاصة تاريخ تونس ، ص ٦ .

الزمن . واخيراً استخلص الاتراك المغرب سنة ٩٨١ هـ (١٥٧٣ م) فزال الاستعمار الاسباني عن تونس وانقرضت الدولة الحفصية .

ولم يحكم الاتراك تونس حكماً مباشراً بل كانوا ينصبون عليها ولاة عرفوا في تاريخ تونس باسم الدايات^١ وكان العمال اي الذين يتولون جمع الاموال يلقبون بالبايات . وفي سنة ١٠٤١ هـ (نحو ١٦٣٠ م) استطاع مراد باي ان يستبد بشؤون البلاد ثم كتب الى الباب العالي في الاستانة بطلب لقب باشا فاستطاع الحصول على هذا اللقب . ومنذ ذلك الحين اصبحت تونس تحت حكم البايات، ولا يزال لقب باي لقب سلطان تونس الى الآن .

وظلت تونس يتولاها باي بعد آخر حتى سنة ١١١٧ هـ (١٧٠٥ م) حينما استطاع حسين باي الاكبر بن علي ان يجعل ولاية تونس وراثية في عقبه فنشأت الدولة الحسينية التي ما زال افرادها يتعاقبون على عرش تونس الى اليوم^٢ .

كان الحكم العثماني على تونس دائماً إسمياً وخصوصاً بعد سنة ١١١٧ للهجرة حينما اصبحت الحكم وراثياً في الاسرة الحسينية . على ان تونس ظلت دائماً على ولاء العثمانيين فساعدتهم باسطولها البحري في حربهم مع الروسية سنة ١١٨٥ هـ (١٧٧١ م) وفي القضاء على ثورة اليونان سنة ١٢٣٧ هـ (١٨٢١ م) ، كما اشتركت تونس بحرباً في معركة نورالين الى جانب العثمانيين ضد اليونان سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٧ م) ، وفي حرب القرم ضد الروسية ١٢٧٠ - ١٢٧٢ للهجرة (١٨٥٤ - ١٨٥٦ م) .

ووافق طمع فرنسة بشمالي افريقية اضطرابات مختلفة في شمالي افريقية ، فاستطاعت فرنسة ان تحتل الجزائر نهائياً سنة ١٢٥٣ هـ (١٨٣٧ م) وتونس سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨١ م) . والاستعمار شر كله وظلم . على ان لكل نوع من الاستعمار خصائصه من الشر والظلم . فالاستعمار الفرنسي يقوم على إفقار البلاد التي يستعمرها وتركها متأخرة عن ركب الحضارة . ثم هو - كسائر انواع الاستعمار - يمالئ جميع الغرباء في البلاد التي

(١) الدايات لقب الضابط الذي تولى قيادة مائة جندي من الانكشارية الذين كانوا يقومون بالدفاع على تونس .

(٢) راجع موجز تاريخ تونس ١٤٧ ثم ١٤٩ وما بعدها .

يستعمرها ويقهر اهل البلاد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً . والاستعمار الفرنسي - كسائر انواع الاستعمار ايضاً - يكره الاسلام كرهاً شديداً ، ذلك لأن الاسلام دين يوحى العزة والكرامة ويأبى الخضوع ، ولذلك رأينا جميع المستعمرين مجتمعين على اضطهاد المسلمين في كل صقع نزله . اما سياسة فرنسة لشمالى افريقية فكان بالغاً حد القسوة ، ذلك لأن شمالى افريقية قريبة من فرنسة وتريد فرنسة ان تجعل من ممتلكاتها في ذلك الصقع مدى حيويها لها وجزءاً تابعاً لها سياسياً وإدارياً واقتصادياً .

اما حقائق الجو الذي عاش فيه الشابي وشهده فيمكن ان نسرده منها ما يلي :

١ - كان مجلس الشورى الذي يشرف على توزيع ميزانية الحكومة قاصراً على الفرنسيين ولم يشترك فيه التونسيون إلا نحو عام ١٩٠٦ .

٢ - حاول المجلس البلدى ان يضع يده على مقبرة الزلاّج الاسلامية ، ولما حاول التونسيون منع ذلك قابلهم الافرنسيون باطلاق النار ثم اعتقلوا عدداً كبيراً منهم وحكموا على بعضهم بالاعدام .

٣ - اشترك في الحرب العالمية الاولى خمسة وستين الفاً من التونسيين في الجيش الفرنسي قتل منهم اثنا عشر الفاً .

٤ - في عام ١٩٣٤ عمّت الضائقة المالية فتظاهر التونسيون وطالبوا بالاصلاحات التي يمكن ان تنعش البلاد فقابلهم رجال الأمن بالسلاح فجرح عدد كبير من المتظاهرين وقتل فريق آخر . وقد اعلنت السلطة الفرنسية الاحكام العرفية في تونس وعطلت الصحف العربية ونفت رؤساء حزب الدستور . ولكن المظاهرات لم تخف بل اشتد بعضها حتى تحول الى معارك دموية كما اتفق في مدينة بنزرت في شهر كانون الثاني من عام ١٩٣٨ ، وكما شهد في الوقت الحاضر .

٥ - سجلت افضل الاراضي الزراعية باسم الدولة ثم وزعت على الافرنسيين المستوطنين في تونس . وكانت الضرائب التي تجمع من الوطنيين يوزع معظمها على الفرنسيين لمساعدتهم على استعمار البلاد .

٦ - يشرف على الادارة التونسية نحو ثلاثين الف موظف ثلاثة ارباعهم من الفرنسيين .

٧ - اما نسبة الاطفال التونسيين الذين يذهبون الى المدارس فتبلغ نحو ١٢٠٥ بالمائة مقابل ٨٧٠٥ بالمائة من الاطفال الفرنسيين .

٨ - ظلت آمال التونسيين تملو وتنخفض وتمتقلب بحسب تغيير الحكومات الفرنسية بباريس . وفي عام ١٩٣٨ استعد حزب الدستور التونسي لصراع واسع النطاق مع السلطات الفرنسية ، كان من نتائجه ان 'زج' بحوالي الف واطني في السجن . ثم ان السلطة الفرنسية أعلنت حالة الحصار على تونس ، وهي حال تدل المعلومات التي لدينا على انها لم تنته حتى الآن بصورة رسمية ... »^١

◊

هذه بعض الاحوال التي شهدتها الشابي في وطنه تونس فظهر شيء من آثارها في شعره .

(١) راجع القضية التونسية ، الخطاب الثالث ، ص ٢ - ٤ .

٢ - موهب ترجمته

مولده :

ولد ابو القاسم الشابي^١ في بلدة الشايبية ، احدى ضواحي مدينة توزر ببلاد الجريد من جنوبي تونس ، يوم الاربعاء في الثالث من شهر صفر سنة ١٣٢٧ الموافق للربيع والعشرين من شهر شباط عام ١٩٠٩^٢ . وفي الشايبية نشأ نشأته الاولى . ومن هذه البلدة جاء لقب اسرة الشاعر .

ولما بلغ ابو القاسم الخامسة من عمره سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) ادخله ابوه في احد الكتاتيب حيث بدأ يتلقى العلوم المألوفة في مثل هذه المدارس كالقراءة والخط والحساب وحفظ القرآن الكريم على الاخص .

وانتقلت اسرة ابي القاسم من الشايبية الى قفصة ثم الى زغوان حيث شغل ربه منصب رئيس المحكمة الشرعية فيهما كليهما . ولم يكنف والد ابي القاسم بما كانت الكتاتيب تلقن ابنه فتعهد هو ايضاً ولقنه شيئاً من علوم العربية وشيئاً من سواها حتى بلغ الحادية عشرة من عمره .

وبعد ان قضى ابو القاسم بضع سنوات في الكتاتيب وفي عهدة ابيه في التعليم ارسله ابوه الى تونس العاصمة وادخله الى الجامعة الزيتونية احد المراكز العظيمة لعلوم اللغة

(١) الثاني بتشديد الباء وبعدها ياء النسب ، نسبة إلى الشايبية .

(٢) راجع : الاسبوع ، العدد ٣١٢ (الاثنين ، ١٣ ربيع الانور - الاول - ١٣٧٢ ، ١٠ ديسمبر

- كانون الاول - ١٩٥٢) ، ص ٢ ، الحاشية الاولى : الادب التونسي ، ص ٢٠٨ ، راجع الثاني ٢٤ .



والدين في العالم الاسلامي . وذلك سنة ١٣٤٠ هـ (١٩٢١ م) . هنالك توسع ابو القاسم في العلوم الاسلامية والعلوم العربية ثم تخرج في آخر سنة ١٣٤٥ للهجرة (١٩٢٧ م) حائزاً على شهادة التطويح ' . ويبدو ان ابا القاسم لم يكن راضياً عن التعليم في الجامعة الزيتونية ، ولا كان جميع شيوخ الزيتونة راضين عن تطرفه وشذوذه ولا عن شعره ، مع العلم بان الجامعة الزيتونية كانت في ذلك الحين قد ادخلت على منهاج الدراسة فيها شيئاً من العلوم العصرية .



الشابي تلميذاً في الجامعة الزيتونية

والظاهر ان ابا القاسم الشابي قد رأى ان شهادة الزيتونة لن تشق له طريق الحياة

(١) الرسالة العدد ٦٧٧ (١٩٤٦) ، ص ٦٩٨ ، الشابي ٢٦ .

الى كسب العيش - وخصوصاً لأن آراءه في الحياة لم تكن تتفق مع آراء شيوخ الجامعة الزيتونية - فأثر ان ينال شهادة مدينة فدخل كلية الحقوق التونسية سنة ١٣٤٦ للهجرة (١٩٢٧ م) .

وأصيب ابو القاسم الشابي في هذه الفترة - في اثناء دراسته للحقوق - بثلاث صدمات عنيفات : زواج خائب وحب دام وموت والده :

ولعل زواج الشابي كان سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٨) ، اي قبيل موت والده وقبل ان يتخرج هو في كلية الحقوق التونسية . ويتضح لنا من دراسة حياته وشعره ان زواجه هذا لم يكن موفقاً . « وأغلب الظن أنه تزوج ارضاءً لوالديه او لأحدهما فقط » . وعلى الرغم من ان الشابي قد رزق من زواجه هذا ولدين فانه لم يكن وادعاً سعيداً في حياته الزوجية .

هذه الحياة الزوجية البائسة اليائسة - في احدى نواحيها - دفعت الشابي ، قبل ان يمضي العام الاول على زواجه ، الى تطلب سعادة موهومة في حب فتاة ظن فيها تحقيق احلامه . ولكن هذه الفتاة توفيت وشيكا - في العام الذي احبها فيه - فأذكى ذلك في نفسه الأسى على حاله والنقمة على حوادث الدهر . فكانت الصدمة الثانية في حياته .

وظل الشابي يذكر حبه هذا مدة ثم جعل ينساه او يحمل نفسه على نسيانه . وسرعان ما اطاعته نفسه فتناسى حبه الاول وانتقل الى حب جديد ثم الى آخر فأخر . وبدون لنا شعر الشابي مواقف من الحب توحى بأنه قد اندفع مع عاطفته وراء المرأة لا يلوي على شيء . ولا ريب في ان هذا الاندفاع كان سبباً من الاسباب التي قرّبت منيته اليه ، مع انه كان يستطيع ان يحيا مع دائه كما عاش غيره مع ادوائهم . ولكن القضاء النافذ وإلقاءه نفسه بيده في التهلكة كانا عليه كتاباً موقوتاً .

اما نائلة تلك الصدمات والكارثة الكبرى فكانت موت والده في اوائل ربيع الثاني من سنة ١٣٤٨ للهجرة (ايلول ١٩٢٩ م) ، قبل ان ينال هو اجازته من كلية الحقوق .

وهكذا فقد ابو القاسم عضده ثم ألقى على عاتقه عبء اسرتين ليعولهما : اسرته هو واسرة ابيه ، بينما كان هو نفسه لا يزال في حاجة الى من يعوله ويساعده على اتمام دراسته . ومع ذلك فقد استطاع الشابي ان يتم دراسته في كلية الحقوق التونسية وان ينال اجازتها في سنة ١٣٤٩ للهجرة (١٩٣٠ م) .



على ان هذا الضنك في المعيشة والقسوة في الايام لم يمنعا الشابي من القيام بنشاط اجتماعي بارز ، فقد كان له فضل ظاهر في تأسيس جمعية الشبان المسلمين والنادي الادبي في تونس العاصمة وفي تأسيس نادي الطلاب في مدينة توزر . ولم يقتصر نشاطه على السعي لتأسيس هذه الجمعيات بل كان من اعضائها العاملين البارزين .^١

مرضه :

الثاني بعد خروجه من الجامعة الزيتونية
« عن كتاب الشابي » لأبي القاسم محمد كرو

لا يزال الشرقيون^٢ الى اليوم يحرصون على كتمان ما ينزل بهم من الامراض الويلة . واذا هم اعترفوا امام الآخرين باصابتهم او اصابة ذويهم باحد هذه الامراض فانهم يكتمون عادة اسم المرض . وعلى هذا الاساس لحق الغموض اسم المرض الذي نزل بالشابي . فمؤلف كتاب الشابي ، ابو القاسم محمد كرو^٣ ، يقول عن الشابي « انه اصيب بداء تضخم القلب » ، بينما محمد فهمي ، مؤلف الروائع لشعراء الجيل يقول^٤ : « لقد انشب الداء بصدر الشاعر اظفاره » مما يدل على ان المرض كان مرض السل الرئوي .

(١) راجع الثاني ٢٧ .

(٢) الشرقيون كلمة تدل على المشاركة والمشاركة على السواء . اذ الشرقيون تعبير يؤتى به عادة في مقابل الغربيين (الاوروبيين والاميركيين) .

(٣) ص ٢٨ .

(٤) الجزء الاول ، ص ٤٣ .

وإياً كان مرض الشابي فانه كان يقتضي علاجاً مستمراً وراحة تامة . ولم تكن احوال الشابي المادية ولا حالته النفسية تمكنه من احتمال نفقات العلاج ولا الاخلاص الى الراحة التامة . ولذلك كان موته منتظراً في كل حين .

موته :

ثم اشتدت بالشابي عقابيل الداء فلزم الفراش . واخيراً استعصى ترميذه على اهله في بيته فنقل الى المستشفى الايطالي في مدينة تونس فمكث فيه برهة من الزمن . وكان قضاء الله في سابق علمه قد نفذ فتوفي الشابي ليلة الثلاثاء ' في التاسع والعشرين من جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ الموافق لليوم التاسع من تشرين الاول عام ١٩٣٤ ، فيكون قد عاش ستاً وعشرين سنة قمرية ونحو خمسة اشهر او خمسة وعشرين عاماً شمسياً ونحو ثمانية اشهر^٢ . وفي اليوم التالي نقل جثمانه الى بلدته الشابية ودفن فيها .

آثاره :

اذا قسنا حياة الشابي بما خلفه من آثاره الشعرية خاصة ادر كنا انه شاعر مكثر، فان له مجاميع شعرية مستقلة متعددة . ألف زين العابدين السنوسي كتاب « الادب التونسي في القرن الرابع عشر (الهجري) »^٣ فأثبت للشابي واحدة وثلاثين قطعة مجموع اياتها خمسمائة وخمسين بيتاً . وجاء محمد فهمي فالف الروائع لشعراء الجيل^٤ فأثبت للشابي عشر قصائد تبلغ اياتها ثلاثمائة وثمانية وثلاثين بيتاً . ونلاحظ ان القصائد التي اثبتها محمود فهمي هي غير القصائد التي اثبتها زين العابدين السنوسي . بعدئذ جاء ابو القاسم محمد كرو فألف كتاباً عنوانه « الشابي : حياته - شعره »^٥ اثبت فيه ثماني عشرة قصيدة من القصائد التي

- (١) في الشابي (ص ٣٠) : فجر يوم الثلاثاء .
- (٢) راجع الاسبوع ، العدد ٣١٢ ، ص ٢ ، الحاشية الاولى .
- (٣) تونس ١٣٤٦ هـ ١٩٢٧ م ، ص ٢٠٩ - ٣٥٤ .
- (٤) لجنة التأليف والترجمة الحديثة ، مصر « بلا تاريخ » ، ص ٤٥ - ٧٢ .
- (٥) منشورات المطبعة العلمية ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٥٢ : الطبعة الثانية ١٩٥٤ .

أثبتها زين العابدين السنوسي بلغ مجموع آياتها نحو اربعمائة بيت ، ثم اثبت القصائد العشر التي كان محمد فهمي قد اختارها ولكن آياتها جاءت عنده أكثر عدداً اذ بلغ عددها نحو اربعمائة بيت ايضاً . ثم اختار هو اثنتين وعشرين قصيدة مجموع آياتها نحو خمسمائة وخمسين بيتاً . وهكذا ضمت دراسة ابي القاسم محمد كرو للشابي الفأ وثمانمائة بيت من الشعر في المختارات ^١ ولا ريب في ان ديوان الشاعر اكبر حجماً من ذكرنا ولكن يظن ان بعض شعره قد فرقه يد الحوادث . ولقد كان الاعتقاد قد ساد زمناً بان ديوانه كله قد ضاع .

وللشابي آثار نثرية مختلفة لم يطبع منها الا كتاب « الخيال الشعري عند العرب » ^٢ . ثم له مقالات متفرقة بعضها نشر وبعضها لم ينشر ، كما ان له دراسات وقصصاً ورسائل متفاوتة الموضوعات . والذي يلوح لنا ان مقدار آثاره النثرية وتباين موضوعاتها كلها تدل على انه كان ايضاً كاتباً فياض القريحة .

(١) ص ٩٩ - ٢١٦ . وفي تشرين الاول ١٩٥٤ نشر ابو القاسم محمد كرو كتاباً عنوانه « كفايح الشابي » (بيروت - المكتب التجاري) يبدو انه لا يضم مختارات غير تلك التي كان قد جمعها في كتابه الاول « الشابي » .

(٢) دار العرب ، تونس ، ١٩٢٩ ، صفحته ١٤١ (الشابي ٧٩ - ٨٠) .

٣ - عناصر شخصيته

خلق شخصية الشابي العجيبة اربعة عناصر كلها متنافرة . فلما اجتمعت فيه جعلتنا نقف امام شخصية فذة ولكنها مضطربة ؛ وعاجزة ولكنها طموح . هذه العناصر الاربعة الاساسية هي : فقره ومرضه وتبحره في الآداب العربية بينما كان يجهل الادب الاجنبي في اصوله ، ثم حال بلده تونس في البؤس الاجتماعي والاستعمار السياسي على ما رأينا في صورة عصره .

١ - إذا كان والد ابي القاسم الشابي قد ضمن لابنه جميع حاجاته المادية والمعنوية فهذا لا يعني ان الوالد كان غنياً . ثم مات الوالد فتعرض شاعرنا للبؤس وعضه ناب الفقر فجعله يشعر شعوراً صحيحاً بحال معظم التونسيين . فكان شعره من هذه الناحية تعبيراً صادقاً عن حاله وحالهم .

٢ - ومرضُ الشابي ، سواءً أكان قلباً أم 'سلاً' ، أثر في اتجاهه في الحياة وفي الشعر . وسنجد ان شعره مملوء بالتشاؤم وبالنقمة على الناس وعلى أحوالهم . إن المرض يمنع صاحبه التمتع بمسرات الحياة ، بل يمنعه تبين تلك المسرات . ومع ان مثل هذا الشخص قد يكون له نظرات متفرقة صائبة في الحياة فاننا لا نستطيع ان نقول ان نظراته هذه صورة للحياة . إنها صورة لنفسه هو في معراج الحياة .

يجب ان نفرق بين الاشياء التي يقولها الرجل بعقله وبين التي يقولها بقلبه . ومع

(١) راجع ترجمته ، على الصفحة ١٦٠ .

الاعتراف بأن ما يقوله بقلبه يكون في العادة شعراً جميلاً فإنه لا يكون في الغالب صحيحاً . ونحن في دراسة الشابي ندرس شعراً ، ولذلك نغني بعنصر الجمال أكثر مما نغني بعنصر الصواب .

٣ - ولا ريب في ان الشابي كان - على قصر عمره - متبحراً في كثير من صنوف العلوم العربية تبحر مطالعة لا تبحر دراسة . اما في اللغة والنحو فشعره لا يدل على انه كان بارعاً فيهما على الرغم من انه كان طالباً بالجامعة الزيتونية . واما الفقه والشرع فليس في شعره ما يدل على التعمق فيهما ولا على اتجاهاً دينياً على الرغم ايضاً من من انه درس في معهد ديني . إن العكس هو الصواب ، فالشابي شاعر - مما يبدو من شعره - قليل الاحتفال بالدين كله .

ولم يجد الشابي في الادب سبيلاً إلا الى ما كتب باللغة العربية - اصيلاً او دخيلاً او منقولاً - اعني بالأصيل آثار ادياء العرب ، وبالذخيل ما قلده اصحابه فيه الادب الاجنبي بتصرف كبير او قليل ، وبالمنقول ما نقل الى العربية عن اللغات المختلفة نقلاً صحيحاً او قريباً من الصحيح . والواقع الذي ينكشف عنه شعر الشابي ان الشابي كان اكثر مطالعة للكتب المنقولة منه للكتب الموضوعية في العربية اصلاً . وأنا - كدارس ادبي - لا أعني بما يعرفه الاديب المدروس بقدر ما أعني بظهور آثار علمه في ما يكتب .

على انه غير منكر ان الشابي كان ذكياً فأحاط بكثير مما طالعته في عمره القصير . وبما ان الشابي قد توفي قبل ان يتجاوز السادسة والعشرين من عمره فإنه لما توفي كان لا يزال تحت تأثير الكتابات العاطفية الجارحة والاتجاهات الصوفية الشاذة مما تأتلف مع عواطف الشباب . من اجل ذلك كان أثر ادياء المهجر قوياً في بعض شعره .

والشابي كالمفلوطي ، كلاهما كان يجهل اللغات الاجنبية جهلاً تاماً . غير ان المفلوطي كان أحسن ثقافة في اللغة العربية فكان اسلوبه اصفى وأنقى من شوائب العجمة . بينما الشابي كان أقل ثقافة لغوية وأكثر اغترافاً من الادب الاجنبي المنقول ، فكان اسلوبه - من اجل ذلك - أليّن .

٤ - ولم يكن بإمكان الشابي إلا ان يتأثر بحال تونس في التعس والفقر والظلم .
ولقد انصف الشابي بلده في شعره فلم يكتف بأن يصفه وصف ناقم او راحم فقط، بل كان
يبحث قومه على الرقي ويمنتيهم بالتناج التي يمكن ان يصلوا إليها إذا استيقظوا ونهضوا .
غير انه ايضاً كان في بعض شعره السياسي متشائماً نافضاً كلتا يديه من إمكان الاصلاح او
النهوض . وعندني ان كثيراً من آرائه في هذه الباب كانت تقليداً للشعراء الذين طرقتوا مثل
هذه الموضوعات . وإذا نحن قبلنا ما قاله ابو القاسم محمد كرو^١ من ان الشابي قرأ كثيراً
للمعري وابن الفارض وابن الرومي والحيام ... وجبران وسائر ادباء المهجر ، فاننا لا نعدو
الحق معه في ان نرد كثيراً من هذه النقمة الى هذه المطالعات وحدها .

o

ويبدو مما ذكره بعض الدارسين ان الشابي كان نحيف الجسم ثم زاده المرض ضعفاً
ونحولاً^٢ . اما زين العابدين السنوسي فقصد ان يرسم له صورة روحية حينما قال^٣ :
« لا اعرف الرجل (الشابي) ... إلا إلاماً ولم اقبله إلا مقابلات تكاد تكون « رسمية »
تعرفنا فيها به وتسمعنا فيها ادبه وكان فيها خجولاً خافت الصوت . حتى إذا سمعنا ما سمعنا
كبر الفتى في اعيننا ورأينا منه جباراً من جبابرة الأدب الرائع العتيد » .
وكان متمرداً طموحاً^٤ ، تنبعث منه روح تدافع عن الحق وتتغنى بالحرية وتحمل على
الاستبداد المادي والروحي حتى ان جميع من فعل ذلك كان يصيح بلسان الشابي^٥ .

(١) الشابي ، ص ٥٢ وما بعدها .

(٢) ابو القاسم محمد كرو في « الشابي » ص ٢٨ .

(٣) الادب التونسي ٢٠٢ .

(٤) الشابي ، ٣٥ - ٣٧ .

(٥) راجع الاتجاهات الأدبية ٢ : ٩٤ - ٩٥ .

٤ - خصائص شعره

شاعر وجداني :

الشابي شاعر وجداني خالص . وهو على صغر سنه شاعر مكثر مجيد . ومع ان الانسان لا يبلغ أشده عادة إلا في حد الأربعين من العمر ولا يبدأ نضجه إلا في نحو الخامسة والعشرين ، فان الشابي كان - قبل ان يتوفى في نحو الخامسة والعشرين - قد قال قصائد ومقطوعات بلغ بعضها من النضج مبلغاً كبيراً .

على ان شعر الشابي متفاوت جداً : فيه الضعيف الركيك وفيه القوي المتين ، ثم فيه المعاني المعادة المكرورة وفيه المعاني التي تنعم بقسط وافر من الابتكار - من حيث التعبير على الأقل . اما اذا اردنا ان ننظر الى مجموع شعر الشابي - لا الى قصائده واحدة واحدة - فلا بد لنا من ان نقول بان الشابي كان شاعراً عبقرياً .

وفي شعر الشابي نزعة من التحرر . والتحرر هو اطلاق النفس على سجيتها من قيود العرف السائد في بيئة ما . اما من حيث الدين فالشابي غير متقيد بشيء منه - في شعره . ثم هو ينحو في تشابهه واستعاراته احياناً منحى لا يقره التوحيد او هو زندقه في رأي النقاد القدماء . يتكلم الشابي عن المرأة فيقول مثلاً :

انت قدسي ومعبدي وصباحي وربيعي ونشوتي وخلودي .
يا ابنة النور ، انني انا وحدي من رأى فيك روعة المعبود .
وحرام عليك ان تسحقي أما ل نفس تصبو لعيش رغيد ،
فالاله العظيم لا يرجم العبد إذا كان في جلال السجود !

ان تشابيهه واستعاراته ليس فيها احتياط . وما يقال عن الدين يقال عن « المجون »
الذي نثره الشاعر في عدد من قصائده المتأخرة .

الرومانتيكية في شعر الشابي

نشر الاستاذ الاديب مصطفى رجب سلسلة مقالات في مجلة الاسبوع التونسية^١ عنوانها
« الرومانتيكية والشابي » . وبعد ان ذكر مصطفى رجب ان الرومانتيكية موضوع غامض
استشهد بتعريف للشاعر الافرنسي الفرده موسىه يقول فيه : « المذهب الرومانتيكي هو
النجمة الباكية والريح الصارخة والليله المرتعشة ... وهو الانبعث الذي لم يكن في الحسبان
ولنه مليئة بالتحول، وهو في الوقت نفسه المملوء والمستدير والقطري والهرمي والشرقي الخ »^٢ ،
مما لا يدل على حقيقة هذا المذهب كثيراً او قليلاً .

واختلف مؤرخو الأدب المعاصرون في وضع مقابل لكلمة : « رومانتيكي » فسموها
المذهب الابداعي او الابتداعي او الاتباعي او الوجداني . وإذا نحن درسنا شعر الشعراء
الذي يطلق عليهم في اللغات الاجنبية اسم « رومانتيكيين » ادركنا انهم اشبه ما يكونوا
بشعرائنا المحدثين في العصر العباسي بالاضافة الى الشعراء الجاهليين . ان الشعراء الرومانتيكيين
تركوا المجرى المألوف في الشعر القديم كما فارق الشعراء المحدثون في العصر العباسي
عمود الشعر (الجاهلي) . وبكلمة أوضح : ان الشعراء المحدثين جعلوا ينطقون عن انفسهم
هم ويصورون بيئتهم هم بعد ان كانوا يرون « الشاعرية » في طبع قصائدهم على غرار
الشعر الجاهلي .

والشاعر المحدث يصور بيته هو ويتناول اغراضه وفنونه منها وبما . ان هذه تختلف في
انواعها ودرجاتها من اغراض البيئات السابقة على بيئته فان الشاعر محتاج في التعبير عنها

(١) ابتداء من العدد ٣٦٢ (الاثنين ، ٢١ ربيع الثاني ١٣٧٣ ، و ٢٨ ديسمبر - كانون الاول -

١٩٥٣) .

(٢) الاسبوع العدد ٣٦٢ ، ص ١٣ .

الى الفاظ وتعابير وتشاويه غير تلك التي كان يحتاج اليها الشاعر القديم . من اجل ذلك نرى شعر الشعراء المحدثين عند العرب (كشعر الشعراء الروماتيكين في الغرب) يختلف من شعر الذين سبقوهم في الاسلوب ايضاً .

بهذا المعنى كان الشابي شاعراً « روماتيكياً » . وبهذا المعنى يري مصطفى رجب ان الشابي توفر على الموضوعات فوهاها حقها من البحث المستفيض - لا من طول النفس كما يقول - ومن العمق والنفوذ الى لب الموصوفات . ومع ان مصطفى رجب يعتقد ان التعمق في الوصف والتحليل اصل من اصول الادب القديم ، فانه يرى انه اكثر شيوعاً في الادب الروماتيكي ، وخصوصاً كما يظهر عند الشابي . وهو يؤكد ذلك تأكيداً كثيراً ' .

لا ريب في ان الشابي تناول موضوعاته من بيئته وكما يراها هو من خلال نفسه المثقلة بالمرض والحزن ، فعبّر عن كثير من اغراضه تعبيراً شخصياً اكسبها كثيراً من الجدة ، وإن كان قد كرر المعاني وأعاد التراكيب مرات كثيرة . وكذلك نجد في اسلوب الشابي جدة ، ولكن فيه ضعفاً ايضاً . ان الشابي لما حاول ان يجعل شعره صورة لنفسه لم يتخير التأثيرات التي عبر عنها ، بل حاول ان يدون في شعره كل نبضاته وكل خيالاته . ونحن اذ نشكر للشاعر هذه العناية بما كان يجول في نفسه فنستطيع ان نعرف منها نفسية هذا الشاعر معرفة صحيحة ، نرى ان تكرار المعاني في ألفاظ متشابهة يدخل شيئاً من الملل على نفس القارىء . هذا ما نشعر به اذا قرأنا قصيدة « مناجاة » المثبتة في باب « الموضوعات » من فنون شعره :

أنت - ، يا شعر ، فلذة من فؤادي تنغني وقطعة من وجودي ،

فان فيها ثلاثة وعشرين بيتاً تبدأ هكذا : فيك ما في جوانحي من حنين ... فيك ما في خواطري من بلاء ... فيك ما في عوالمي من ظلام ... فيك ما في عوالمي من نجوم ... فيك ما في عوالمي من ضباب وسراب ويقظة ووجود - فيك ما في طفولتي ... الخ . ان الظلال المختلفة من المعاني تزيد الشعر جمالاً كما ان الظلال المتنوعة من الالوان تزيد

(١) الاسبوع ، العدد ٣٦٩ ، ص ٦ ؛ العدد ٣٧١ ، ص ٦ .

الصور الزيتية رونقاً . ولكن تلك الظلال إذا زادت في الشعر او في الصور الزيتية تنقلب تراكمًا يسلب الموضوعات الفنية كثيراً من جمالها ورونقها ثم يجردها من تأثيرها المطلوب . وليس في شعر الشابي اثر لثقافة واسعة : إن الرجل يتكلم من قلبه لا من عقله ، وشعره كلام جميل اكثر منه كلاماً مصيباً ، وفيه موسيقى اكثر مما فيه منطقاً متسقاً .

وتتصف قصائد الشابي ومقطوعاته بوحدة الموضوع . ان الشابي يعالج في كل قصيدة من قصائده موضوعاً واحداً إلا ما كان من الموضوعات التي تأتي عادة في الشعر معاً كالغزل والتأمل في الحياة ، او الغزل والطبيعة . على ان بناء القصيدة عنده متخلخل في الأكثر . ان القصيدة موضوع واحد ولكن الايات غير متعاقبة ، بل يمكن تقديم بعضها على بعض او يمكن حذف بعضها او تبديل مكانه من غير ان يخل المعنى ، ذلك لأن الشابي ، كما سيأتي ، كثيرٌ ترديد الألفاظ والتراكيب والمعاني في شعره . فاذا نحن حذفنا بعض الايات من قصائده لم يخل ذلك بالأيات الباقية ، بل ربما اشتد ترابطها فكان لها الايجاز محسناً لها لا شك فيه .

النقمة والتشاؤم

والشابي شاعر ناغم يزعم انه يريد ان يؤدي رسالة ، ولكنه في الحقيقة يحمل معولاً ليهدم به كل شيء : الحياة والناس ، والبلاد والوطن والأمة . وإذا كنا نرى في بعض قصائده املًا او روحاً وطنية او دعوة الى الاصلاح والنهوض فهذه كلها لا تبدل شيئاً من موقفنا : ان المصلح الحقيقي لا يتقلب في آرائه ، وأداء الرسالة يقتضي انجاهاً واضحاً وثباتاً على مبدأ واحد .

ويطوف على شعر الشابي شيء كثير من الحزن والتشاؤم والحيرة فيشير ذلك شيئاً من الاشفاق في نفس القارئ على الشاعر ، ولا سيما شاعراً مثل الشابي لقي في حياته القصيرة عذاباً حقيقياً جسمانياً ونفسانياً وروحياً . إن هذا العطف على الشابي يحمل عدداً كبيراً من القراء ومن الدارسين على اعطائه من المقام الادبي اكثر من حقه . على ان هذا

لا يمنع من ان يكون للشابي - كما نرى في مجموع شعره - قصائد رائعة . وعندني ان ديوان الشابي لا يجوز ان ينشر كاملاً بل يحسن ان ينشر منه مختارات فقط .

أثر الادب المهجري

ومع العلم اليقين بان الشابي قرأ كثيراً من دوواين الشعراء العرب - كما يبدو من شعره - فانه كان معجباً بشعراء المهجر امثال جبران خليل جبران ومخائيل نعيمة وايليا ابي ماضي^١ . وليس من المستغرب ابداً ان يكون الشابي اشعر من الذين قلدهم . ان ابا القاسم محمد كرو يقول في كتابه الشابي^٢ : « غير ان الشابي كان اعمق من جبران واصدق تصويراً ... وهو يمتاز (من ادباء المهجر) بدقة بالغة في تعبيره وبراعة فائقة في تصويره » . واريدها ان ابنه على نقطة واحدة هي ان هذا الذي ذكره محمد كرو عن الشابي والادب المهجري ينطبق على ادباء المهجر الشمالي في الولايات المتحدة - كجبران ونعيمة وابي ماضي ، اكثر من انطباقه على ادباء المهجر الجنوبي - في البرازيل - كالشاعر القروي ورشيد سليم الخوري مثلاً^٣ . فالشابي شاعراً خيراً من جبران ، بلا ريب ، ولعله في قصائده المختارة يتقدم ايضاً على ابي ماضي . اما نعيمة فلا اعلم اذا كان شاعراً . هذا مع العلم باننا نوازن هنا بين شاعر ما وافت سنه على النضج وبين شعراء استفدوا نضجهم كله في اشعارهم . ولقد اكتسب الشابي من الادب المهجري ضعفاً في التركيب واغراقاً في الرمز وشيئاً من التشاؤم والصوفية السلبية . فمن الرمز قوله :

فأدرُ في يا مقلة الليل الدراري عبرات

فوق قلبي فهو قد ودع أوجاع الحياة

(١) راجع نقداً لديوان الشاعر القروي للاستاذ عارف النكدي في مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ٢٩ : ٣ (١ تموز ١٩٥٤ = ٢٩ شوال ١٣٧٣) ، ص ٤٣٢ - ٢٣٦ .

(٢) راجع مجوئاً مفصلة في خصائص شعر جبران في « الامالي » السنة الاولى : نظم جبران ٣٥ : ٢٨-٢٨ ، خيال جبران ٣٦ : ١٨-١٩ ؛ ثم ٣٨ : ٢-٥ ؛ ٤٢ : ٢-٦ ؛ ٤٥ : ٩-١٣ .

(٣) الثاني ٢٦ ، ٥٠ - ٥٨ .

(٤) كرو ، الثاني : حياته - شعره ، ٥٤ ، ٥٨ ، راجع ٥٧ .

واغسله

بدموع الفجر من أكواب زهر الزنبق
وادفنيه بجلال في ضفاف الشفق

عنصر الدين

وإذا نحن تأملنا بيئة الشابي العامة في تونس ثم بيئته الخاصة في الجامعة الزيتونية
عجبنا لغياب الاثر الديني في شعره غياباً تاماً. ان اول ما نلاحظه ان الالفاظ الدينية قد
خسرت في شعر الشابي قدسيته، فالكلمات المعروفة في الدين : الله والنبي والصلاة
والجحيم لم يبق لها في شعر الشابي ما يتصل بها عادة من الدلالة على مسميات معينة ، بل
اصبحت كلمات عامة كسائر الالفاظ القاموسية الدائرة في الاستعمال اليومي :

- لَتَعْسِ الْوَرَى شَاءَ الْإِلَهِ وَجُودِهِ فكان لهم جهلٌ وكان لهم فهم^١
- صَانِكُنْ الْإِلَهِ مِنْ ظِلْمَةِ الرُّوحِ ح ومن ضلة الضمير العنيد^٢
- تَفَرَّدَ كَالطَّيْرِ ابْنُ أَنْدَفَعْتِ وتشدو كما شاء وحي الاله^٣
كَذَا صَانِكُ اللَّهِ يَا ابْنَ الْوُجُودِ وألقتك في الكون هذي الحياه
إِلَى النُّورِ فَالنُّورُ عَذْبٌ جَمِيلٌ الى النور فالنور ظل الاله
- وَرَقٌ نَشِيدُ الْحَيَاةِ الْمَقْدُوسِ س في هيكل حالم قد سحر^٤
- وَهِيَ أَنْجِيلُهُ الْجَمِيلُ فَصَدَقَ ه وإلا فللغرام جحيمه^٥
- إِيَّاهُ اللَّيْلُ ، يَا أَبَا الْبُؤْسِ وَالْمَوْتِ ل وباهيكل الزمان الرهيب^٦
فِيكَ تَجْشَوُ عِرَائِسُ الْأَمَلِ الْعَذْبِ ب تصلي بصوتها المحبوب .

على أن الله وحده قد ظل له في قلب الشابي رهبة قدسية ما. ان الشابي ، وان كان قد

(١) الشابي ١٢٧ .

(٢) » ١٤٨ .

(٣) » ١٤٩ - ١٥٠ .

(٤) » ١٥٥ .

(٥) » ١٦١ .

(٦) » ١٢١ .

ادار ظهره للدين ، لم يكفر بالله ولم يكن زنديقاً ، بل ظل له شيء من الايمان « بالعظيم
المجهول » (الشابي ١١٢) :

إن من أصفى الى صوت المنون
وصدى الأجدات ،
ليس تستهويه ألحان الطيور
- بين ازهار الربيع الساحرة
وابتسامات الحياة الساخرة -
عن جلال الله

اما في المقطعين التاليين فترى ان الشابي نفسه قد تحلل من مدلول الالفاظ الديني
تحللاً تاماً ورفع المحبوب الى مكان الالهية او انزل الله الى درك المحبوب المادي
(الشابي ٢١٥) :

في فؤادي الرحيب معبد للجمال
شيدته الحياة بالرؤى والخيال
فتلوت الصلاة في خشوع الظلال
وحرقت البخور وأضأت الشموع

واشد ايغالاً في التحلل من ذلك ما نجده في قصيدته « صلوات في هيكل الحب » .
قال يخاطب محبوبته ويقيمها مقام الالهية في القدس والعبادة وفي القدرة والارادة وفي
الشفاعة والزلفى (الشابي ١٥٧ - ١٥٩) :

أنت أنشودة الأناشيد غنّنا
أنت قدسي ومعبدي وصباحي
يا أبنة النور ، إنني انا وحدي
فدعيني اعيش في ظلك العذ
وامنحيني السلام والفرح الرو
ك إله الغناء رب القصيد .
وربيعي ونشوتي وخلودي .
من رأى فيك روعة المعبود .
ب وفي قرب حسنك المعبود .
رب في نشوة الدهول الشديد .
حي ، يا ضوء فجرى المنشود ؛

وارحميني فقد تهدمت في كوث
فحرامٌ عليك أن تسحقي آ
منك ترجو سعادة لم تجدها
في حياة الورى وسحر الوجود،
فالاله العظيم لا يرحم العبد
إذا كان في جلال السجود !

على ان الشابي قد استبقى من التراث الديني قضية القضاء والقدر وحدها ، وهذا امر
بين السبب . ان الشابي الذي مني بمرض لا يرجى منه شفاء لم يستطع الثورة على حاله
الطبيعية المرصية كما ثار على حاله النفسية والاجتماعية . انه كان يظن ان كل شيء في العالم
يمكن ان يتبدل اذا شاءت الارادة الفردية او الشعبية ان تبدله . ولكنه لما اصطدم بحقائق
الحياة الطبيعية ورسف في قيود المرض ادرك ان « هذه الارادة » عاجزة عن تبديل ما قد
جرى به الزمن الاول فعاد يُطمئن نفسه بصحة القدر . ألا يرى القارىء في الايات التالية
إذعاناً للقضاء والقدر ورضى بما جرى به القلم الازلي ؟ إليك الآن هذه الايات :

- لتعس الورى شاء الاله وجودهم فكان لهم جهل وكان لهم فهم^١ .
- ما لي تعذبني الحيا ة كأنني خلقتُ غريباً^٢ !
وإذا سألت : لم الوجود دُ وكأله همٌ مذيب ؟
قالت^٣ : نواميس السما ة قضت وما لك من هروب !

وإذا كان الشابي احياناً يحاول ان يتمرد على نتائج القضاء والقدر فانه مقتنع بأن
هذه النتائج مردها الى امر اقره القدر^٤ :

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء ...
وأقول للقدر الذي لا ينثني عن حرب آمالي بكل بلاء ...

وبعد هذا الكفاح الظاهر يعود فيستسلم للقضاء والقدر ، اذ لا يجد بداً من الاستسلام

(١) الشابي ١٢٧ .

(٢) » ٢٠٣ .

(٣) الضمير في « قلت » يعود على « الحياة » .

(٤) الثاني ٢١١ .

ما دام كان شيء يجري هذا المجرى المكتوب . والقضاء والقدر عند الشابي لا يكون في
الخير ابدأ بل في الشر دائماً^١ :

لا تحاول ان تنكر الشجو، إني قد خبّرتُ الحياةُ خبّر أديب :
كن كما شاءت السماء كئيباً ؛ أي شيء يسرُّ نفس الأديب ؟
إنما الناس في الحياة طيورٌ قد رماها القضاء بوادٍ رهيب ،
يعصف الهولُ في جوانبه السو د فيقضي على صدى العندليب .

ان استسلام الشابي للقضاء والقدر لم يطلع الشابي على سر القضاء والقدر ولا حل
له لغز الحياة ، بل ألقاه في الحيرة ودلّاه في اليأس فتراه يقول^٢ :

أرى هيكल الأيام يعلو مشيداً ولا بد أن يأتي على رأسه الهدم .
فيصبح ما قد شيد الله للورى خراباً كأن الكل في أمسه وهم .
لتعس الورى شاء الاله وجودهم فكان لهم جهل وكان لهم فهم .

وهذه المقطوعة سبعة آيات اثبتت بتمامها في باب التأمل في الحياة من فنون
شعر الشابي :

اما في ما يتعلق بالدين خاصة في اشكاله المختلفة فموقف الشابي واضح لا يحتاج
الى تعليق^٣ .

ملء الدهر بالخداع ، فكم قد ضلّل الناس من إمامٍ وقسّ !

المتانة والركاكة :

واذا كان الشابي خريج الجامعة الزيتونية في تونس ، واذا كان لا يعرف الا اللغة
العربية ، فيجب ان تكون لغته متينة واسلوبه على عمود الشعر العربي . ونحن نلمح ذلك

(١) الشابي ١٢٣ .

(٢) » ١٢٧ .

(٣) » ١٠٩ .

كله في شعر الشابي ، فللشابي قصائد تجري على اسلوب قديم متين كقوله مثلاً^١ :

الايتها الدهرُ المصعّرُ خدّه ، رويدك إن الدهر يبني ويهدّم.

وكذلك نرى في شعره مقدرة لغوية لا شك فيها وذوقاً لغوياً ايضاً . ولكن الشابي سرعان ما اغرق في الرمز وتوسع في الاوصاف الخيالية ورام التعبير عن هواجس النفس الغامضة المكبوتة فاضطر الى ان يلائم بين لغته وبين غموضه فركت لغته احياناً في طوره كليهما - قبل بلوغ العشرين وبعد بلوغها . فمن التعبير عن هواجس نفسه الغامضة قوله^٢ :

اصيخي فما بين أعشار قلبي يرف صدى نوحك الخافت
معبداً على مهجتي بحفيف^٣ جناحيه همس الردى الصامت

وبما ان الرمز مبني في الاصل على الاستعارة، فان الشابي معرّق في استعاراته كثيراً، واستعاراته بعيدة احياناً وسمجة احياناً آخر كما يتفق في استعارات كل من يبعد في تطلب اوجه الشبه . من ذلك مثلاً قوله (الشابي ١٠٨) :

وإن قبّلتك شفاهُ الحياةِ وصبّت بفيك الرُّضابَ المريرُ ،
فقد صبغت مهجتي الداميةُ بنعل الشتاء أكفُ الدهورِ .

واحياناً لا تكون الاستعارة سمجة ضرورة ، ولكنها تكون بعيدة وجه الشبه ومخالفة للوضع اللغوي ايضاً كقوله (الشابي ١٢٥) :

فأين الأماني وألحانها ؟ وأين الكؤوس وأين الشراب ؟
لقد سحقتها أكفُ الظلام ، وقد رشفتها شفاه السراب !

على ان مما يحسن احياناً في الرمز ان يبعد الشاعر في الاستعارة ويوغل في الاغراب مع وضوح المعنى فيغترف النقاد بعد استعاراته لاصابة الرمز فيها . من هذا الباب قول الشابي (ص ١١٧) :

(١) سنوي ٢١٢ ، كرو ١٠٢ .

(٢) سنوي ٢٣٥ - ٢٣٦ ، كرو ١٠٨ .

(٣) في كرو : خفق مكان حفيف ، وهو خطأ مطبعي في الاغلب .

مات قلبي

.....

فانديبه

واغسلية

بدموع الفجر من أكره
واب زهر الزنبق
وادفنيه بجلال في ضفاف الشفق
ليرى وجه الحبيب

ويتبع هذا الغموض في المعاني والايغال في الاستعارة ركافة ظاهرة هي التي كنت أود
ان تغيب من ديوان الشابي بحذف عدد من القصائد او المقاطع على الاقل . من ذلك مثلاً :

إن السكينة روح في الليل ليست نظام
والروح شعلة نور من فوق كل نظام
لا تنطفي بريح الالهة رهاق أو بالحسام
بل قد يعرج لهاها سيلاً ويطغى الضرام
كل البلايا جميعاً تفنى وبجيا السلام
والظلم سبة عار لا يرتضيه الكرام

وهناك اخطاء لغوية وصرفية ونحوية نشأت بلا ريب من قلة مبالاة الشابي بالمجرى
اللغوي الصحيح حينما اراد ان يسوق آراءه . على ان هذه لا يجوز ان تصدر عن شاعر
صغير فضلاً عن شاعر عبقرى خريج الجامعة الزيتونية. وبما ان حصر هذه الاخطاء وتبويبها
يقتضي وقتاً طويلاً وصفحات كثيرة فقد رأيت ان اسرد بعضها سرداً للدلالة على ما اردته
لا لتعليله وتأويله :

فروح مكان فرح ٩٩

لأي (مستعمله بمعنى برهة) ١٠٣

لم تبقي لي الحياة (باثبات الباء في «تبقي» بعد الجازم) ١١٠

(١) سنوي ٢٣٩-٢٤٠ ، الشابي ١١٥ .

(٢) حياً بالاجاز سآورد الخطأ متبوعاً برقم هو رقم الصفحة من كتاب الشابي لعمد كرو .

لا تعني (كذا) اغاريد الصباح ، بلبل الأفراح ١١٢

ولما تجاوزت (مكان ولما تجاوز) ١٢٥

عاري الاملود ١٤٤

من حضيض وهيد ١٤٤

الغاب (مستعملة على انها اسم مفرد) ١٥٣ واماكن اخرى .

التعيس (مكان التعس) - ملاك (يقصد ملك بفتح اللام) - السلام العهيد ١٥٦

يدوي مكان 'يدوي' ١٥٦ واماكن اخرى .

الحريف العتيد ١٥٩

بسحر يبيمه مكان 'يبيمه او تبيمه' ١٦٠

نشيد علوي (يقصد : علوي) ١٦٦

السنين (بكسر آخره) ١٦٧ ، ١٦٨

لم 'يلد' (مكان لم يولد) ١٧٥

تبلي في اناملها اساه (مكان : باناملها) ١٨٠

زهور (مكان ازهار) ترد كثيراً

ومن السيئات التي اكتسبها الشابي من اعجابه بالشعر المهجري الشمالي كثرة التعداد والتكرار والاعادة للالفاظ والتراكيب والمعاني ، مما ينفر احياناً في الذوق الادبي ، على الرغم من ان بعض الترداد يفيد شيئاً من الموسيقى ، يمثل ذلك قوله ١ :

ففسير نشد لهونا المعبود في كل الأمور .

ونظل نعبث بالجليل من الوجود وبالحقير :

بالسائل الأعمى وبالمتعوه والشيخ الكبير ،

بالقطة البيضاء ، بالشاة الوديعه ، بالحير ،

بالعشب ، بالفن المنور ، بالسنايل ، بالسفير (?) ،

بالرمل ، بالصخر المحطم ، بالجداول ، بالغرير .

واللهو والعبث البري . الحلو مطمحنا الأخير ...

(١) الشابي ١٨٥-١٨٦ .

والشامي مغرم بالفاظ معينة يكررها في شعره بلا سأم منها . من هذه الالفاظ :
 الحياة - جميل - الربيع - الغاب - النشيد - زهر - ثمر - كون - وجود الخ . لقد كرر
 لفظة الحياة مائتي مرة ، ولفظة جميل نحو سبعين مرة . وكثيراً ما ترد كلمة الحياة مثلاً مراراً
 كثيرة في القصيدة الواحدة ومرتين في البيت الواحد او مرات في الايات المتتالية .

التوشيح

وشعر الشامي من حيث النظم قصيد او موشح . والعدد الاكبر من اشعاره قصائد، ونحو
 خمسيها موشحات .

والمقصود بالموشح اشطر من الشعر ترتب ترتيباً مخصوصاً متساوقاً مع تعدد في القوافي .
 ويمكن ان يأتي الموشح على انواع مختلفة من الترتيب . ويدخل في باب التوشيح عند الشامي
 « الرباعيات » وهي - هنا - قصائد مفصلة بيتين بيتين بنى الشاعر كل بيتين منها على روي
 واحد ، من ذلك قوله ^١ :

بالأمس قد كانت حيا تي كالسماء الباسمة
 واليوم قد أمست كآء سماق الكهوف الواجمة
 قد كان لي ما بين أح لامي الجملة جدول
 يجري به ماء المحبة طاهراً يتسلسل الخ

واحيانا يجعل الشامي رباعياته مزدوجة ، اي تتألف من اربعة ايات ، على روي واحد
 او على رويين متلازمين او مفروقين . اما رباعياته المزدوجة على روي واحد فمثلها « من
 اغاني الرعاة » :

أقبل الصبح يعني للحياة الناعمة
 والربى تحلم في ظل الفصون المائسة
 والصبأ ترقص أو راق الزهور اليابسة
 وتهادى النور في تل ك الفجاج الدامسة

(١) سنوسي ٢٥١ ، الشامي ١٢٨ .

أقبل الصبح جميلاً يملأ الأفق بهاءً
فتمطى الزهر والطير وأمواج المياه
قد أفاق العالم الحيّ وغنى للحياة
فأيقني يا خرافني وهلمي يا شياخ الخ

وأما الرباعيات التي تأتي على رويين اثنين متلازمين أو مفروقين فمثلاً في مقطوعة
« في ظل وادي الموت ». والغريب أن الشابي جاء في هذه المقطوعة بثلاثة أنواع من ترتيب
الروي فتأملها في « المجاميع الأولى والثاني والخامس » التي اثبتتها فيما يلي :

نحن نمشي وحوّلنا هذه الأكو وان نمشي لكن لأية غاية ؟
نحن نشدو مع العصافير للشـس وهذا الربيع ينفخ نايه .
نحن نتلو رواية الكون للموت ولكن ماذا ختام الرواية ؟
هكذا قلت للرياح فقالت : سل ضمير الوجود كيف البدايه .

*

وتعشّي الضباب نفسي فصاحت في ملال مر : الى أين أمشي .
قلت سيرني مع الحياة فقالت : ماجنينا - ترى - من السير أمس .
فتهاقت كالمهشم ، على الأر ض وناديت : أين يا قلب رفشي ؟
هاته ، علّني اخط ضربي في سكون الدجى وأدفن نفسي !

*

ثم ماذا ؟ هذا انا صرت في الدنـ يا بعيداً عن لهاها وغناها ،
في ظلام الفناء أدفن آيتا مي ولا أستطيع حتى بكها
وزهور الحياة تهوي بصمت محزن مضجر على قدميتا .
جف سحر الحياة ، يا قلبي الباكسي ، فهيتا نجرب الموت هيا !

فالمجموع لإلأول قوافيه : يه - يه - يه - يه

اي أ - أ - أ - أ

*

والمجموع الثاني قوافيه : شي - س - شي - سي

اي أ - ب - أ - ب

*

والمجموع الثالث قوافيه : اها - اها - ميا - هيا

اي أ - أ - ب - ب

وربما جاءت مقطوعات الشابي ثلاثيات كل مجموع منها في ثلاثة ابيات على روي مستقل :

ألا أيها الظالم المستبدُ حبيبُ الفناء عدوُّ الحياة ،
سخرتْ بأنتاتِ شعبٍ ضعيفٍ وكفك مخضوبة من دماء .
وعشتِ تدنسِ سحرَ الوجودِ وتبذري شوكَ الأسي في رباه .

رويدك لا يحدُّ عنكَ الربيعُ وصحو الفضاء وضوء الصباحُ
ففي الأفقِ الرحبِ هولُ الظلامِ وقصفُ الرعودِ وعصفُ الرياحِ
ولا تهزَّ أنْ بنوحِ الضعيفِ فمن يبذُرِ الشوكَ يجنُّ الجراحِ

تأملْ هنالك أنثى حصَّدتْ رؤوسَ الوري وزهورَ الأملِ
ورويتْ بالدمِ قلبَ الترابِ وأشربتْهُ الدمعَ حتى تمَّلِ
سيجرفك السيلُ سيلُ الدماءِ ويأكلُكَ العاصفُ المشتعلُ

اما الموشحات عند الشابي فهي قليلة لا تزيد على ست^١ فيما بين ايدينا من شعره ،
وان كان الملموح من قول الاستاذ المقدسي : « اما اليوم فهناك اتجاه عام الى احيائه
(احياء التوشيح) والتفنن فيه . . . وقد استساغه المجددون في جميع الاقطار فشاغ حتى بلغ

(١) ابن خلدون يسمي الابيات المبنية على التوشيح موشحه (المقدمة ص ٨٥٤ السطر ١١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٩ ، ص ٥٨٥ السطر ١٦ ، ص ٥٨٦ السطر ٣) .

(٢) الانجازات الادبية ١٩٣ .

المناطق البعيدة عن مركز النهضة الادبية الحديثة كتونس مثلاً والحجاز . في الاولى (تونس)
تجده في شعر حسين الجزيري وسعيد ابي بكر ومحمد الفائز وابي القاسم الشابي» مما يدل على
كثرته في الشعر الحديث ومنه شعر الشابي .

وبينما تكون الرباعية من بحر واحد يمكن ان يكون الموشح من ابحر مختلفة. ويجب
ان يلتزم الوشاح القوافي في المجاميع المتعددة التزاماً دقيقاً. وفي ما يلي جميع نماذج
التوشيح عند الشابي مع الاماع الى ما فيها من الشواذ:

(النموذج الأول)

اسكني يا جراح	واسكني يا شجون
مات عهد النواح	وزمان الجنون
وأطلّ الصباح	من وراء القرون

في فجاج الهوى قد دفنت الألم
ونثرت الدموع لرياح العدم
وانخذت الحياة معزقاً للنفم
أنفسي عليه في رحاب الزمان

وأذبت الأسي في جمال الوجود
ودحوت الفؤاد واحه للنشيد
والضيا والظلال والشذا والورود
والجوى والشباب والمنى والجنان

وهناك في هذا الموشح مجموعة من آخران مثل هذا يتقدمهما المطلع «اسكني يا جراح»
ونلاحظ هنا ان الشابي قيد اشطر المطلع واعجاز المجاميع (الاشطر المتأخرة) ولكن اطلق

(١) المجموع في الموشح يسمى بيتاً (مقدمة ابن خلدون ص ٨٣ الاسطر الاربعة الاخيرة .)

الصدور (الاشطر المتقدمة) من القافية . ثم انه اجاز لنفسه شيئاً آخر : لقد سكن او اخر
الصدور مع ان التسكين لا يجوز اذا لم تكن الايات مصرعة او موشحة .

(النموذج الثاني)

كان في قلبي فجر ونجومٌ وبحار لا تغشها الغيومٌ
وأناشيدٌ وأطيّارٌ نجومٌ وربيع مشرق حلو جميلٌ
كان في قلبي صباح وإبابةٌ وابتسامات ولكن وأنساء
آه ما أهول إعصار الحياة آه ما أسقى قلوب الناس آه
كان في قلبي فجر ونجومٌ
فإذا الكل ظلام وسديم
كان في قلبي فجر ونجوم

هذا الموشح ثلاثة مجاميع مقسومة قسمين : قسماً يتألف من المجموع الاول وقسماً
يتألف من المجموعين الباقيين .

اما في المجموع الاول فان الشاعر صرّع البيت الاول (م - م - م) ثم اتبع به صدر
البيت الثاني واطلق عجزه (م - ل) . بعدئذ أتى بيتين جعل لصدرهما رويّاً (ة) .
ولعجزها رويّاً آخر (ه) . أما الاشطر الثلاثة التي تؤلف قفلة للمجموع فقد عاد بها الشاعر
الى قافية البيت الاول (م) .

وبدل الشاعر في القسم الثاني ترتيب قوافيه فجعل المجموعين الثاني والثالث يجريان
بجري واحداً . ففي المجموع الثاني بنى الشاعر صدر الايات الاربعة على روي واحد (ح)
وعجزها على روي آخر (د) . ثم جاء الى الاشطر الثلاثة فاتبع الشطرين الاول والثالث
بصدر الايات الاربعة (ح) واتبع الشطر الثاني بعجزها (د) :

يا ابن امي ، أتري ابن الصباح قد تقضى العمر والفجر بعيداً
وظعى الوادي بمشوب الرياح وانقضت أشودة الفصل السعيد

(١) الاباة : نور الشمس .

أين تأتي ، هل ترامته الرياح ؟ والأغاني ، أين محراب السجود
خبروا قلبي فما أفسى الجراح ! كيف طاشت نشوة العيش الحميد

يا ابن أُمي ، أتري أين الصباح ؟

أوراء البحر أم خلف الوجود ؟

يا ابن أُمي ، أتري أين الصباح ؟

والمجموع الثالث يتبع المجموع الثاني في الترتيب ويختلف طبعاً في الروي
هكذا :

ليت شعري ، هل ستسليني الغداة * وتعزيني عن الأمس الفقيده

وتريني ان أفراح الحياة * زمر تمضي وأفراح تعود

فإذا قلبي صباح وإبابة * وإذا أحلامي الأولى ورود

وإذا الشجور حلوا النغمة * وإذا الغاب ضياء ونشيد

ليت شعري هل تعزيني الغداة ؟

أم ستساني وتبقيني وحيده ؟

ليت شعري هل ستسليني الحياة ؟

(النموذج الثالث)

وللشابي موشح على النمط التالي :

على ساحل البحر حيث يضحُّ صراخُ الصباح ونوح المساء

تنهدتُ من مهجة أترعت بدمع الشقاء وشوك الأسي

فضاع التنهد في الضجة

بما في ثناياه من لوعة

فسرت وناديت ، يا أم ، هيا

إليّ فقد سئمتني الحياة

(١) الأيابة (بفتح الهمزة وكسرهما) : نور الشمس .

فترتيب هذا الموشح هكذا :

أ ————— ب^١

ج ————— ب

د —————

د —————

ه —————

و —————

ويأتي في هذه الموشح بعد المجموع الاول بمجموعان آخران يشبهانه في ترتيب القوافي .
ولكن نلاحظ ان الشاعر يعيد في الشطرين الاخيرين من قفلة المجموع الثاني قافيتي
الشطرين الاخيرين من قفلة المجموع الاول . اما في المجموع الثالث فان القفلة مؤلفة من
شطرين فقط يقابلان الشطرين الاولين في قفلة المجموع الاول والمجموع الثاني .

(النموذج الرابع)

ومن موشحات الشابي موشح جميل ذو ترتيب موسيقي مؤلف من ستة مجاميع ،

ترتيبه كما يلي :

لبت شعري

أي طير

يسمع الأحزان تبكي بين أحشاء الكئيب

ثم لا يتلو على الفجـر أغاريد النجيب

بخشوع واكتئاب ؟

وترتيب الاشطر في هذا الموشح مطرد في مجاميعه الستة . ولكن القوافي تختلف كثيراً .

وهذا الموشح موجود في هذه الدراسة فليرجع اليه في مكانه^٢ .

(١) هذه الاحرف لبت القوافي ، ولكنها رموز دالة عليها .

(٢) ص ٢٢١

(النموذج الخامس)

وكذلك للشامي نوع آخر من التوشيح مؤلف كل مجموع منه من بيتين فقط. قسم كل بيت منهما قسمين احدهما شطر كامل من بحر الرمل (فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن). والشطران التامان من البيتين مبنيان على روي واحد، كما ان الجزئين مبنيان على روي واحد آخر. وذلك مطرد في المجاميع الخمسة التي يتألف منها هذا الموشح، على الصورة التالية:

رُفِرت في 'دجنية' الليل الحزين زفرة الأحلام
فوق سرب من غمامات الشجون ملؤها الآلام

(النموذج السادس)

ويلفت النظر ان للشامي موشحاً مؤلفاً من سبع مجاميع مبنية على ترتيب واحد ولكنها كلها مطلقة من قيود القافية:

حطمت كف الأسي قيثارتي
في يد الأحلام
ففضت صمناً أناشيد الغرام
بين أزهار الحريف الذابيه
وتلاشت في سكون الاكتاب
كصدي الغريد

والغريب ان الشامي اطلق جميع القوافي في هذه الموشح، الا انه طابق بين شطرين فقط من كل مجموع في القافية، غير ان المطابقة جاءت في كل مجموع في مكان مغاير لكل ما عداها. فالمجموع في هذا الموشح مؤلف من ستة اشطر، تقع المطابقة في اشطرها كما يلي: في المجموع الاول: بين الشطرين الثاني والثالث.

في المجموع الثاني : بين الشطرين الثالث والرابع .
 في المجموع الثالث : بين الاشطر الاول والثاني والثالث .
 في المجموع الرابع : بين الشطرين الرابع والخامس .
 في المجموع الخامس : بين الشطرين الثاني والرابع .
 في المجموع السادس : بين الشطرين الثالث والرابع .
 في المجموع السابع : بين الشطرين الرابع والخامس .
 وبما تجدر ملاحظته ان الشابي يحب القوافي الساكنة لأنها تتيح له تحرراً من القافية
 المعربة فيكون مدى اختيار قوافيه اوسع . كما ان القافية الساكنة تكون احياناً موسيقية
 وتساعد بما فيها من « السكّات » عن اتساق معظم القوافي في نغم واحد ، بينما القوافي
 المعربة بالفتح والكسر والضم (في التوشيح خاصة) تتنافر ، وان كان الاعراب بضمني عليها
 شيئاً من جمال التنوع .
 والميل الى تسكين القافية عند الشابي غير قاصر على موشحاته ورباعياته ، بل يتناول
 قصائده ايضاً .

ولقد حاول السيد حسن محمد عبد الله شرارة ان يجمع بعض خصائص شعر الشابي
 في مقال مبني على دراسة لشعره وددت ان أخصه في الاسطر التالية ^١ :
 « الشابي شاعر مرهف الحس رقيق العاطفة نائر ، وهو ذو شاعرية فياضة فيها سحر
 ولها ديباجة . وهو شاعر وجداني له عشق خاص للجمال وغرام فريد بالطبيعة بما فيها من
 انهار وغابات ومن مظاهر آخر :

وفي ليلة من ليالي الحريف مثقلة بالأسى والضجر
 سكرت بها من ضياء النجوم وغنيت للنهر حتى سكير .
 ظمئت الى النور فوق العصون ؛ ظمئت الى الظل تحت الشجر ؛
 ظمئت الى النبع بين المروج يعني ويرقص فوق الزهر ؛

(١) مجلة الامالي السنة ١ ، العدد ١٦ ، ص ٨-١١ .

ظمئت الى نفحات النسيم وعزف الرباح ولحن المطر؛

ظمئت الى الكون؛ أين الوجود وأين أرى العالم المنتظر؟

« ثم انه كان متبرماً متشائماً في كثير من قصائده الاجتماعية والوجدانية كثير السخط والحنق على شعبه، ناقماً اشد النقمة على خمول بيته واستكاتها الى الخمول والكسل، حاملاً على التقاليد العتيقة ...

« وكان يطوف على شعره شيء كثير من الالم، ألم جسمه وألم نفسه فيحاول ان يهرب من عالم البشر الى عالم الطبيعة: حقيقة ومجازاً بجسمه وبشعره.

« وفي بعض شعر الشابي تجدد وموسيقى واسلوب فتان مبتكر ومعان جديدة جميلة وصور بديعة مشرقة، كل ذلك مضافاً اليه سلاسة وسهولة ورقة وشيء من الغموض يضفي على شعره شيئاً من الصوفية ومن الروعة معاً».

◊

وفي شعر الشابي خصائص متعددة، في بعضها نزعة عامة وفي بعضها الآخر تجدد وفي بعضها لون محلي. ثم فيه، كما رأينا، سهولة وموضوعات محدودة. كل هذا جعله يعبر نفسه للنقل. ويذكر ابو القاسم محمد كرو ان عدداً من قصائد الشابي قد نقلت الى الفرنسية والايطالية والانكليزية^١. وكذلك نقل الشاعر السويدي كارل ألوف سفننغ^٢ مؤخراً قصيدة اناشيد الرعاة الى اللغة السويدية شعراً^٣ ونشرها مع شيء من حياة الشابي وخصائصه في مجلة يوردبرو كارناس فورنغسبلاد^٤.

(١) الشابي ١٠-١٢ .

(2) Carl Elof Svenning.

(٣) الشاعر سفننغ يعرف عدداً من اللغات منها العربية ويحاول ان ينقل الى لغته شيئاً من الآداب المختلفة. ذكر ذلك في رسالتين له إلى تاريخها: لورداجن ٢٢ تموز و ١٩ آب ١٩٥٣ .

(4) Jordbrukarnas Foeringsblad, Loerdagen (Sverige) ١٩٥٤ تموز ٢٤ بتاريخ

٥ - فنونه

برع الشابي في فنون الشعر الوجدانية فله غزل كثير ونسيب ، وله شيء من الرثاء ، ثم له قصائد سياسية وموضوعية في مظاهر العالم، وله تأمل في الحياة وشيء من التحليل النفسي. والشابي لم يكن شاعراً متكسباً .
على ان اوسع فنونه الغزل والسياسة . اما تأمله في الحياة فمبثوث عادة في هذين الفنين العظيمين من فنونه الشعرية .



الغزل عند الشابي

للشابي بضع قصائد في الغزل قالها قبل ان يبلغ العشرين وبعد ان بلغ العشرين . وهي مزيج من الغزل والنسيب ، وفيها غزل صريح ومجون احياناً ، وفيها ألم وحسرة وشقاء وتشاؤم حيناً آخر . وفي غزله ونسيبه رنة أسي تطغي عليهما طغياناً كبيراً .
واكثر غزل الشابي قاله قبل بلوغ العشرين ، وذلك امر منتظر . ثم ان اكثر هذا الغزل عادي صريح ضعيف الخيال والبناء كثير التقليد ، وهذا ايضاً منتظر . وفي هذه الفترة - في السنوات الاخيرة قبل ان يبلغ الشابي العشرين من عمره - تزوج زواجه الخائب ثم أحب حبه الجارف ثم ماتت حبيبته .

من اول ما نرى من الغزل عند الشابي اربعة ايات عادية تقليدية اولها ١ :

علاتني بارتشاف الضرب ٢ من جنى نغري جميل أشنب ٢

قد تجلى طلعه من ظلم ٣ يخلب اللب بنظم الحب ٣

يذكر فيها اخلاف حبيبته بوعدها . ثم يبدو انه نال وصال هذه الحبيبة فذكر ذلك في قصيدة قديمة الاسلوب ضعيفة ، يذكر فيها الشابي شبه مغامرة تحمل شهاً لرائية عمر بن ابي ربيعة ٤ . أما مبدأ هذه القصيدة فهو ٥ :

(١) سنوسي ٢٤٣ .

(٢) القرب : العمل ، الشنب يياض الاسنان ، والبرودة ايضاً .

(٣) كذا في الاصل . ظلم يجب ان تكون ظلم . والبيت غامض المعنى جداً .

(٤) أمن آل نعم انت غادر فبكر .

(٥) سنوسي ٢٤٥ .

أنا مأسورٌ لذات الحُجُبِ بنبالٍ صوّبت عن كُتُبِ^١
 كاعبٌ هيفاءُ بَصٌّ طَفَلَةٌ دُمِيَّةٌ مِنْهَا جَمِيعُ الْعَجَبِ^٢
 خَطَرْتُ تَمْشِي بَرُوضَ زَاهِرٍ مَشِيَّةُ الْحَيْلِ بُوْحَلَ السَّبَبِ^٣

ثم يقول :

لست أنسى ليلةً حالكةً سُرِبَلْتُ زَرْقَاؤَهَا بِالسَّحَبِ^٤
 لبست ثوبَ ظلامٍ دامسٍ وَسَكُونِ هَائِلٍ ذِي رَهَبِ^٥
 ليلةً قد خضتها منفرداً فِي دِيَابِجِي جَوْفِ ذَاكَ الْغَيْبِ^٦
 سار بي مهريٌ فيها عَنَقاً وَزَمَاناً سِيرَهُ ذُو حُجُبِ^٧

حتى يقول :

فقضينا ليلةً جادت بها رَاحَةُ الدَّهْرِ الضَّيْنِ الْقَلْبِ^٨
 تحت ظل الحب والليل الذي ضَمْنَا فِي كَفِّهِ بِسُخْرِ بِي
 هكذا ... حتى إذا روّعنا ذَنْبَ الصَّبْحِ كَذَنْبِ الْعَقْرِبِ!^٩
 ثم قالت : يا حبيبي ، سر على كَلَّا^{١٠} الرَّحْمَنِ فِي الْمُنْقَلَبِ
 فتوادعنا وكلُّ قلبه فِي جَحِيمِ مَوْلَمٍ مَلْتَهَبِ .

وللشابي بضع قصائد من هذا النوع ليس فيها ابتكار ولا حسن خيال ولا قوة

تعبير كقوله ١١ :

- (١) كُتُبٍ : قُرْب .
 (٢) طَفَلَةٌ (بفتح الطاء) : نَاعِمَةٌ ، لَبَنَةٌ ، دُمِيَّةٌ : «جيلة مثل» الصورة أو التمثال .
 (٣) السَّبَبِ : الْأَرْضُ الَّتِي لَا مَاءَ فِيهَا .
 (٤) زَرْقَاؤُهَا : حَاوِيَاهَا .
 (٥) رَهَبٌ : خَوْفٌ ، إِخَافَةٌ .
 (٦) الْغَيْبِ : الظَّلام .
 (٧) الْحُجُبِ : نَوْعٌ مِنَ السَّيْرِ ؛ يَرَاوِحُ فِيهَا الْحِصَانُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَرَجْلَيْهِ . فِي هَذَا السَّيْرِ مَرِحٌ وَنَشَاطٌ .
 (٨) الْقَلْبِ الَّذِي لَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ .
 (٩) كَذَا بِسَكُونِ النَّوْنِ وَالصَّوَابِ فَتَحَهَا .
 (١٠) الْكَلَّا : الْعَثَبُ ، وَيُقْصَدُ الشَّيْءُ كُلُّهُ (بِسَكُونِ اللَّامِ) أَوْ كَلَامَةٌ : الْحَفِظُ وَالرَّعَايَةُ .
 (١١) سنوسي ٢٤٦ .

قلبي تردّي من على صهوات خيل الموى فغدا أسير فتاة ١ ؛
 معطار غاسقة الفروع عليه الـ أجفان ساحرة بعين مهابة ٢ .
 ترنو فتغزو كل قلب ثابت بشفار اشفار وحد قناة ٣ !

ولم يد على غزل الشابي ونسيه شيء من البراعة، في هذا الدور، حتى بدأ يشكو من
 الدهر ومن ضيق الحياة، ذلك لأنه بدأ يعبر عما يشعر هو به كقوله ٤ :

أيها الحب، أنت سر بلائي وهمومي وروعتي وغنائي
 ونحولي وأدمعي وعذابي وسقامي ولوعتي وشقائي

فهذه القصيدة تعد اثني عشر بيتاً فيها شيء من التجديد، ولكن التردد الكثير الذي فيها
 يطغى على ذلك التجديد فيذهب برويقه.

وأخيراً صفا شعر الشابي في الغزل لما اطلق نفسه على سجيته فصعد الزفرات وأكثر
 الشكوى وتبع الجمال حيث رآه. ولقد كان يعكر عليه صفوحاً حبه ان حياته مهددة في كل
 ساعة، وان هذه اللذة العظمى مدعاة الى تقصير أجله. وبما قد يحملنا على الاستغراب انه
 ليس للشابي براعة تذكر في غزله قبل العشرين من سنه.

اما بعد العشرين فقد اتسع باب الغزل عنده ممزوجاً مرة بالشكوى والتشاؤم، ومرة
 بالاندفاع والمجون. ولكن الشابي كان يميل في شعره هذا دائماً الى التجديد.

ومن اول ما يطالعنا في هذا الباب ان الشابي ظل - بعد ان جاوز العشرين من عمره
 يذكر حبه الاول ٥ :

(١) تردى : سقط .

(٢) معطار : لها شذا العطر وان لم تستعمل عطراً . وحق « معطار » التوين . غاسقة الفروع : شديدة
 سواد الشعر . المهابة : بقر الوحش ، نوع من الظباء .

(٣) بشفار اشفار : باهداب عيونها ؛ وهو يشبه كل هذب بشفرة . وحد قناة : انف اقنى (مستقيم) -
 ا . . حد قناة « غامضة » .

(٤) سنوي ٢٤٤ ، الشابي ١٢٦ .

(٥) فهي ٧١-٧٢ ، الشابي ١٨٢-١٨٣ .

لست، يا أمسي، أبكيك لجددك لجددك
 سلبته مني الذر يا وبزتي رداه^١

 إنما أبكيك للحدب الذي كان بهاه^٢
 يملاً الدنيا فأنسى سرت في الدنيا أراه
 فإذا ما لاح فجره كان في الفجر سنياه
 وإذا غرد طيره كان في الشدو صداه
 وإذا ما ضاع^٣ عطره كان في العطر شذاه ...

ثم يمر الشاعر في طور جديد: يرى ان لا فائدة من بكاء هذا الحب - وحياته هو كلها
 اسي وبكاء - فيحاول ان يسلي نفسه وان يتبدل بذلك الحب القديم حباً جديداً، كما ان
 الارض تتبدل دائماً بربيعها الماضي ربيعاً آتياً:

اسمكتي يا جراح واسكني يا شجون
 مات عهد الشواح وزمان الجنون
 وأطل الصباح من وراء القرون

*

في فؤادي الرقيب معبد للجمال
 شيدته الحياه بالرؤى والخيال
 فتلوت الصلاه في خشوع الظلال
 وحرقت البخور وأضأت الشموع
 ان سحر الحياه خالد لا يزول .
 فعلام الشكاه من ظلام يحول ؟
 ثم يأتي الصباح ونمر الفصول
 سوف يأتي ربيع ان تقضى ربيع !

(١) رداه : ثوبه (الصحة) .

(٢) كان الحب بهاه لامي .

(٣) ضاع : انتشر ، فاح .

(٤) فهمي ٥٧-٥٩ ، الشامي ٢١٥ .

ويحسن ان بدأ هذا الدور باثبات القصيدة التي يعدها محمد فهمي « عروس قصائد هذا الشاعر بل عروس جميع القصائد الغزلية في الشعر العربي »^١ اذ يبدو انه راعه فيها عدد من التشايب والاستعارات ابتداء من البيت السابع والعشرين . اما نحن هنا فيهمنا ان نرى فيها حبا جديداً لفتاة جديدة في حياة الشاعر . ولا أراني موافقاً لمحمد كرو الذي يرى ان هذه القصيدة بعينها قد قالها الشابي في فتاته الاولى التي « قد ماتت قبل وفاته بست سنوات تقريباً »^٢ . ان قوله :

انت نعيمين في فؤادي ما قد مات في امسي السعيد الفقيد ،
وتشبين في خرائب روحي ما تلاثى في عهدي المجدود^٣
من طموح الى الجمال ، الى الفن ، الى ذلك الفضاء البعيد .
وتبين رقة الشوق والاحلام والشجو والهوى في نشيدي ،
بعد ان عانقت كآبة ابا مي فؤادي وألمت تغريدي .

.....

فانفخي في مشاعري مرح الدن يا وُسدي من عزمي المجهود ،
وابعثي في دمي الحرارة علي اتغنى مع المنى من جديد .

يدل على ان القصيدة التي منها هذه الايات قيلت في فتاة غير فتاته الاولى . انه يريد من هذه الفتاة ان تعيد عهده السابق الذي كان قد انقضى . اما القصيدة كلها فهي :

عذبة^٤ انت كالطفولة ، كالأحلام كاللحن كالصباح الجديد ؛
كالسماء الضحوك ، كالليلة القمر ، كالورد ، كابتسام الوليد .
يا لها من وداعة وجمال وشباب منعم أملود^٥ .
يا لها من طهارة تبعث التقدير س في مهجة الشقي العنيد .

(١) فهمي ص ٤٥ ، الحاشية ١ .

(٢) الشابي : ٧٤ .

(٣) كذا في فهمي (ص ٤٦) ، في الشابي : المجدود (ص ١٥٧) .

(٤) فهمي ٤٥-٤٨ ، الشابي ١٥٦-١٥٩ .

(٥) هذا البيت ناقص في الشابي .

يا لها رفةً يكاد يرف الور
اي شيء تراك؟ هل انت فينو
لتعيد الشباب والفرح المعسو
ام ملاك السلام جاء الى الار
انت ، ما انت ؟ انت رسم جميل
فيك ما فيه من غموض وغمق
انت ، ما انت ؟ انت فجر من السح
فأراه الحياة في 'موتق الحسن' ؛
انت روح الربيع تختال في الدن
وتهب الحياة سكرى من العط
كلما ابصرتك عنياي ، تمشين
خفق القلب للحياة ورف الزه
وانتشت روحي ، الكئيبة بالحب ،
انت تحيين في فؤادي ما قد
وتشيدن في خرائب روحي
من طموح الى الجمال ، الى الفن ، الى ذلك الفضاء البعيد ؛
وتبين رفة الشوق والاح
بعد ان عانقت كآبة أيا
انت انشودة الأناشيد غنا
فيك شب الشباب وشحه السح

د منها في الصخرة الجمود .
س تهادت بين الوري من جديد ٢
ل للعالم التعيس العميد ؟
ض ليحي روح السلام العميد ٣ ؟
عبقري من فن هذا الوجود .
وجمال مقدس معبود .
ر تجلي لقلبي المعمود
وجلتي له خفايا الخلود
يا فتهترائعات الورد .
ر ويدوي الوجود بالتغريد .
ن بخطو موقع كالنشد ،
ر في حقل عمري المجرود
وغنت كالبلبل الغريد .
مات في امسي السعيد الفقيد
ما تلاشي في عهدي المجدود ٦ :
الى ذلك الفضاء البعيد ؛
لام والشجو والهوى في نشيدي ،
مي فؤادي وألجت تغريدي .
ك إله الغناء رب القصيد :
ر وشدو الهوى وعطر الورد ؛

(١) في « فهمي » : تكاد .

(٢) فينوس : الزهرة (بضم الزاي وفتح الهاء) كوكب سيار ، آلهة الجمال عند اليونان .

(٣) العميد : القديم .

(٤) في الشابي ، السحر ، وهو خطأ .

(٥) جلي ، كشف .

(٦) في الشابي ، المجدود ، والمجدود اصوب .

وتراى الجمال يرقص رقصاً
وتهادت في افق روحك اوزا
فتمايلت في الحياة كلحن
خطوات سكرانة بالاناشيد
وقوام يكاد ينطق بالألحان
كل شيء موقّع فيك حتى
انت انت الحياة في قدسها السا
انت انت الحياة في رقة الفجر
انت انت الحياة كل أوان
انت انت الحياة فيك وفي عيند
انت دنيا من الاناشيد والاح
انت فوق الحبال والشعر والفن
انت فوق النهى وفوق الحدود
انت قدسي ومعبيدي وصباحي
وربيعي ونشوتي وخلودي

*

يا ابنة النور، اني - انا وحدي -
من رأى فيك روعة المعبود،
فدعيني أعيش في ظلك العذب
ب وفي قرب حسنك المشهود ٣
عيشة للجهمال والفن والا
هام والظهر والسنى والسجود،
عيشة الناسك البتول يناجي الرب
في نشوة الدهول الشديد ٤
وامنحيني السلام والفرح الرو
حي يا ضوء فجرى المنشود،
وارحميني فقد تهدمت في كور
ن من اليأس والظلام مشيد.
انقذيني من الأسى فلقد أم
سبت لا استطيع حمل قيودي:
في شعاب الزمان والموت أمشي
تحت عبء الحياة جم القيود،

(١) هذا البيت ناقص في الشابي .

(٢) الشجي هنا بتسهيل الياء (بغير تشديد) احتمالاً على إقامة الوزن .

(٣) هذا البيت ناقص في الشابي .

(٤) في الشابي ، المعبود .

(٤) الرب كلمة نائية نادرة في هذا الموضع خارجة على عمود البلاغة من ادخال لام التعريف عليها .

وأماشي الوري ونفسي كالقبر
 ظلمة ما لها ختام، وهول
 وإذا ما استخفني عبث النسا
 بسمة مرة كأني استل
 وانفخي في مشاعري مراح الدن
 وابعني في دمي الحرارة علي
 وأبث الوجود أنعام قلب
 فالصبح الجليل ينعش بالدّف
 انقذيني فقد سئمت ظلامي ،
 ر وقلبي كالعالم المهدود .
 شائع في سكونها المهدود .
 س تبسمت في أمي وجمود
 من الشوك ذابلات الورد ؛
 يا وشدي من عزمي المجهود ؛
 اتغنى مع المنى من جديد ،
 بليلي مكبل بالديد ،
 حياة المحطّم المكودود .
 انقذيني فقد سئمت ركودي .

*

آه ، يا زهرتي الجميلة ، لو تد
 في فؤادي الغريب 'نخلتق' اكوا
 وشمس وضّاءة ونجوم
 وربيع كأنه حلم الشاعر
 ورّابة لا تعرف الحلك الدا
 وطبور سحرية تتناغى
 وقصور كأنها الشفق الخ
 وغيوم رقيقة تتهادى
 وحياة شعرية هي عندي
 كل هذا يشيده سحر عيني
 وحرام عليك ان تسحقي آ
 منك ترجو سعادة لم تجدها
 فالاله العظيم لا يرحم العبد
 رين ما جدّ في فؤاد الوحيد !
 ن من السحر ذات حسن فريد ،
 تنثر النور في فضاء مديد ،
 عر في سكرة الشباب السعيد ،
 جي ولا ثورة الحريف العتيد ^٢ ،
 بأناشيد حلوة التفريد ،
 ضوب او طلعة الصباح الوليد ،
 كأبديد من نثار الورد ،
 صورة من حياة اهل الخلود .
 لك وإلهام حسنك المعبود .
 مال نفس تصبو لعيش رغيد .
 في حياة الوري وسحر الوجود !
 د اذا كان في جلال السجود .

(١) هزل ، آتيان اعمال لا فائدة منها .

(٢) الرّابة : الرّبوة ، التّلة الصّغيرة . العتيد ، الامر المهيأ الحاضر . والشّاني بقصد ، المقبل . (والاستعمال
 سرياني ، « عتيدا » ، مضارع ، مستقبل) .

وهناك أيضاً قصيدتان توحيان بأن الشابي أحب ثم اغرق في حبه وبجآن بعد ان كان
حزيناً شاحباً ويأساً من الدنيا . ان هذا لا يمكن ان يكون الا بعد ان استفاق في قلبه حب
جديد . تبدأ القصيدة الاولى هكذا ١ :

رأعها منه صمته ووجومه
فاطلت بوجهها الباسم الخلد
وامرت كفاً على شعره العا
ثم قالت ، كأنها تتغنى
وشجاها شحوبه وسهومه ٢ .
و على خده بسحر تهيمه ٣ .
رى برفق كأنها ستنيمه
بشجي من الاغاني ، تلومه :

ثم يتابع الشاعر قوله على لسان هذه الفتاة :

خل عبء الحياة عنك وهيا
وامش في روضة الشباب طروباً
واتل للحب والحياة اغانيه
واحتضني فانني لك حتى
واقطف الورد من خدودي وجي
بجيا كالصبح طلق اديمه ،
فحواليك ورده وكرومه ،
لك واخل الشقاء تدنى كلومه ؛
يتوارى هذا الدجي ونجومه ،
لدى ونهودي وافعل به ما ترومه .

ثم يختم الشابي قصيدته هذه بالآيات التالية :

فرماها بنظرة غشيتها
وتلاها ببسمة قطفتها
ما تريد الهموم من عالم ضا
ليلة اسبل الغرام عليها
اغرق الفيلسوف فلسفة الاح
ان في المرأة الجميلة سحراً
سكرة الحب والاسى وغيومه .
شفة غضة الشباب رؤومه .
ت مسراته وغنت نجومه :
سحره الناعم الطير نعيمه .
زان في خرها . فمن ذا يلومه ؟
عقرباً يذكي الاسى ترنيمه !

ونحن نرى ايضاً مثل هذا المجون في قصيدة ثانية مملوءة بالمرح ونسيان الماضي

(١) الشابي ١٦٠-١٦٢ .

(٢) السهوم ، تغير اللون والنحول .

(٣) يقصد أهامه وهيمه .

وتطلب الاستفادة من الحاضر . هذه القصيدة الثانية هي ١ :

ها هنا ، في خمائل الغاب تحت الزا
انت اشهى من الحياة واهى
من جمال الطبيعة الميمون .
ض وفي جيدك البديع الثمين !
ن فأصفي لصوتك المحزون !
ناعمٍ حالمٍ شجيٍّ حنون
قد تغنيت منذ حين بصوت
نعماً كالحياة عذباً عميقاً
فلمن كنت تنشدن ؟ فقالت :
للضباب المورّد المتلاشي
كخيالات حالمٍ مقتون ،
جي ، لسحر الاسبى وسحر السكون .
للمساء المطل ، للشفق السا

.....

للشباب السكران ، للأمل المعبو
فتهدت ثم قلت : « وقلبي
قالت : « الحب » ، ثم غنت لقلبي
قبلاً علمت فؤادي الأغاني
قبلاً ترقص السعادة والح
وأفقتنا ، فقلت كالحالم المسجو
اي دنيا مسجورة ، اي رؤيا
رُمزٌ من ملائكة العالم الأء
وصبايا رواقص يتراشف
في فضاء مورّد حالم سا
وجحيم توج تحت فراد
اي خمر مؤجج ولهب
اي خمر رشفت ، بل اي نار

(١) الشابي ١٦٦-١٦٩ .

(٢) كذا في الاصل ، لعلها : لياس .

وردتها الحياة في لهب السحر ونور الهوى وظل الشجون!
 اي اثم مقدس قد لبسنا برودة في مسائنا الميمون!
 وسكنتنا، وغرد الحب في الفا ب فاصغي حتى حفيف الفصون .
 وبسنى الليل والربيع حوالبنا، من السحر والرؤى والسكون،
 معبداً للجمال والحب شعر ياً مشيداً على فجاج السنين ؛
 تحته يزخر الزمان ويجري صامتاً في مصبه المحزون،
 وتمر الآلام والحزن والموت بعيداً عن ظله المأمون .

هذا الغزل والمجون من شعر الشابي بعد العشرين من عمره وبعد ان كانت حبيته
 الاولى قد ماتت وقال فيها قصائده الحزينة ، تدل على حب جديد نبت على انقراض الحب
 الاول . ويصعب علينا ان نفسر هذه القصائد المجونية المتأخرة غير هذا التفسير . ثم هنالك
 عامل نفسي : ان كثيراً من الذين أحبوا حباً صادقاً ثم اصابتهم صدمة في جبههم هذا قد
 انقلبوا منغمسين في الملذات ضالين في شعاب الهوى متهتكين . ويبدو ان الشابي - مما نرى
 من شعره على الاقل - كان من هؤلاء .

(١) الشابي ١٤١ وما بعدها ، فهمي ٤٥ - ٧٢ .

الطبيعة في شعر الشابي

إذا عينا « بالطبيعة » عند الشابي ان في اشعاره كلمات تدل على مظاهر العالم المادي كالجبال والغيوم والرياح والاثمار والازهار والربيع والغابة، فان جميع شعره حينئذ يدخل في باب «وصف الطبيعة»، ذلك لأن هذه الكلمات كثيرة في اشعاره كثرة تطغى على كل نوع آخر من الكلمات. ولكننا نعني بوصف الطبيعة عند الشابي تلك الصور المقتنصة من العالم المادي الذي نعيش فيه.

ووصف الطبيعة عند الشابي - بهذا التعريف - قليل جداً، بل هو نادر بالاضافة الى مجموع شعره. على ان اقرب شعره المنشور الى وصف الطبيعة بالمعنى المقصود قصيدتان: قصيدته في تونس، وقصيدته « من اغاني الرعاة ».

أما قصيدته الاولى فهي « ذكريات » ايامه الاولى في بلدته في بلاد الجريد من جنوبي تونس. والوصف الحسي - على الحصر - في هذه القصيدة قليل جداً، ولكن فيها عدداً من الصور الطبيعية مجموع بعضها الى بعض على غير نسق مخصوص، انه يؤلف قصيدة ولكنه لا يؤلف وحدة وصفية. ثم ان وصف الطبيعة في هذه القصيدة غير مقصود لذاته ولكنه تمهيد الى « شكواه » المعهودة من الحياة. هذه القصيدة موسومة بالجنة الضائعة، وهي^١:

كم من عهود عذبة في عدوة^٢ الوادي النضير.
فِضْيَة الاسحار مُدَّ هَبَّةِ الاصائل والبكور.
كانت أرق من الزهو ر ومن اغاريد الطيور

(١) الشابي ١٨٤-١٨٨ .
(٢) المدوة (بالكسر او الفم) : ناحية النهر او البحر (الناحية المقابلة للمكان الذي يقف فيه الانسان) .

وألذ من سحر الصبا
 قضيتها ومعى الحبيب
 إلا الطفولة حولنا
 أيام كانت للحب
 وطهارة الموج الجميد
 ووداعة العصفور بيد
 أيام لم تعرف من الد
 وتتبع النحل الانية
 وتسلق الجبل المكمل
 وبناء اكواخ الطفو
 نبني وتهدمها الربا
 ونعود نضحك للمرور
 ونخاطب الأصداء وه
 ونعيد اغنية السوا
 ونظل نركض خلفه
 ونمر ما بين المروج
 نشدو ونرقص كالبللا
 ونظل ننثر، للفضاء الر
 ما في فؤادينا من
 ونشيد في الافق المنو
 ازهى من الشفق الجميد
 وأنجل من هذا الوجو
 ابدأ تدلنا الحيا
 وتبت فينا من مزاح
 ففسير تنشد لمونا
 في بسمه الطفل الغرير
 لا رقيب ولا نذير
 تلهو مع الحب الصغير
 حلاوة الروض المطير
 ل وسحر شاطئه المنير
 ن جداول الماء النير
 نيا سوى مرع السرور
 ق وقطف تيجان الزهور
 بالصنوبر والصخور
 لة تحت اعشاش الطيور
 ح فلا تضح ولا تنور
 ج وللزنابق والغدير
 يا تر في الوادي المنير
 في وهي تلفو بالحرير
 راب الفراش المستطير
 بخضر في سكر الشعور
 بل للحياة والجور
 حب والنهر الكبير
 احلام او حلو الغرور
 ر من امانينا قصور
 ل ورونق المرج الحضير
 د وكل امجاد الدهور
 بكل انواع السرور
 كون ما يغوي الوقور
 معبود في كل الامور

ونظلم نعبث بالجليه ل من الامور وبالحقير :
 بالسائل الاعمى وبالمعتوه والشيخ الكبير ،
 بالقطعة البيضاء بالشاة الوديعه ، بالخمير ،
 بالعشب ، بالفن المنور ، بالسنايل ، بالشعير ؛
 بالرمل ، بالصخر المحطه م ، بالجدول ، بالغدير .
 واللهو والعبث^٢ البري . الخلو مطمحنا الاخير .
 ونظلم نقفز او نغني او نثرثر او ندور
 لا نسأم اللهو الجلي ل وليس بدر كنا الفتور .
 فكأنتا نجيا بأه صاب من المرح المثير ،
 وكأنتا نمشي بأه دام مجنحة تطير
 ايام كنا لب هذا ال كون والباقي قشور ؛
 ايام نفرش سُبُلنا الد نيا باوراق الزهور ،
 ونمر ايام الحيا ة بنا كأسراب الطيور
 بيضاء لاغية مغرّ دة مجنحة بنور
 وترفرر الافراح فو ق رؤوسنا أنتى نسير .

*

آه ، تواری فجري ال قدسي في ليل الدهور
 وفني كما يفنى النشي د الخلو في صمت الانير .
 أواه ، قد ضاعت علي سعادة القلب الغرير ؛
 وبقيت في وادي الزما ن الجهم أداب في المسير
 وأدوس أشواك الحيا ة بقلبي الدامي الكسير ،
 وأرى الأباطيل الكثير ة والمآثم والشرور ،
 وتصادم الاهواء بالاه واء في كل الامور

(١) كذا في الاصل .

(٢) العبث (يفتح ففتح) : اللعب ، اللهو .

ومذلة الحق الضعيف ف وعزة الظلم القدير ؛
وأرى ابن آدم سائراً في رحلة العمر القصير ،
ما بين احوال الوجوه د ونحت اعباء الضمير ،
متسلفاً جبل الحياء ة الوعر كالشيخ الضير
دامي الأكف بمزق ال ا اقدام مغبرّ الشعور
متروحة الخطوات ما بين المزالق والصخور ،
هالته اشباح الظلام وراءه صمت القبور
ودويّ اعصار الأسي والموت في تلك الوعور .

*

ماذا جنيت من الحياء ة ومن تجاريب الدهور
غير الندامة والاسى واليأس والدمع الغزير .
هذا حصادي من حقو ل العالم الرحب الخطير .
هذا حصادي كله في بقطة العهد الاخير .

*

قد كنت في زمن الطفولة والسذاجة والظهور
أحباً كما تحبها البلا بل والجداول والزهور ،
لا تحفل^(١) الدنيا تدور بأهلها او لا تدور .
واليوم أحبها مرهق ال ا عصاب مشبوب الشعور
متأجج الاحساس أحـ قل بالعظيم وبالحقير ،
تمشي على قلبي الحياء ة ويزحف الكون الكبير .
هذا مصيري ، يا بني الدنيا ، فما اشقى المصير !

على ان القصيدة الثانية : « من اغاني الرعاة» اقرب الى وصف الطبيعة واشد صلة
بالحياة الطبيعية ، واسهل اسلوباً وابعد عن « الخيال المصنوع » الذي يملأ به الشابي قصائده .
ولعل مرجع ذلك الى ان الشابي نظم هذه القصيدة في مشاهد رآها وعاشها ولم يروها من

(١) اي لا تحفل الطيور : لا تبالي

ذكرياته . ذكر محمد فهمي في كتابه «الروائع لشعراء الجيل»^١ سبب نظم هذه القصيدة فقال :
حل الشاعر في الصائفة الماضية^٢ بعين دراهم^٣ من الشمال التونسي مستشفياً . وهناك
- فوق الطبيعة العذراء الساحرة والغابات الملتفة الهائلة والجبال الشم المجللة بالسنديان -
قضى عهداً شعرياً وادعاً خالصاً للشعر والسحر والاحلام . وفي القصيد التالي صورة صغيرة
من صور الحياة بين تلك الجبال والادوية والغابات .» .

ولا ريب في ان هذه القصيدة موقفة جداً في وصفها للحياة البسيطة الفطرية ، وهي
بلا ريب خارجة من قلب الشاعر واحسن تعبيراً عن نفسه من عدد من قصائده التي تكثر
الصنعة المعنوية فيها . ولقد لفتت هذه القصيدة انظار الشاعر الاسوجي كارل ألوف سفتنغ ؛
فنقلها شعراً الى اللغة الاسوجية (السويدية) بعد ان قدم له بكلمة في حياة الشاعر وخصائصه .
وهذه القصيدة منظومة رباعيات مزدوجة ، كل مقطع ثمانية اشطر قصار على روي
واحد . أما القصيدة فهي فيما يلي كاملة ° :

اقبل الصبح يعني للحياة الناعمة ،
والربي تحلم في ظل الغصون المائمه ،
والصبا ترقص اورا ق الزهور اليابسه .
وتهادى النور في تلك الفجاج الدامسه .

*

(١) الجزء الاول ، ص ٥٤ .

(٢) لا سبيل الى تحقيق السنة التي يشير اليها محمد فهمي . ان كتابه لا يحمل تاريخ طبعه ، غير انه ضم الى هذا
الجزء ترجمة للشاعر المغمشري وذكر ان عام وفاته كان كانون الاول ١٩٣٨ ، (ص ٩) مما يدل على ان الكتاب
طبع عام ١٩٣٩ على الاقل . اما الثاني فتوفي ١٩٣٤ . ويبدو ان محمد فهمي نقل هذه المقدمة من مجموع
مخطوط ولم يفكر في تحويلها لتوافق سنة طبع كتابه . ولكن لا بد من ان تكون هذه القصيدة من اخريات
قصائد الثاني .

(٣) عين دراهم بليدة في الشمال الغربي من تونس قريبة جداً من حدود الجزائر .

(4) Carl Elof Svenning.

(٤) راجع ص ١٨٧ ، الخاشية ٣

(٥) فهمي ٥٤-٥٦ ، كرو ٢٠٨-٢١٠ .

أقبل الصبحُ جميلاً يملأ الأفقَ بهاءً
فتمطى الزهر والطيرُ وأمواجَ المياه .
قد أفاق العالمُ الحيُّ وغنى للحياء ،
فأيقني يا خرافي وهلمي^١ يا شياه .

*

واتبعيني يا شياهي بين اسراب الطيور ،
وأملأي الوادي ثغاءً ومراحاً وحبور .
واسمعي همس السواقي وانثقي عطر الزهور
وانظري الوادي يُعشّيه الضباب المستنير .

*

واقطفي من كلاً الارض ومرعاها الجديد ،
واسمعي شبّابتي تشدو بمسول النشيد
تغم^٢ يصعد من قلبي كأنفاس الورود
ثم يسمو طائرًا كالبلبل الشادي السعيد .

*

وإذا جئنا إلى الغاب وغطّانا الشجر ،
فاقطفي ما شئت من عشب وزهر وثمر
أرضته الشمس بالوضوء وغذاه القمر
وارتوي من قطرات الطلّ في وقت السحر .

*

وامرحي ما شئت في الوديان أو فوق التلال ،
واربضي في ظلها ما شئت إن خفت الكلال ،
وامضغي الاعشاب والافكار في صمت الظلال ،

(١) في الشابي ، واهرعني لي يا شياه .

(٢) كذا في نهمي وفي الشابي . والاصوب: نغمًا

واسمعي الريح تغني في شماليخ الجبال .

*

ان في الغاب ازاير^١ رآ^١ واعشاباً عذاب^١
ينشد النحل حوالتيها اهازيح طراب ،
لم تدنس عطرها الطاهر^١ أنفاس^١ الذئاب
لا ولا طاف بها النع^١ لب في بعض الصحاب ؛

*

وشذاً حلواً وسجراً وسلاماً وظلال
ونسيماً ساحراً الخط^١ وة^١ موفور^١ الدلال
وغصوناً يرقص^١ الو^١ ر^١ عليها والجمال
واخضراراً ابدياً ليس تحويه الليال .

*

إن تملكي، يا خرافي ، من حمى الغاب الظليل ،
فزمان^١ الغاب^١ طفل^١ لاعب^١ عذب^١ جميل ؛
وزمان^١ الناس^١ شيخ^١ عابس^١ الوجه^١ ثقيل^١
يتشمى في ملال^١ فوق^١ هاتيك^١ السهول .

*

لك في الغابات مر عاي^١ ومسعاي^١ الجميل^١ ،
ولي^١ الانشاد^١ والعزف^١ الى وقت^١ الاصيل .
فاذا طالت ظلال^١ الكلال^١ الغض^١ الضئيل^١
فهلمي^١ نترجيع^١ المس^١ معي^١ الى^١ الحى^١ النبيل .

(١) ازاير ممنوعة من الصرف ، واذا بقيت في هذا البيت ممنوعة فان وزنه لا يخل .

(٢) رجوع (بوزن : ضرب يضرب) : رد ، اعاد . - والمعنى المقصود في البيتين الاخيرين غامض ،
إلا ان يكون الشاعر قد قصد « اذهب بك الى الغابات لترعين العشب فيها ريثما يطول العشب في حين النبيل
تعود اليه » .

السياسة والقومية

وقصائد الشابي في الوطنية والسياسية والقومية لا تقل عن قصائده الجياد في الغزل من حيث البراعة والقوة ، حتى ان شهرة الشابي كلها مدينة لشعره القومي أو لبضعة ابيات من شعره القومي . وقصائد الشابي الوطنية والسياسية مزيج من الاسلوب القديم والاسلوب الحديث ، ومن القوة والسلاسة ، ومن التشاؤم والتفاؤل . ولقد نظم هذه القصائد في طوريه كليهما : قبل ان يبلغ العشرين وبعد ان بلغها .

وفي قصائده الاولى من هذا الباب - قبل ان يبلغ العشرين - فخر وتهديد وامل بالمستقبل ، وكثير منها يجري الشاعر فيه على الاسلوب القديم الفخم المتين (مع ضعف في اللغة او التركيب هنا وهناك) كقوله :

أرى المجد معصوب الجبين مُجَدِّلاً على حسك الآلام يغمره الدم ٢ .
وقد كان وضّاح الاسارير باسماء يخف الى الجلتى ولا يتبرم ٣ .
الا ايها الظلم الدُّصَعْرُ خَدَّه ٤ ، رُوَيْدُكَ ان الدهر يبيني ويهدمُ .
أغرك ان الشعب مُعْتَضٍ على قذى ٥ ، لك الويل من يوم به الشر قشعهم !
سيشار للعز المحطّم تاجُهِه رجال اذا جاش الردى فهم هم ،
رجال يروون الذل عاراً وسبّةً ولا يرهبون الموت والموت مُقَدِّمُ .

(١) سنوي ٢١٢ ، الشابي ١٠٢

(٢) معصوب الجبين : يقصد الشاعر مضمد جراح الرأس ، مجدلاً : صريعاً ، ملقى .

(٣) الجلى : المكرمة والأمر العظيم .

(٤) صدر خده : أعال وجهه ، اشاح بوجهه عن الناس تكبراً عليهم .

(٥) القشعهم : النمر الكبير السن . يقصده يوم يعظم الشر .

وهل تعتلي إلا نفوسُ أبيّة^١ تصدّع اغلال الهوان وتفصم .
 الا إن احلام البلاد دفينّة تججم في اعماقها ما تججم .
 ولكن سيأتي بعد لأيٍ نشورها وينبتق اليوم الذي يسترم^١ .
 هو الحقُّ يبقى راكداً ، فاذا طفى باعماقه السخطُ العصف يدمدم .
 وينحط كالصخر الاصح ، إذا هوى ، على هام اصنام العتو فيحطم^١ .
 اذا صعقَ الجبار تحت قيوده سيعلم أوجاع الحياة ويفهم^٢ .

ثم هو يعود مرة بعد مرة الى التنويه بالظلم وتهديد الخصم والى الايمان بقوة الحق اذا
 التف حوله قومه^٣ :

يقولون: صوت المستذلين خافت وسمع طواغيت التجبر اصخم^٤ .
 وفي صيحة الشعب المسخر زعزع* ونخر له شم العروش ، وتهدم .
 ولعلعة الحق الغضوب لها صدى ، ودمدمة الحرب الضروس لها غم .
 إذا التف حول الحق قوم فإنه^٥ يصرم أحداث الزمان ويبرم .

وله ابيات تشتم بالحرب^٦ مطلعها :

هل الحروب سوى وحشية نهضت في أنفس الناس فانقادت لها الدول
 ولكن ليس فيها براعة خاصة تذكر بها .

ومثل هذه الايات ابياته الوطنية في تونس . غير انني آثرت اثباتها - على ضعفها - لأن
 الشاعر قالها في وطنه ورثى لحال ذلك الوطن إلا أنه وثق له بالمستقبل الذي سيرد له
 مكاتته^٧ :

(١) الأبي : الشدة والحنة . والشائي يظن ان الأبي : المدة من الزمن .

(٢) صعق : مات من صيحة عظيمة او نحو ذلك .

(٣) سنوي ٢١٤ ، الشابي ١٠٥

(٤) اصخم : اصم .

(٥) فان الحق

* زعزع صفة لكلمة ريح المحذوفة . وهي الريح الشديدة التي تزعزع الاشياء . وما ان الريح مؤتة
 فيجب ان يقول : نخر لها شم العروش ...

(٦) سنوي ٢٤٠ ، الشابي ١٠٤

(٧) سنوي ٢٤٨ ، الشابي ١٠٦

لست أبكي لعسف ليل طويل
إنما عبرني لحطب ثقيل
كلما قام في البلاد خطيب
أخذوا صوته الإلهي بالعس
البسوا روحه قميص اضطهاد
وتوخوا طرائق العسف والار
هكذا المصلحون في كل صوب
غير أنا تناوبتنا الرزايا
أو لربيع غدا العفاء مراحه^١ .
قد عرانا ، ولم نجد من أزاحه :
موقف * شعبه يريد صلاحه
ف ، أماتوا صداحه ونواحه ؛
فانتك ، شائك ، يرد جماحه ؛
هاق معه ، وما توخوا السباحه^٢ .
رشقات الردى اليهم متاحه .
واستباححت حمانا^٣ أي استباحه !

انا يا تونس' الجميلة' ، في لجج
شرعتي حبك العميق ، وإني
لا أبالي... وإن أربقت دمائي ؛
الموى قد سبحت أي سباحه .
قد تذوقت 'مره' وقراحه^٤ .
فدماء العشاق دوماً مباحه !

إن ذا عصر ظلمه غير اني
ضيع الدهر مجد شعبي ولكن
من وراء الظلام شممت 'صباحه .
ستورد الحياة' يوماً وشاحه .

ولكن الشابي سرعان ما ينظر الى قومه نظرة العاذل المؤنب لأنهم يرضون بهذه الحياة
ولا يثورون على الظلم والظالمين مع ان الله خلقهم احراراً^٦ :

خافتَ طليقاً كطيف النسيه
تغرّد كالطير أين أندهت
وتمشي كما شئت بين المروج
م وحرّاً كنور الضحى في سماه
ت وتشدو بما شاء وحي الاله
ج وتقطف ورد الربى في رباه .

(١) اصبح مكانه الحراب ، خراباً ، جاء الحراب عليه .

كذا في سنوسي وفي الشابي . والصواب موقظاً .

(٢) توخوا الثانية يجب ان تكون أيضاً بفتح الحاء وسكون الواو ، ولكن الوزن يمتثل حينئذ

(٣) حمانا يمتثل بها الوزن لزيادة الف الضمير .

(٤) الماء القراح : الصافي الخالص .

(٥) شام : رأى

(٦) الشابي ١٤٩

كذا صاغك الله ، يا ابن الوجو د ، وأفتك في الكون هذي الحياة
 فما لك ترضى بذل القيو د ونحني لمن كبتوك الجباه ؟
 وتقع بالعيش بين الكهو ف ؛ فأين النشيد وابن الاباه ؟
 أنتشى نشيد السماء الجمي ل ؟ أترهب نور السما في فضاء ؟
 الا انض وسر في سبيل الحيا ة فمن نام لم تنتظره الحياة !

على ان اروع قصائده في هذا الباب قصيدتان طويلتان هما اللتان خلقتا له شهرة او خلقتا له الشهرة . والحق ان في هاتين القصيدتين قوة وبراعة وتحليلاً جميلاً . وهما يجريان على اسلوبه الطلق الحديث ، اذ هما من طوره الثاني بعد بلوغ العشرين ، ولذلك نجد فيهما كثيراً من التضج وان كانت روح التهور لا تزال تسيطر عليهما . وكلتا القصيدتين تصور ثورة نفسية جامحة .

اما القصيدة الاولى الموسومة « بالنبي المجهول »^٢ ففيها تقرير للشعب ويأس من نهوضه وعزم الشاعر على الخلوة في غابة بعيداً عن الناس حتى لا يرى قلة استحقاتهم للحياة ، لانه هو فيلسوف وشعبه جاهل لا يفهم عنه ما يقول .

وها هي القصيدة الاولى تامة وقد بدأها الشاعر بخطاب قومه^٣ :

في صباح الحياة ضمخت اكرأ بي وارتعتها بجمرة نفسي .
 ثم قدمتها اليك فاهرة ترحيقي ودست باشعب كأسي
 فتألت ثم اسكت آلا مي وكفكفت من شعوري وحسي
 ثم نضدت من ازاخير قلبي باقة لم يسبها اي إنسي ،
 ثم قدمتها اليك فمزقة ت ورودي ودستها اي دوس .
 ثم البستي من الحزن ثوباً ، وبشوك الصخور نوجت رأسي .

*

(١) الاباه ، الاياة (بفتح الهزة وكسرهما) : نور الشمس . ولماها : الاباه جمع اليه - بتشديد الياء : الذي لا يرضى ان يحمل الظلم .

(٢) فهمي ٦٥ ، ٤١ ، ٢٩٨ - ٢٠١

(٣) فهمي ٦٥ - ٦٨ ، الثاني ١٩٨ - ٢٠١ . في هذه القصيدة اختلاف في الترتيب . ولقد اتبعت ترتيب

محمد فهمي لأنه احسن انساقاً . اما كرو (في الثاني) فيقدم الايات ١٢ - ٢٠ ويجمها مطلقاً .

ها انا ذاهب الى الغاب يا شه
ها انا ذاهب الى الغاب علي
ثم انساك ما استطعت فما از
سوف اتلو على الطيور اناسي
فهي تدري معنى الحياة وتدري
ثم افضي هناك في ظلمة الليل
ثم تحت الصنوبر الناضر الحد
وتظل الطيور تلعو على قب
وتظل الفصول تمشي حوالي
ايها الشعب ، ليتني كنت حطاً
ليتني كنت كالسيول اذا سا
ليتني كنت كالرياح فاطوي
ليتني كنت كالشتاء اغشى
ليت لي قوة العواصف ، يا شه
ليت لي قوة الاعاصير إن ضج
ليت لي قوة الاعاصير ، لكن
انت روح غيبية تكره النو
انت لا تدرك الحقائق ان طا

بي لأفضي الحياة وحدي بيأس ؛
في صميم الغابات ادفن نفسي ،
ت بأهل لجرتي ولكأسي .
دي وأفضي لها باحزان نفسي ،
ان مجد النفوس بقطة حس .
ل وألقي الى الوجود بيأس ؛
وتخط السيول حفرة رمسي ،
ري ويشدو النسيم فوقي همس ،
كما كن في غضارة امس .
بأ فأهوي على الجذوع بفأسي*
لت تهد القبور رسماً برمس .
كل ما يخنق الزهور بنحس .
كل ما اذبل الحريف بقرس .
بي ، فألقي اليك ثورة نفسي .
ت فأدعوك للحياة بنبس^٣ .
انت حي يقضي الحياة برمس .
ر وتقضي الدهور في ليل ملس^٤ .
فت حواليك دون مس وجس .

*

ايها الشعب ، انت طفل صغير لاعب بالتراب والليل مُعَس^٥ .

(١) هذا البيت والايات البلاث التي تليه غير موجودة في « فهمي » .

* فأهوي يجب ان تكون منصوبة بان مضمرة بعد فاء السببية بعد التمني ، يا ليتني . وكذلك (في الايات التالية) : فاطوي ، فألقي ، فأدعوك . ولكن الشابي فلما يفتن لذلك او انه يفعل ذلك اذا لم تتأت له استقامة الوزن باتباع القاعدة .

(٢) القرس : البرد .

(٣) بكلام خفيف

(٤) الملس : اختلاط الظلام

(٥) اغشى الليل : اظلم .

انت في الكون قوة لم تَسُسْها فكرة عبقرية ذات بأس .
 انت في الكون قوة كتبتُها ظلمات العصور من امس امس .
 والشقي الشقي من كان مثلي في حساسيتي ^١ ورقة نفسي .

*

هكذا قال شاعر^١ ناول الشع ب رحيق الحياة في خير كأس
 فأشاحوا عنه ومرّوا غضايا واستخفوا به وقالوا بيأس :
 « قد اضاع الرشاد في ملعب الج ن ، فيا يؤسه أصيب بس ^٢ :
 طالما خاطب العواصف في الل ل وناجى الاموات في كل رسم ،
 طالما رافق الظلام الى الغا ب ونادى الارواح من كل جنس
 طالما حدثت الشياطين في الوا دي وعثى ، مع الرياح ، بجرس ^٣ .
 انه ساحر^٤ تعالاه السحر الشيا طين كل مطلع شمس .
 ابعدوا الكافر الحيث عن اله كل ، ان الحيث منبع رجنس ؛
 واطردوه ولا تصيخوا اليه فهو روح شريرة ذات نحس ،
 هكذا قال شاعر فيلسوف * عاش في شعبه الغبي بتعس ^٤ .
 جهل الناس روحه واغانيه ها فساموا شعوره سوم بنحس .
 فهو في مذهب الحياة نبي ، وهو في شعبه مصاب^٥ بس .
 هكذا قال ، ثم سار الى الغا ب ليجيا حياة شعر وقُدس ^٥

*

وبعيداً هناك في معبد الغا ب الذي لا يُظله اي بؤس ،
 في ظلال الصَّبَوْبِ الحلو والزي تون يقضي الحياة جرساً بجرس ^٦

(١) هذه الصيغة غير قاموسية .

(٢) المس : الجنون .

(٣) الجرس : الصوت :

* هذا الشطر لا يتسق في المعنى مع الايات التالية . فالاصوب ان يكون : ذاك ما نال شاعراً فيلسوفاً...

(٤) التعس : الشقاء والبؤس

(٥) طهارة .

(٦) في الشابي : حرساً بجرس . الحرس بالحاء المهملة : الدهر .

في الصباح الجميل يشدو مع الطير
 نافخاً نايه حواليه تهتر
 شعره مرسل تداعبه الريد
 والطيور الطراب تشدو حواليه
 وتراه عند الاصيل لدى الجدد
 او يعني بين الصنوبر او
 فاذا اقبل الظلام ، وامست
 كان في كوخه الجميل مقبياً
 عن مصب الحياة ابن مداه
 وعبير الورود في كل واد
 وهزيم الرياح في كل فجج^٨
 واغاني الرياح ابن يوار
 ر وبشي في نشوة المتحسي^١ ؛
 ورود الربيع من كل قنس^٢ ؛
 حج على منكبيه مثل الد مقس ،
 وتلغو في السرو من كل جنس .
 ول ينو للطائر المتحسي^٣ ؛
 ينو الى سدفة الظلام المتحسي^٤ .
 ظلمات الوجود في الكون تغمسي^٥
 يسأل الكون في خشوع وهمس ،
 وصميم الوجود ايان يرمي^٦ ،
 ونشيد الطيور حين تسمي^٧ ،
 ورسوم الحياة من امس امس ،
 ها سكون الفضا وابن تسمي^٩ .

*

هكذا يصرف الحياة ويُفني
 حلقات السنين حرساً بحرس^{١٠} .
 يا لها من معيشة في صميم الغا
 ب تضحى بين الطيور وتسمي .
 يا لها من معيشة لم تدن
 ها نفوس الوري بنجبت ورجس .
 يا لها من معيشة هي في الكو
 ن حياة غريبة ذات قدس .

ونحن نلاحظ ان القوافي تتكرر في هذه القصيدة. فالقافية «نفس» ترددت خمس مرات
 و «رمس» اربع مرات و «ياس» و «امس» و «كأس» ترددت كل واحدة منها ثلاث

(١) المتحسي : الذي شرب الخمر .

(٢) قنس : اصل ، جنس .

(٣) السدفة بالفتح وبالضم : الظلمة

(٤) الذي يشرب الماء (بأمن وحرية) .

(٥) تغمي : تظلم

(٦) ايان : متى ؟ والشابي يستعملها بمعنى : اين .

(٧) تسمي (بتشديد السين) : تصدح مساء كأنها تقول للناس مساء الخير .

(٨) فجج : الطريق بين جبلين .

(٩) في الشابي : اغاني الرعاة .

(١٠) حرساً : دهرأ .

مرات . وهنالك نحو عشر قواف ترددت كل واحدة منها مرتين . ثم جاء الشابي بمشتقات
امسى في القافية اربع مرات ايضاً .

واما القصيدة الثانية الموسومة « بارادة الحياة »^١ فهي « معلقة الشابي » . انها بلا ريب
اشهر قصائده ، ولعلها احسن قصائده ايضاً . ثم انها قصيدة عامة : انها ليست وطنية في التغني
بتونس وحدها ، ولا سياسية تشع بالحرب فتوهم ان صاحبها اميال الى معسكر دولي مخصوص ،
ولا هي اقليمية ضيقة الافق . على ان احسن ما فيها انها مفعمة بروح الامل مليئة بالثقة
بالتفلس عند القول . وهذه القصيدة ، كمعظم شعر الشابي ، فيها صور شعرية جميلة وتشاويه
واستعارات جديدة صحيحة ، غير انها ايضاً - كمعظم شعره - مملوءة بالرمز الذي يجعل
المعاني غامضة في كثير من الاحيان . على ان قيمة هذه القصيدة انما هي في ابيات معدودة
متفرقة ينقص من جمالها انها تأتي بين ابيات فيها معان مرددة مكرورة معادة ، وهذه خاصة
تعم شعر الشابي كما رأينا من قبل .

وعلى الرغم من ان القصيدة موضوعية تصويرية وصفية فانها ايضاً وجدانية ، حتى إنها
غنيت فوجدت تعبير نفسها للغناء . ولقد سار مطلع هذه القصيدة مجرى الامثال ودار على
كل شفة ولسان فردده الابداء والناشئون . ولا ريب عندي بان هذا البيت المبتكر بتركيبه
لا بمعناه ، قد احدث هزة قومية في العالم العربي لا لأنه القى على الناس درساً في الوطنية
او القومية . ولا لأنه جلا معنى لم يكن معروفاً من قبل ، ولكن لأنه وضع فكرة مجردة في
تعبير مادي واقعي يعلق بالذهن ويضجح في الذاكرة .

اما القصيدة فهي^٢ :

إذا الشعب يوماً أراد الحياةَ فلا بد أن يستجيب القدر !
ولا بد لليل ان ينجلي ولا بد للقيـد ان ينكسر

(١) فهي ٦٣ ، الشابي ٥٩ ، ٦٠ ، ٥٩ .

(٢) هذه القصيدة تمد عند فهي (ص ٦٣ - ٦٤) ثمانية وعشرين بيتاً ، وفي الشابي (ص ١٥٢ -

١٥٥) ثمانية وخمسين .

ومن لم يعانقه شوق الحياة^١ تبخر في جوها واندر .
 كذلك قالت لي الكائنات^٢ وحدثني روحها المستر
 ودمدمة^٣ الريح بين الفجاج وفوق الجبال وتحت الشجر .
 إذا ما طمحت^٤ الى غاية لبست^٥ المنى وخلعت الحذر ،
 ولم انخوف^٦ وعود الشعاب ولا كَبَّه^٧ اللهب المستعر^٨ .
 ومن لا يحب^٩ صعود الجبال يعيش^{١٠} ابد^{١١} الدهر بين الحفر .
 فعمجت^{١٢} بقلبي دماء الشباب ، وضجت^{١٣} بقلبي رياح آخر^{١٤} ؛
 واطرقت^{١٥} أصغي لعزف الرياح وقصف^{١٦} الرعود ووقع المطر .
 وقالت لي الأرض - لما تساءل^{١٧} ت : يا أم^{١٨} ، هل تكرهين البشر؟
 « ابارك في الناس اهل الطموح ومن يستلذ^{١٩} ركوب الحطر .
 وألن^{٢٠} من لا يماشي الزمان^{٢١} ويقنع^{٢٢} بالعيش عيش الحجر .
 هو الكون حي^{٢٣} بحب الحياة ويحتقر^{٢٤} الميت المنذر .
 فلا الأفق يحضن^{٢٥} ميت^{٢٦} الطيور ولا النحل يلثم^{٢٧} ميت^{٢٨} الزهر .
 ولولا امومة^{٢٩} قلبي الرؤوم لفررت^{٣٠} عن الميت تلك الحفر .
 فويل لمن لم تشقه^{٣١} الحيا ة من لعنة العدم المنتصر^{٣٢} .

*

وفي ليلة من ليالي الخريف ف 'مثقلة' بالأمسى والضجر ،
 سكرت بها من ضياء النجوم وغنيت^١ للنهر حتى سكر ،
 سألت الدجى هل تعيد الحياة - لمن اذبلته - ربيع العمر؟
 فلم يتكلم فؤاد الظلام ولم تتوهم^٢ عذارى السحر .
 وقال لي الغاب في رقة محبة مثل خفق الوتر :
 يجيء الشتاء شتاء الضباب ، شتاء الثلوج ، شتاء المطر ،

(١) يقصد : الشوق الى الحياة .

(٢) في فهمي : ودمدمة ، وفي الشابي ، ودمدمت . ولكن « دمدمة » اصح لأنها عطف على فاعل الجملة
 الاصلية (الكائنات) لا على فعل الجملة المطبوعة (وحدثني) .

(٣) ولا الكبة في اللهب المستعر .

فينطقىء السحر : سحر الغصون وسحر النار وسحر الزهر ،
 وسحر السماء القوي البديع وسحر المروج الشهي العَطِير .
 وتهوي الغصون وأوراقها وازهار عهد جميل نَضِير ،
 وتلهو بها الريح في كل وادٍ ويدفنها السيل انسى عفر^١ .
 ويفنى الجميع كحلم بديع تألقت في مهجة واندثر .
 وتبقى البذور التي حَمَلَتْ ذخيرة عمرٍ جميل غَبَر .
 وذكري فصول ورؤيا غيوم واشباح دنيا تلاثت زمر ،
 معانقة وهي تحت الشوج وتحت الضباب وتحت المطر
 لضيف الحياة الذي لا يُمَلُّ وقلب الربيع الجميل العطر ،
 وحاملة بأغاني الطيور وعطر الزهور وطعم الثمر .
 ويمشي الزمان فتتمو صروف وتذوي صروف وتحيا آخر^٢ .
 وتصبح احلامها يقظةً موشحة برداء السحر ،
 تسائل : اين ضباب الصباح وسحرُ المساء وضوء القمر
 واسراب ذاك الفراش الجميل ونخل يعني وغيم يمر ؟
 ظمئت الى النور فوق الغصون ، ظمئت الى الظل تحت الشجر ،
 ظمئت الى النبع بين المروج يعني ويرقص فوق الزهر .
 ظمئت الى الكون ، اين الوجود واين ارى العالم المنتظر .
 هي النور بين رحاب الفضاء وفي عالم اليقظات الكُـبَر ؛
 وما هو إلا كخفق الجنا ح حتى نما شوقها وانتصر .
 فصعدت الارض عن صدرها وابصرت النور عذب الصور .
 وجاء الربيع بأطيافه واحلامه وصباه النضر .
 وقبلها قبلة في الشفاء تعيد الشباب الى ما غبر .
 وقال لها قد منحت الحياة وخلدت من نسلك المدخر ؛
 ومن نابت النور احلامه يباركُهُ النور انسى ظهر .

(١) كذا في الاصل . عفر في القاموس : ضرب به الارض .

(٢) ؟

إليك الثرى الحالم المزدهر . إليك الفضاء ، إليك الضياء
فبيدي كما شئت فوق المروج بجانب النار وغيض الزهر ؛
وناجي النسيم وناجي الغيوم وناجي النجوم وناجي القمر ؛
ولا تسأمي نغمات الحياة ولا فتنة العالم المعتبر .

*

وشف الدجى عن جمال عميق قوي الغواية حلو الصور ؛
ومدّ على الكون سحر غريب بصرفه ساحر مقتدر .
وضاءت شموع نجوم السماء ، وضاع البخور بخور الزهر ،
ورفرف روح غريب الجمال بأجنحة من ضياء القمر ،
ورق نشيد الحياة المقدّ س في هيكل حالم قد سحر .
وأعان في الكون ان الطموح حبيب الحياة وروح الظفر .
إذا طمحت للحياة النفوس فلا بد ان يستجيب القدر .



الربا وما يلحق به

وكذلك ليس للشابي رثاء بالمعنى المصطلح عليه في فنون الادب عامة. ولكن له تحليلاً لنفسه هو صاعه في ثمانية ابيات لما توفي والده . في هذه المقطوعة يبين لنا الشابي لماذا كان مخطئاً في تشاؤمه . كان الشابي يعتقد ، حينما كان في كفالة ابيه غير شاعر بتكاليف الحياة ، ان الحياة المادية لا قيمة لها فكان يصرف وجهه عن الحياة كلها. اما الآن فقد صدمه واقع الحياة واره ملء عينيه ان المرء لا يحيا إلا اذا كد في حياته، ولا يستطيع الانسان الكد الا اذا كان متفائلاً . والشابي هنا لم يتكرر اسلوب الرثاء الذي جرى عليه لما ذكر وفاة والده ذكراً عارضاً ثم استطرد الى تحليل نفسه والى النظر في واقع الحياة . لقد فعل ذلك قبله كثيرون منهم جرير وبشار وابن الرومي في رثاء ابنائهم .

قال الشابي في رثاء والده :

ما كنت احسب بعدموتك يا بني ،	ومشاعري عمياء بالاحزان ،
اني سأظماً للحياة واحتمى	من كأسها المتوهج النشوان ؛
واعود للدنيا بقلب خافق	للحب والأفراح والاحزان
ولكل ما في الكون من صور المني	وغرائب الالهواء والاشجان
حتى تحركت السنون واقبلت	فتن الحياة بسحرها الفئان .
فاذا انا طفل الحياة المنتشي	شوقاً الى الاضواء والالوان ،
واذا التشاؤم بالحياة ورفضها	ضرب من البتهان والهديان .

(١) الشابي ٦٦ - ٦٧ ، ١٤٦ .

ان ابن آدم في قرارة نفسه عبد الحياة الصادق' الايمان .

وهنالك قصيدة يصح ان تعد في باب الرثاء مطلعها :

يا ايها الطفل الذي قد كان كاللحن الجميل .

هذه القصيدة قسمان : قسم يبلغ اثنين واربعين بيتاً يصف فيها الشاعر موت طفل وصفاً خيالياً ويذكر كيف ان الناس يحزنون قليلاً لموته ثم ينسونه . حتى مظاهر الطبيعة كأموج البحر والبلبل والجداول كلها تنساه . اما رفاق هذا الطفل فانهم يظنون يتساءلون عنه مدة ثم يعلمون ان الغيلان قد حملته في الليل الى مكان ناء فينسونه مرة واحدة ايضاً .

تَسَيِّتُكَ امواج البحر رة والنجوم اللامعة
والبلبل الشادي وها تيك المروج الشاسعة
وجداول الوادي النضير همسها وخريرها
ومسالك الجبل الصغير ر بعشبا وزهورها .
حتى الرفاق' فإنهم لبثوا مدى يتساءلون ،
في حيرة مشبوبة : ابن اختفى عنا الامين ؟
لكنهم علموا بانك في الليالي الداجية
حملتك غيلان الظلام الى الجبال النائية ،
فنسوك مثل الناس واز صرفوا الى اللهو الجميل
بين الخائل والجدا ول والروابي والسهول .

ثم هنالك في هذه القصيدة قسم آخر يبلغ اربعة وخمسين بيتاً يصف فيه الشاعر قلب الام وكيف انه هذا القلب وحده لا ينسى . واذا اراد ان ينسى فكل ما في مظاهر الوجود يذكره « بالصغير الميت » . وفي هذا القسم تأمل في الموت والحياة :

كل نسوك ولم يعو دوا يذكرونك في الحياة ؛
والدهر يدفن في ظلام الموت حتى الذكريات

إلا فؤاداً ظل يح
 وبود لو بذل الحيا
 فاذا رأى طفلاً بكاء
 يصغي لصوتك في الوجو
 يصغي لتغمتك الجمي
 في انة المزم
 في ضجة البحر المجلا
 اعرفت هذا القلب في
 هو قلب امك ، امك
 هذا هو القلب الذي
 يشدو بشكوى حزنه
 لا ربة النسيان تر
 كلا ولا الايام تسبلي
 إلا إذا ضفرت له الالة
 وغدا شقياً ضاحكاً
 هو ذلك القلب الذي ،
 وتدفع الزمن المدم
 وتغنت الدنيا وغر
 سيظل يعبد ذكرها
 في في الوجود الى لفاك
 الى المنية واقتداك .
 ، وان رأى شبحاً دعاك ؛
 ولا يرى إلا بهاك ،
 في خري الساقية ،
 في لغو الطيور الشادية ،
 جل ، في هدير العاصفه . . .
 ظماء هاتيك للحدود ؟
 السكري باحزان الوجود .
 سيعيش كالشادي الضير
 الداجي الى النفس الاخير .
 حم حزنه وترى بكاه ؛
 في اناملها اساه
 دار اكليل الجنون
 تلهو بمرآه السنون .
 مها تقلبت الحياة
 دم في شعاب الكائنات
 د بلبل الغاب الجميل ،
 تك لا يمل ولا يميل . . .

هذه القصيدة - على ما فيها من تطويل وما في اسلوبها من تمططي ، وجدانية جيدة .
 ويشبه ان يكون الشابي يرثي بها نفسه .
 وثمت ايضا قصائد لا شك في ان الشابي رثي فيها حبيته التي ماتت ، منها هذا
 الموشح .^١

(١) سنوي ٢٢٨ - ٢٢٩ ، الشابي ١١٦ - ١١٧ .

لبت شعري،
أي طير
بسمع الأحزان تبكي بين احشاء الكئيب
ثم لا يتلو على الفجر ر اغاريد النجيب
بخشوع واكتئاب ؟

.....

في الدياجي
كم أناجي
مسمع القبر بغصّات نجيب وشجوني !
ثم أصغي علني أسمع ترديد انيني
فأرى صوتي فريد !

فأنادي :

يا فؤادي ،

مات من تهوى ؛ وهذا اللحد قد ضم الحبيب
فابك ، يا قلب ، بما فيك من الحب الكئيب :
إبك ، يا قلب ، وحيد !

مات حبي ؛

مات قلبي .

فاذرفني ، يا مقلة الليل ، الدراري عبّرات
فوق قلبي فهو قد ودّع أوجاع الحياة
بعد ان ذاق اللهب .

وللشابي قصيدة طويلة تبلغ ستة وخمسين بيتاً مطلعها ^٢ :

(١) حي بكمر الحاة : محبوبتي .

(٢) سنوي ٢١٥ - ٢١٨ ، الشابي ١٢١ - ١٢٤ .

ايها الليل ، يا ابا البؤس والهول
ل ويا هيكال الزمان الرهيب ،
يقول فيها :

جرفت من قرارة القلب احلاما
ممي ، الى اللحد ، جائزات الخطوب
فتلاشت * على نخوم الليالي
وتهاوت الى الجحيم الغضوب .
وثوى في دُجْنَةِ الليل وَمَضُ
لم يزل بين جَبْنَةِ وذُهوْب .
ذكريات تيمس في ظلمة القلب
ر - ضالاً كرائعات المشيب!
وله قصيدة اخرى مطلعها ^١ :

سُمت الحياة وما في الحياة
ولما تجاوزت فجر الشباب
تنتهي بالآيات التالية :

ذوت في الربيع ازاهيرها فمِتْنِ واحلامهن العذاب .
لَوَيْنَ النحور على ذلّةٍ ونِمينَ وقد مصهن التراب .
فمال الجمال وغاض العبير ، واذوى الردى جفن تلك الكعاب .

ونحن اذا قرأنا كثيراً من قصائد الشابي بشيء من انعام النظر والتأمل ألفيناها في رثاء
تلك الحبيبة التي فقدتها الشاعر في ربيع حياته وحياتها . من ذلك مثلاً قصيدته التي تعد
اربعة وتسعين بيتاً والتي يتكلم فيها على شعره خاصة وعلى الشعر عامة ^٢ :

يا شعر ، انت فم الشعور وصرخة الروح الكئيب .
ثم ان الشابي يقول في هذه القصيدة نفسها ^٣ :

ارابت ازهار الربيع وقد ذوت اوراقها
فهوت الى صدر التراب وقد قضت اشواقها؟
ارابت سُجُورَ الفلا مُتَرَفِّماً بين الغصون

(٠) فتلاشت احلامي .

(١) سنوسي ٢١٩ ، الشابي ١٢٥ .

(٢) سنوسي ٢٢١ ، الشابي ١٣٥ .

(٣) سنوسي ٢٢٤ ، الشابي ١٣٨ .

جَدَّ النشيدُ بصدرة لما رأى طيف المنون ؛
 ففضى وقد غاضتُ أفا ريد الحياة الطاهره
 وهوى من الاغصان ما بين الزهور الباسره ١ ؟
 ارأيت ام للطفل تبُّ كي ذلك الطفل الوحيد
 لما تناوله بعن ف ساعد الموت الشديد؟
 اسمعت نوح العاشق الوا هات ما بين القبور
 يبكي حبيبته ؟ فيا لم صارع الموت الجسور!

ولا ريب في ان قصيدة الشابي ٢ :

بالامس قد كانت حيا في كك السماء الباسمه
 واليوم قد امت كاء ماق الكهوف الواجم

والتي يقول فيها عن حبه الذي يشبهه بالجدول ثم ينسب تفجيره في مهجته الى فتاة كانت له
 حيناً سعادة ثم توارت بالموت، هي في الفتاة التي احبها بعد زواجه. يقول الشابي في هذه القصيدة:

هو جدول قد فجرت ينسبوعه في مهجتي
 اجفانُ فاتنة ارتد نبيها الحياة لشقوتي :
 اجفانُ فاتنة ترا مت لي على فجر الشباب
 كمروسة من غانيا ت الشعر في شفق السحاب،
 ثم اخفت خلف السما وراء هاتيك الغيوم
 حيث العذارى الخالدا ت يمسن ما بين النجوم.
 ثم اخفت، أو آه، طا ثرة بأجنحة المنون
 نحو السماء . وها انا في الارض تمثال الشجون.

(١) معنى البيت غامض

(٢) سنوسي ٢٥١ ، الشابي ٧٤ و ١٢٨ .

الموضوعيات

في مجموعة شعر الشابي قصائد أراد ان يعالج الشاعر فيها موضوعات معينة وإن لم تتأت له هذه المعالجة إلا قليلاً. اما ابرز الموضوعات التي أراد ان يتناولها فموضوع «الشعر والشاعر» وموضوع «الفنان» و«القلب». وهناك نظراته في الموت والحياة سآفرد لها فصلاً خاصاً لكثرتها.

☆

لا نستطيع ان نقول ان للشابي آراء حكيمة أو صائبة في الحياة لاسباب مختلفة، اولها وأعظمها انه كان شاعراً وجدانياً ينساق مع عاطفته ولا ينظر إلى الامور بعقله. ثم انه لم يبلغ مبلغاً من السن يؤهله لقول الحكمة، على الرغم من انه كان يزعم - من قبل ان يبلغ العشرين - بأن التجارب قد حنكته! ومع ذلك كله فان له اياتاً في الحكمة متفرقة له فيها فضل حسن الصياغة لا فضل الابتكار، وفضل اللفظ لا فضل المعنى. فمن اياته العامة في الادب والتي ينظر فيها الى الحياة نظرة فاحص قوله^١:

لقد خدعتني في الحياة شبيبتى ولكنني قد حنكتني التجارب^٢.
فقد كنت ألقى للدجى برغائبي فأبصرها فوق الدنا تتخاطب^٣.
ولكن احلام الشباب ضئيلة تحطمها، مثل العصون، المصاب^٤.

* * *

سألت الديباجي عن اماني شبيبتي فقالت ترامتها الرياح الجوانب .
ولما سألت الريح عنها اجابني تلقفها سبيل القضا والنوائب
فصارت عفاء، واضمحلت كذرة، على شاطئ الأيام، والموج صاخب .

إن هذه الايات التي يزعم الشابي فيها انه محك نافذ البصر تنكشف - على رغم ما فيها من قوة بناء ظاهرة - عن ضعف في اللغة . وإن أدنى تأمل فيها يكشف عما فيها من عيوب في استعمال « ترامتها » وفي تذكير « الريح » وسواهما .

وهناك مقطوعة اخرى عامة في الادب فيها من ضعف التركيب وتكرار المعاني ما في القطعة السابقة ١ :

ضعف العزيمة لحد في سكينته	تقضي الحياة بناءً اليأس والوجل .
وفي العزيمة قوات مسخرة	يخر دون مداها الشاهخ الجبل .
والناس شخصان : ذا تسعى به قدم	من القنوط ، وذا يسعى به الأمل :
هذا إلى الموت والأجدات ساخرة	وذا إلى المجد والآمال تتصل .
ما كل فعل يجل الناس فاعله	بجداً، ولا كل من خاض الدجى بطل .
المجد صنقات : صنف في تقابله	لحن الخلود وصنف فوقه اجل .
ما المجد إلا ابتسامات يفيض بها	فم الزمان إذا ما أنسدت الحيل .
وليس بالمجد ما تشقى الحياة به	ويجسد اليوم امساً ضمه الأزل .

ومن قصائد الشابي التي تشبه ان تكون موضوعاً لأنها تتناول موضوعاً واحداً معيناً وتنطوي على شيء من التحليل الموضوعي قصيدة له مطلعها ٢ :

يا قلب ، كم فيك من دنيا محجبة كأنها حين يبدو فجرها إرم ٣ ،

تكلم فيها الشاعر على القلب فقط لم يتجاوزه الى غيره . ومع ان في هذه القصيدة جنوحاً

(٠) بناء : بنى العبد . تقضي الحياة : تموت .

(١) سنوسي ٢٣٨

(٢) الشابي ١٧٢ - ١٧٣ .

(٣) ارم مدينة قديمة كانت عظيمة مزدهرة قوية ثم خربت : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد : ارم ذات العماد ،

التي لم يخلق مثالا في البلاد » (القرآن ٨٩ : ٦ - ٨ من سورة الفجر . راجع ايضاً مقدمة ابن خلدون (١٤) .

كثيراً الى الخيال والذكريات فان الشاعر يذكر شيئاً من اختبارات القلب وآفاقه. ولعله يخاطب بهذه القصيدة قلبه :

يا قلب ، كم من مسراتٍ وأخبيلةٍ ولذة ، يتحامي ظلّها الألم ،
 غنت لفجرك صوتاً حالمًا فرحاً نشوان ، ثم توارت وانقضى النغم !
 يا قلب ، كم قد تملّيت الحياة وكم راقصتَها مرحاً ما مستك السأم ؛
 وكم نسجت من الاحلام ارديةً قد مزقتها الليالي وهي تبسم ؛
 وكم ضفرت اكاليلاً مودة طارت بها زرع تدوي وتحدثم ،
 وكم رسمت رسوماً لا تشابهها هذي العوالم والاحلام والنظم :
 كأنها ظلل ٢ الفردوس حافلةً بالخور ، ثم تلاثت واختفى النغم .
 تبلو الحياة فتبليها وتخلعها وتستجد حياةً ما لها قدم .
 وانت انت : شباب خالد نضر مثل الطبيعة لا شيب ولا هرم .

ويتصل بهذه القصيدة قصيدة اخرى تناسبها في الموضوع لانها تتحدث ايضاً عن القلب، ولكن الشاعر يبدأها بالكلام على الشعور والعاطفة والفن . مطلع هذه القصيدة ^١ :

عش بالشعور وللشعور فانما دنياك كون عواطف وشعور .
 شيدت على العطف العميق ، وانها لتجف لو شيدت على التفكير .

وهي تنتهي بالمقطع التالي :

وافتح فؤادك للوجود وخله لليم ، للأمواج ، للديجور ،
 للتلج تنوره الزوابع ، للاسى ، للهول ، للآلام ، للمقدور .
 واتركه يفتح العواصف هائماً في افقها المتلبد المرقور ،
 ويجوز احشاء الوجود مقامراً في ليلها المتهيب المحذور ،
 حتى تعانقه الحياة فيرتوي من ثغرها المناجج المسجور
 فيعيش* في الدنيا بقلب زاخر يقظ المشاعر حالم مسحور :
 في نشوة صوفية قدسية هي روح هذا العالم المنظور .

(١) الشامي ٢٠٦ - ٢٠٧ . (*) في الاصل : فتعيش .

(٢) الظلال « بضم الظاء وفتح اللام جمع ظلة بضم الظاء وتشديد اللام » : السحاب المتراكب المتراكم، وشيء كالسقف فوق الرؤوس . وقد وردت هذه الكلمة ست مرات في القرآن الكريم ، ولكن لم تستعمل في الحسير والمادة كما استعملها الشامي هنا .

وكثر اشعار الشابي في الشعر والشاعر قبل العشرين من عمره وبعدها : إنه ينظم
 الشعر ليُسَرِّي به عن نفسه ويصور حاله . ثم هو لا يتكسب بشعره ولا يتملق فيه احد ،
 بل يريد ان يرضي به ضميره ويرضي به وطنه . وللشابي قبل بلوغ العشرين قصيدتان تناول
 فيهما الكلام على الشعر ، على شعره ، وأجاد فيهما . اما القصيدة الاولى فهي ^١ ،

شعري نفاثة قلبي ان جاش فيه شعوري .
 لولاه ما انجاب عني غيم الحياة الحطير ؛
 ولا وجدت اكنثائي ، ولا وجدت سروري .
 به تراني حزينا ابكي بدمع نذير .
 به تراني فروحاً^٢ اجر ذيل حبوري .

*

لا انظم الشعر ارجو به رضاء الامير :
 بمدحة او رثاء تُهدى لرب السرير .
 حسبي اذا قلت شعراً ان يرتضيه ضميري !

*

ما الشعر الا فضاء يرف فيه مقالي
 في ما يسر بلادي ، وما يسر المعالي ،
 وما يثير شعوري من خافقات خيالي .

*

لا اقرض الشعر ابغي به اقتناص نوال .
 الشعر إن لم يكن في جماله ذا جلال
 فانما هو طيف يسمى بوادي الضلال ،
 يقضي الحياة طريداً في ذلة واعتزال .

(١) سنوي ٢٢٧ ، الشابي ٩٩ .

(٢) كذا .

وهناك قصيدة ثانية طويلة جداً يناجي بها الشابي شعره . إن الشعر مظهر لبؤس النفس وصوت نواحيها . من اجل ذلك يطلب الشابي الى قلبه ان يتجلد في النوايب ويتجمل في المصائب وأن يكون متفائلاً . غير أن الشابي كثير الاحزان فهو لا يملك إلا ان يحزن ، من اجل ذلك فقط نراه ينوح في قصائده وعلى احلامه التي ذهبت ادراج الرياح . والقصيدة التي نحن بصدها تشبه الرباعيات المزدوجة ، على اعتبار ان كل بيتين منها يجمعهما روي واحد . وازدواج هذه الرباعيات يعود الى أن كل اربعة ابيات منها يدوران على معنى واحد ، على الرغم من ان لهما رويين مختلفين . على ان الشابي لا يتقيد دائماً بازدواج الرباعيات في المعنى ، بل يستمر المعنى في ازدواج متعدد من الرباعيات . قال الشابي يخاطب شعره^١ .

يا شعر - انت فم الشعور وصرخة الروح الكئيب .

يا شعر - انت صدى نجيب القلب والصب الغريب .

يا شعر - انت مدامع علق باهداب الحياة .

يا شعر - انت دم تفجر من كؤوم الكائنات .

يا شعر ، قلبي - كما تدري - شقي مظلم ،

فيه الجراح النجل^٢ ، يتطر من مغاورها الدم .

جمدت على شفتيه ارزاء الحياة العابسه .

فهو التعيس ، به مرارات القلوب اليابسه .

ابدأ ينوح بحرقة بين الاماني الهاوية

كالبلبل الغريد ، ما بين الزهور الذاوية .

كم قد نصحت له بان يسلو ، وكم عزيت^٣ه !

فأبى وما اصغى الى قولي ، فما اجديته^٣ .

كم قلت : صبراً ، يا فؤاد ، اما تكف عن النجيب ؛

فاذا تجلجت الحياة تبددت شعل الهميب .

(١) سنوسي ٢٢١ - ٢٢٦ ، الشابي ١٣٥ - ١٤٠ .

(٢) النجل : الواسعة ، العبيقة

(٣) ما اجديته : ما نفعته ، ما استطعت ان انفعه .

يا قلب ، لا تجزع امام تصلب الدهر المصور .
 فاذا صرخت توجعاً ، هزئت بصرختك الدهور .
 يا قلب ، لا تسخط على الايام فالزهر البديع
 يُصغي لضجّات العواصف قبل انغام الربيع .
 يا قلب ، لا تقنع بشوك اليأس ما بين الزهور ،
 فورا اوجاع الحياة غدوية الامل الجسور .
 يا قلب ، لا تسكب دموعك بالفضاء فتندم ^٢
 فعلى ابتسامات الفضاء قساوة لا ترحم .

لكن قلبي ، وهو مخضّل الجوانب بالدموع
 جاشت به الاحزان اذ طفحت بها تلك الصدوع .
 يبكي على الحلم البعيد ... بلوعة لا تنجلي
 غرداً ، كصدّاح الهوائف في الفلا ، ويقول لي :
 طهر كلامك بالدموع وخلها وسيدتها .
 إن المدامع لا تضع ، صغيرها وجليلها .
 فن المدامع ما تدقع ، جارفا حسك الحياة
 يرمي لهاوية الوجود بكل اشواك الطفاه .
 فارحم مضاضته ، ونح معه على احلامه .
 فلقد قضى الحلم البديع على لظى آلامه .
 ردد على سمع الدجى أنات قلبي الواهية ،
 واسكب بأجفان الزهور دموع قلبي الدامية ؛
 فلفل قلب الليل اشفق ^٣ بالقلوب الباكية !
 ولعل جفن الزهر احفظ للدموع الجارية !

(١) قبل ان يصغي الى انغام الربيع . انه يهتم بالاصفاء الى العواصف لانه يخشاها ثملا يبالي بانغام الربيع
 لأنها لا تضره .

(٢) لا يجوز هنا تسكين الغافية . والشايب يرفع « فتندم » مع ان حقها النصب .

(٣) يقصد : اكثر اشفاقاً على القلوب الباكية .

كم حركت كف الاسبى اتاور ذباك الحنين
فتهاملت (?) احزان قلبي في اغاريد الانين .
ولكم ارقنت مدامعي حتى تقرحت الجفون ؟
ثم التفت فلم أجد قلباً ، يقاسمني الشجون .
فعسى يكون الليل ، ارحم ، فهو مثلي يندب ؛
وعسى يصون الزهر دمعى ، فهو مثلي يسكب .

قد قنت كف السماء الموت بالصمت الرهيب
فعدا كأعماق الكهوف ، بلا ضجيج او وجيب ،
يأتي بأجنحة السكون كأنه الليل البهيم .
لكن طيف الموت قاس ، والدجى طيف رحيم .
ما للمنية لا ترق على الحياة النائمة ؟
سيان افئدة تنن ، او القلوب الصادحة .
يا شعر ، هل خلقت المنون بلا شعور كالجناد ،
لا رعشة تعرف يديه إذا تملكه الفواد !
أرأيت ازهار الربيع وقد ذرت اوراقها
فهوت الى صدر التراب وقد قضت اشواقها ؟
أرأيت شجور الفلا ، متوغماً بين العصون ،
جدد النشيد بصدرة لما رأى طيف المنون ؛
فقضى وقد غاصت اغاريد الحياة الطاهرة ،
وهوى من الاغصان ما بين الزهور الباسرة ١
أرأيت أم الطفل تبكي ذاك الطفل الوحيد
لما تناوله بعنف ساعد الموت الشديد ؟

(١) باسرة : متجمعة ، غابة حزناً على الشجور الذي مات .

اسمعت نوح العاشق الوهّان ما بين القبور
بيكي حبيبته؟ فيا لِمَ صارع الموت الجسور^١!

طففت باعماق الوجود سَكينة الصبر الجليد^٢
لما رأى عدلَ الحياة يضمه اللحد الكنود
فندفقت لحناً يردده على سمع الدهور
صوت الحياة بضجة، تسعى على شفة البحور^٣ .
يا شعر - انت نشيد امواج الخضم الساحرة
الناصعات، الباسمات، الراقصات، الطاهرة،
السافرات، الصادحات، مع الحياة، الى الأبد!
كعرانس الأمل الضحوك، يَمَسِّن ما طال الامد.

*

ها مات ازهار الربيع تبست اكمامها
ترنو الى الشفق البعيد، تغرّها احلامها .
في صدرها امل يحدّق نحو هاتيك النجوم .
لكنه املٌ ستلجده جبارة الوجود .
فلسوف تغمض جفنها عن كل اضواء الحياة^٤
حيث الظلام مخيمٌ في جو ذباك السبات .
ها انها همست بأذان الحياة غريدها (?)
فقلت عصفير الصباح صداحتها ونشيدها .
يا شعر - انت نشيد هاتيك الزهور الباسمة .
يا ليتني مثل الزهور بلا حياة واجمه .

(١) للمصارع التي يأتي بها الموت .

(٢) الضمير في « تدفقت » وفي « تسعى » يعود على « الحياة » .

ان الحياة كثيفة ، مغمورة بدموعها .
والشمس اضجرتها الأبي في صحوها وهجوها ،
فتجرت كأنساً دهاقاً ، من سُشْبَعَةِ الشفق
فتأملت سكرى الى كهف الحياة ولم تُفدق ...
يا شعر - انت نجيبها لما هوت لسباتها .
يا شعر - انت صداحها في موتها وحياتها !

*

انظر الى شفق السماء يفيض عن تلك الجبال
بشعاعه الخلاب يغمرها بديسات الجمال ،
فبشير في النفس الكثيفة عاصفاً لا يركد ،
ويؤجج القلب المعذب شعلة لا تخمد .
يا شعر - انت جمال اضواء الغروب الساحرة ،
يا صم امواج المساء الباسمات الحائرة .
يا شعر - يا قبارة الاحلام ، يا ابن صبايتي !
لولاك مت بلوعي وبشفوتي وكآبتي .
فيك انطوت نفسي وفيك سكبت كل مشاعري .
فاصدق على قم الحياة بلوعي ، يا طائري !

وظل إعجاب الشابي بشعره وبآرائه في الشعر زمناً طويلاً بعد بلوغه العشرين . وله
في هذا الدور ثلاث قطع قصار . فالشابي يرى ان شعره قطعة من نفسه يمثله ويصور ما
يجيش في صدره هو ، ثم ان هذا الشعر ايضاً يمثل العالم الذي يحيا فيه الشاعر او الذي
يجب ان يحيا فيه الشاعر . انه على كل حال صفحة من حياته .

والشابي لا يزال - في هذا الدور - يرى انه يقول الشعر ليُسَرِّي به عن نفسه في هذا
العالم المملوء بالآلام وبالاحزان وبالبشر الذين يحبهم هو وإن كانوا هم لا يشعرون بهذا
الحب او لا يستحقونه . إن الشابي ينظم الشعر لأنه يريد ان ينظمه بصرف النظر عن

وجود اشخاص يمكن ان يستفيدوا من هذا النظم فيستنيروا به او يهتدوا . انه كالطيور التي تغرد وكالنجوم التي تنير وكالورود التي تفوح رائحتها سواء أكان هنالك بشر يستفيدون من ذلك كله او لم يكن ، وسواء أكان هؤلاء اهل لهذه النعم او لم يكونوا . يقول الشابي في ذلك كله ' :

أنت ، يا شعر ، فلذة من فؤادي	تتغنى وقطعة من وجودي .
فيك ما في جوانحي من حنين	أبدي إلى صميم الوجود .
فيك ما في خاطري من بلاء ،	فيك ما في عواظي من نشيد .
فيك ما في مشاعري من وجوم	لا يغتني ومن سرور عهد .
فيك ما في عوالمي من ظلام	سرمدي ومن صباح وليد .
فيك ما في عوالمي من نجوم	ضاحكات خلف الغمام الشرود .
فيك ما في عوالمي من ضباب	وسراب ويقظة وهجود .
فيك ما في طفولتي من سلام	وقنوع وغبطة وسعود .
فيك ما في شيبتي من أمان	بأحبات ومن غرام سعيد .
فيك ما في شيبتي من قنوط	مدلمم وحيرة وجمود .
فيك تشدو مع الربيع طيور	وتغني مع الصباح ورودي .
فيك أقي بذور نفسي فتلقني	في ثناياك خير نبع برود .
فيك أجن في الصيف ما بذرت نقد	سي حواليك من بذور الخلود .
فيك ترعى من الحريف أعاصير	ري وتدوي صواعقي ورعودي .
فيك تدوي زهور قلبي فتلقني	ما لها من غداث وبرود .
فيك يبدو شتاء نفسي عبوساً	شاحب اللون عاري الأملود .
كلماته الحياة بالحزن الدا	مي وغشته بالرياح السود .

*

أنت ، يا شعر ، صفحة من حياتي ؛ أنت ، يا شعر ، قصة من وجود .

أنت ، يا شعر ، إن فرحتُ أغاريد
 أنت ، يا شعر ، كأسُ نمر جميل
 أنحسّاه في الصباح لأنسى
 وأنجيه في المساء لألهو
 أنا - لولاك - لم أطقُ عنتَ الدهر
 أنت ما نلتُ من كهوف الليالي
 فيك ما في حقيقة الكون من عَقْد
 فيك ما في الوجود من حَلَكِ دا
 فيك ما في الوجود من نَعَمِ حُلْد
 فيك ما في الوجود من جبل وعَد
 فيك ما في الوجود من حَسَكِ يُد
 فيك ما في الوجود من زَهَرِ حُلْ
 فيك ما في الوجود من وَهَجِ الصي
 فيك ما فيه من خريفٍ حزينٍ ،
 فيك ما في الوجود : حَبُّ بنو الدهر
 فسواء على الطيور - إذا غتت
 وسواء على النجوم - إذ لا
 وسواء على الورود أفي الغيد
 ران^٦ فاحت أم بين نهد وجيد !
 دي ؛ وإن رنتِ الكآبة عودي .
 أتلهي به خلال اللهود .
 ما تقضى في أمسي المفقود ؛
 بمُميّاه عن ظلام الوجود .
 ر - ولا فرقة الصباح البعيد .
 وتصفتُ من كتاب الخلود .
 يدِ حصي زائفٍ ودرّ نضيد .
 ج وما فيه من ضياء بعيد .
 و - وما فيه من زئير الأسود .
 ر - وما فيه من حضيض وهيد^١ .
 مي وما فيه من غضيض الورود .
 و - وما فيه من هشيم حصيد .
 ف وما فيه من شتاء عتيد^٢ .
 فيك ما فيه من ربيع جديد .
 يا قصيدي أم لم يحبّوا قصيدي^٣ .
 ت - هتاف الثوروم والمستعيد^٤ .
 حت - هدوء الدجى وقصف الرعود^٥ .
 ران^٦ فاحت أم بين نهد وجيد !

وللشابي مقطوعة يعدد فيها بعض مايجول في خاطر الشاعر - او في قلبه على حد تعبيره -
 انه يعيد هنا في هذه المقطوعة القصيرة ما عدده في القصيدة الطويلة السابقة . والشابي متأثر

(١) يقصد « عميق » .

(٢) يقصد « شديد » .

(٣) حب فعل ملضم من أحب . ولكن بعد سواء يحبان يأتي الفعل مسبوقة بهمزة الاستفهام : أحب ، أحب ...

(٤) الذي يقاطع المعنى هتاف الاستهزاء او الاستحسان .

(٥) في الاصل (الثاني ١٤٤ ، البيت الرابع من اسفل) : قصف الورود ، ولعله خطأ مطبعي . ولكن

لا تزال تقرأ في الطبعة الثانية (بيروت ١٩٥٤) : قصف الورود (ص ١٦٣) .

(٦) الغيران جمع غار : التجويف في الجبل .

في هذه القصيدة - في الأرجح - بمقطوعة لمحيي الدين بن عربي^١ يرى فيها ان جميع
مظاهر هذا الوجود تدل على هذا التجلي او على ذلك التجلي من الالوهية . يقول ابن عربي^٢ :

كلما أذكره من طلل او ربوع او مغان ، كلما ...
وكذا العجب إذا قلت : بكت ، وكذا الزهر إذا ما ابتسما ،
او بروق او رعود أو صبأ او رباح او جنوب او شما^٣
او نساء كعبات 'نهدي' طالعات او شمس او 'دمي'^٤ .
صفة 'قدسية' علوية أعلمت ان لمثلي قدما^٥ .
فاصرف الخاطر عن ظاهرها واطلب الباطن حتى تعلمها .

ويغلب على الظن ان الشابي قد رأى هذه المقطوعة لمحيي الدين بن عربي قبل ان قال
مقطوعته التالية^٦ :

كل ما هب وما دب وما قام او حام على هذا الوجود :
من طيور وزهور وشذا وينابيع واغصان تמיד ،
وبجار وكهوف وذرى وديار وبراكين وبيد ،
وضياء وظلال ودُجى وفصول وغيوم ورعود ،
وثلوج وضباب عابر واغصير وامطار تجود ،
وتعاليم ودين ورؤى واحاسيس وصمت ونشيد ؛
كلها تحيا بقلبي حرة غضة السحر كاطفال الخلود .

-
- (١) فقيه ومتصوف اندلسي عاش في الشرق . ولد سنة ٥٦٠ للهجرة (١١٦٥ م) وتوفي ٦٣٨ للهجرة
(١٢٤٠ م) ودفن بدمشق .
(٢) ترجمان الاشواق ، ص ١٣ ، التصوف في الاسلام للدكتور عمر فروخ (بيروت ١٣٦٦ هـ -
١٩٤٧ م) ص ١٩٢ .
(٣) اكفاه او ترخيم من شمال : ربيع شمالية .
(٤) دمي : جمع دمية ، وهي الصور الممثلة في المادة .
(٥) قدماً : مقاماً ، مرتبة عالية في التصوف .
(٦) الشابي ١٧٠-١٧١ .

هاهنا في قلبي الرحب العميق^١ يرقص المورت واطيف الوجود.
هاهنا تعصف احوال الدجى، هاهنا تعزف الحان الخلود.
هاهنا تمشي الاماني والهوى والاسى في موكب فخم النشيد.
هاهنا الفجر الذي لا ينتهي، هاهنا الليل الذي ليس يبديد.
هاهنا ألف خِصَمٍ نائر خالد الثورة مجهول الحدود.
هاهنا في كل آن تَسْجِي صورة الدنيا تبدو من جديد!

ثم يمل الشابي العيش في الدنيا مع الناس، حتى في بلاده وبين امته. وهو يرى انه يجب ان يعيش عيشة شاعر مع مظاهر الطبيعة: مع البلابل في الغابة، ومع النجوم والنهر، ومع الطير والضياء لا يفكر في الناس ولا فيما بهم الناس من أسباب وجودهم وعيشتهم. إن الاهتمام بالبشر سخافة وأفك وهراء.

لا ريب في ان مبعث هذا التشاؤم الشديد في نفس الشابي اشتداد الداء عليه وبأسه من الحياة، وخصوصاً بعد ان رأيناه في عدد من قصائده الغزلية والوطنية يجزع احياناً الى الأمل والاطمئنان. وانا لا اقول ان الشابي كان مطمئناً في اول امره ثم انقلب قلقاً. ولكنه كان منذ اول امره يتقلب بين الاطمئنان والقلق وبين الأمل واليأس. إلا ان قلقه وبأسه كانا مع الأيام يزيدان، وكان اطمئنانه وأمله ينقصان. وذلك واضح التعليل: إن صحته كانت في تأخر مستمر والخطر على حياته كان في ازدياد وبروز، وهذا ما جعل جانب اليأس في تفكيره يطغى ابدأ على جانب الأمل. هذه العوامل المعتلجة في قلب الشابي تبدو جلية في المقطوعة التالية^٢:

لبت لي ان اعيش في هذه الدنـ يا بعيداً بوحدتي وانفرادي .
اصرف العمر في الجبال وفي الغاـ بات بين الصنوبر الميـاد ،
لبس لي من شواغل العيش ما يصـ رف نفسي عن استماع فؤادي .

(١) كذا في الاصل (الشابي ١٧٠، البيت الثامن؛ الطبعة الثانية ص ١٨٨) ولا وجه لتسكين « العميق »
هذه المقطوعة ليست موشعاً حتى يصح تصريع آياتها. ولو قال: « هاهنا في قلبي الرحب المدى » لاستقام له المعنى
ولم يحتج الي الاخلال الوزن .

(٢) الشابي ١٩٧ .

اتغشى مع البلابل في العما ب وأصفي الى خريروالوادي ^١ .
 وأناجي النجوم والفجر والاط يار والنهر والضياء الهادي :
 عيشةً للجمال والفن ابغية ها بعيداً عن امتي وبلادي -
 لا أعنّي نفسي باحزان شعبي ، فهو يحيا بظلمة الآباد ؛
 حسب نفسي من الاسى ما لديها من طريف مستحدث وتلاد-
 وعن الناس ^٢ ، لا افكر في النا س ولا في حديث تلك النوادي .
 فهو من معدن السخافة والأف ك ومن ذلك الهراء العادي .
 ابن منه خريرو تلك الينايب مع الجوارري وشدوتلك الشوادي ^٣ ،
 وحفيف الغصون نبقها الطل وهمس النسيم للاوراد ^٤ .
 هذه عيشة تقدسها نق سي وأدعو لمجدها وأنادي .

(١) الوادي : النهر .

(٢) يبدو ان ثمت بيتاً سابقاً قبل هذا البيت .

(٣) يقصد : ابن الناس وحديث النوادي من خريروالينايب الخ ...

(٤) الاوراد جمع ورد .

التأمل في الحياة خاصة

إن « التأمل في الحياة » عامٌ في شعر الشابي ، وقد مرَّ طَرَفٌ منه في جميع الأبواب التي عالجاها مما يبرر الاستغناء عن هذا الفصل هنا . إلا ان كثرة شعره الوارد في التأمل في الحياة يقتضي ان نفرد له فصلاً خاصاً .

إذا كان نظر الشابي الى الحياة متأثراً بمرضه ، فلا بد من ان يكون ذلك النظر تشاؤماً محضاً ، وإن كان فيه - بين البيت والبيت - شيئاً من التفاؤل . ولقد نظر الشابي ، حتى في طوره الأول قبل ان يبلغ العشرين ، الى الحياة نظرة سوداء فبدأ في شعره قلق عميق وحيرة امام حوادث الأيام الجارية ، فكان شعره مزيجاً من التشاؤم والتفاؤل . ولكن التشاؤم كان أغلب وأوسع مدى . ولقد حير الشابي ان الحياة لا تتكلم ولا ترد على من يسألها ، ولكنها تعرض على اهلها دائماً كأسين احدهما مملوءة بالهناء والاخرى ممتلئة بالشقاء ثم تقف هي صامته . اما الانسان الغبي الجهول فيتناول عادة من يد الدنيا كأس الشقاء . بعدئذ يدرك الانسان انه اخطأ ، ولكن إصلاح خطاه يصبح متعذراً ، ذلك لأن الزمان يكون قد مر والعمر قد أوشك ان ينقضي والفرصة قد فاتت ، فلا يبقى للانسان حينئذ إلا اللوعة والأسى على تضييع ما ضيع من الفرص وعلى غفلته الاولى عن اغتنام وجه الحياة المشرق المرح . ويعود الشابي فيتساءل عن قيمة الحياة إذا كان كل ما فيها سيؤول حتماً الى الهدم والبلى ؛ بل ما قيمة العقل إذا كانت العقول توزع بين الناس بالاتفاق ثم لا يكون مع «العقل النير» إلا الشقاء ولا مع «العقل المظلم» إلا الجهل . وان الله هو الذي اراد للناس التعس لانه خلق الجهل وخلق الفهم .

(١) الاتفاق : هي الكلمة الفصحى لكلمة « صدقة » .

هذا المزيج المضطرب من الآراء ، وتلك الحيرة امام الحياة وامام الوجود نراهما في
قصائد الشابي الاولى ، كما نراهما في قصائده المتأخرة . فمن قصائده الاولى قوله ^١ :

ما الذي خلف الغيوم ... ؟

ما الذي خلف النجوم ... ؟

ما الذي يكتمه الدهر ، ويخفيه الغد ؟ ما الذي يحجبه غيم الحياة ... الأربد ؟
ما الذي خلفك بالليل ؟ أو بل ام سلام ؟ ما الذي خلفك يا ليل أنور ام ظلام ؟
هل سيبدو الفجر بساماً ، كعزراء الخلود تالياً انشودة الحب ، على سمع الوجود ؟
ام سيبدو من وراء الافق ، جباراً عتيد ينذر الايام - بالشر ، وبالغول المرید ؟
هل سيبدو الفجر ، يا ليل ! اذا جاء الغد وجناحاه إذا رف اللهب الأسود ؟
ويزيد القلق والتشاؤم في نفس الشابي وترید حيرته امام جريان الحوادث فينشد ^٢ :

ان من اصغى الى صوت المنون وصدى الاجداث
ليس تستهويه الحان الطيور ،
بين ازهار الربيع الساحرة ،
وابتسامات الحياة الساخرة ، عن جلال الله .

*

غنتي ، يا طير ، انتات الجحيم واسقني الآلام ؛
واترع ^٣ الكأس باوجاع الحياة ،
واسقني ، اني كرهت الابتسام .
غنتي ندب الاماني الخائبة واليبالي السود .

*

غنتي ، صوت الظلام المكتئب انني اهواه .
هاك كأس القلب فاترعه ^٣ نواح ؛

(١) سنوسي ٢٤٩-٢٥٠ .

(٢) سنوسي ٢٣١-٢٢٢ ؛ الشابي ١١٢-١١٣ .

(٣) واترع واترعه لا تستقيان في الوزن ، فيجب ان يكون مكانها : واملأ واملأه .

واسكب الحزن به حتى الصباح .
انه من طينة الحزن المرير صاغه الخلاق .

*

بئست الافراح افراح الحياة ، انها احلام .
تغلب اللب بألحان عذاب
وأغاريد كأملاك السما
ثم لا تلبث ان تذوي كما تذبل الازهار .

ثم يعلن الشابي رأيه في الحياة وانها صراع يداس فيه الضعيف . على ان هذا لا يمنع
ان يكون في الحياة بعض الرفق حيناً بعد حين . وهذه القصيدة ليست ضعيفة البناء فقط ،
بل هي ضعيفة الرأي ، ولكنها على كل حال تمثله وتمثل اتجاهه ١ :

ان الحياة صراع فيها الضعيف يداس
ما فاز في ماضئها الا شديد البراس ٢
للحب فيها شجون فكن فتى الاحتراس .
الكون كون سقاء ، الكون كون التباس .
الكون كون اختلاق وضجة واختلاس .
سيان عندي فيه الس رور والابتناس .

*

بين النوائب بون للناس فيه مزايا .
البعض لم يدر الا البلا ينادي البلايا ؛
والبعض ما ذاق منها سوى حقير الرزايا ٣ .
ان الحياة سبات سينقضي بالمنايا .

(١) سنوسي ٢٣٩-٢٤٠ ؛ الشابي ١١٤-١١٥ .

(٢) الماضعان : الفكاهة (الفم) .

(٣) حقير الرزايا : المصائب القليلة . يقصد : بعضهم تنزل به مصائب كبيرة وبعضهم تنزل به مصائب

صغيرة .

وما الرؤى فيه إلا آمالنا والخطايا .
فان تبقت كانت بين الجفون بقايا . . . ١ .

*

٢

*

الفجر يسطع بعد الدُّجى ، ويأتي الضياء ؛
ويرقد الليل قسراً على مهاد الصفاء ٣ .
وللشعوب حياة* حيناً ، وطوراً فناء .
الباس موت ، ولكن موت يثير الشقاء ٤ .
والجِدَّة للشعب روح* نوحى ° اليه الهناء .
فان تولت تصدت حياة للبلاء ٦ .

وفي القطعة التالية يتبع الشابي المعري ٧ في بعض لزومياته ٨ ، فلا يقف متسائلاً امام
مظاهر الحياة فقط ، بل يحكم على الناس بالبوار وعلى الحياة نفسها بقلة الجدوى ويأن الله
هو الذي اراد الشقاء لعباده ٩ :

ارى هيكال الايام يعلو شبيداً ، ولا بد ان يأتي على رأسه الهدم .
فيصبح ما قد شيد الله للورى خراباً ، كأن الكل في أمسه وهم .

(١) الحياة نوم وحوادثها احلام . وهذه الاحلام متفاوتة ولكنها كلها آمال تمنناها او اخطاء نرتكبها .
فادا استيقظ الانسان (نذره ، عرف الحقيقة ، مات) ، اصبحت حوادث الايام شيئاً قابلاً لا قيمة له .

(٢) هنا يأتي مقطع ركيك جداً وغامض .

(٣) ؟

(٤) يثير الشقاء « يحدث المصائب » عند الآخرين « عند اهل الميت لا عند الميت » .

(٥) في سنوسي ص ٢٤٠ ؛ وفي الشابي ص ١١٥ (الطبعة الثانية ١٣٣) : تومي ، ولعله خطأ .

(٦) الضمير في تولت يعود على الروح .

(٧) ابو العلاء المعري شاعر مفكر ولد ٣٦٣ للهجرة ، ٩٧٣ م ، وتوفي ٤٤٩ للهجرة ، ١٠٥٧ م .

وكان المعري متشامماً شاكراً .

(٨) اللزوميات مقطوعات متفاوتة الطول ملاءها المعري بتأملاته في الدهر والحياة والناس .

(٩) الشابي ١٢٧ .

فقل لي: ما جدوى الحياة وكرهها، وتلك التي تذوي وتلك التي تنمو؛
 وفوج تغذيه الحياة لبانها، وفوج غدا تحت التراب له ردم؛
 وعقل من الاضواء في رأس نابغ، وعقل من الظلماء يحمله فندم؛
 وافئدة حسرى تذوب كأبّة، وافئدة سكرى يرف لها النجم؟

*

لِنَعْسِ الرورى شاء الاله وجودهم فكان لهم جهل وكان لهم فهم .
 واستمر قلق الشابي وتشاؤمه بعد ان جاوز العشرين ، وقل عنده التفاؤل حتى ندر في
 اشعاره التي نظمها في طوره الثاني .

ثم عاد الى الشابي شيء من تفاؤله فنظم قصيدة من نوع الرباعيات وصف فيها حياته مع
 محبوبته في الطبيعة الجميلة وطلب من الأحداث ومن الموت نفسه ان تقف كلها بعيداً عنهما
 لأنهما سعيدان ١ :

قد سكرنا بجننا واكتفينا ، يامدير الكؤوس ، فاصرف كؤوسك .
 واسكب الخمر للعصافير والنخّل ، ل واخلّ الثرى بضمّ عروسك .
 ما لنا والكؤوس نطلب منها نشوة والغرام سحر وسكر .
 خلنا منك ، فالربيع لنا سا ق ، وهذا الفضاء كأس وخر .
 نحن نجيا كالطير في الافق السا جي وكالنجل فوق غضّ الزهور ،
 لا نرى غير فتنة العالم الحيّ واحلام قلبها المسجور .
 نحن نلهو تحت الظلام كطفلي ن سعيدين في غرور الطفولة ،
 وعلى الصخرة الجميلة في الوا دي وبين المخاوف المجهولة .
 نحن نغدو بين المروج ونعدو ونغتنى مع النسيم المغنّي ؛
 وتناجي روح الطبيعة في الكو ن ونصفي لقلبها المتغني .

(١) نهمي ٤٩-٥١ ، الشابي ١٦٣-١٦٥ .

نحن مثل الربيع نمشي على أر ض من الزهر والرؤى والخيال ؛
فوقها يرقص الغرام ويلهو ويعني في نشوة ودلال .
نحن نحيا في جنة من جنان اله حر في عالم بعيد بعيد .
نحن في عيشنا المورّد نتلو سور الحب للشباب السعيد .
قد تركنا الوجود للناس فلية ضوا عليه الحياة كيف ارادوا
وذهبنا بلبه وهو روح ، وتركنا القشور وهي جماد .
قد سكرنا مجبنا واكتفينا ؛ طفع الكأس فاذهبوا ، ياسقاة .
نحن نحيا فلا نريد مزيداً ؛ حسبنا ما منحنا ، يا حياة .
حسبنا زهونا الذي يتثنى ، حسبنا كأسنا التي نترشف .
ان في ثغرنا رحيقاً سماوياً وفي قلبنا ربيعاً مفوّف .
ايها الدهر ، ايها الزمن الجا ري الى غير وجهة وقرار ،
ايها الكون ، ايها الفلك الدوّ وار بالفجر والدجى والنهار ،
ايها الموت ، ايها القدر الاعّ حى ، قفوا حيث انتم اوفسيروا ؛
ودعونا هنا تغني لنا الاح لام والحب والوجود الكبير .
وإذا ما أبيتم فاحملونا وهيب الغرام في شفتينا ؛
وزهور الحياة تعبق بالعط ر وبالسحر والصبأ في يدينا .

وبعد هذا التفاؤل القليل يعود الشابي الى تشاؤمه الأول ثم يُغزق فيه حتى انه كَيْتَمَتْنِي
ان لو لم يكن قد وجد على هذه الأرض مكبلاً بالقيود حيث لا شيء إلا الشقاء السرمدى .
وأما إذا كان فيها مسرات فانها تغني وشيكاً حتى يحل مكانها عذاب مقيم ١ :
يا صميم الحياة ، إني وحيد مدلج ٢ نائه ٣ فأين شروقك ؟

(١) لمه ٥٢ - ٥٣ ، الشابي ١٩٣ - ١٩٤ .
(٢) مدلج : سائر في الليل « يسر عليه الاهتداء في مسيره » .

يا صميم الحياة ، إني فؤادٌ ضائع ظامي ، فأين رحيمك ؟
يا صميم الحياة ، قد وجَّمتَ لنا يُّ وغام الفضا فأين بروقك ؟
يا صميم الحياة ، اين اغايبك ؟ فتحت النجوم بصفي مشوقك .

*

كنت في فجري الموشح بالاحلام عطراً يرفُّ فوق ورودك
حالمًا ينهل الضياء ويصفي لك في نشوة يوحى نشيدك .

*

ثم جاء الدجى ، وأمستُ اورا فأبداداً^١ من ذبلات الورد ،
وضباباً من الشذا يتلاشى بين هول الدجى وصمت الوجود

*

كنتُ في فجرك المعلِّف بالسهرة فضاء من النشيد الهادي ،
وسجاباً من الرؤى يتهادى في ضمير الآزال والآباد ،
وضياءً يعانق العالم الرحمة وب يسري في كل خافٍ وباد .
وانقضى الفجر فأنحدرت من الأفق تراباً الى صميم الوادي .

*

يا صميم الحياة ، كم انا في الدجى يا غريب اشقى بغربة نفسي ،
بين قوم لا يفقهون اناشيد د فؤادي ولا معاني بواسي ؛
في وجود مكبل بقبود تائه في ظلام شك ونحس .
فاحتضني وضممني لك بالماضي فهدا الوجود علة ياسي .

*

لم اجد في الوجود إلا شقاءً سرمدياً ولذة مضمحلة^٢ ،
ووروداً نمت في قبضة الاشواك ؛ ما هذه الحياة المملة !

*

(١) بداد : متفرقة منشورة .

(٢) في فهمي من ٥٣ ، والثاني من ١٩٤ ضم هذا البيت الى الثلاثة التي تليه في مقطع واحد ثم جعل البيت الثاني رابعاً . ولعل الترتيب الذي افترجه اصوب .

وأمانيّ يُغرق الدمع احلا ها ويُغتبيّ يمّ الزمان صداها
واناشيدَ يأكل اللهب الدا مي مسرّاتها ويُبقي أساها

*

سأمٌ هذه الحياة مُعادٌ وصباحٌ يَكرُّ في إثرِ ليلِ .
ليتني لم أفيدُ الى هذه الدنا يا ولم تسبح الكواكب حولي .
ليتني لم يعانقِ الفجرُ احلا مي ولم يلبس الضياء جفوني .
ليتني لم أزل كما كنتُ ضوئاً شائعاً في الوجود غيرَ سجين !

وصمد الشابي للحياة ومصائبها فابتسم للعواصف وألقى عطره على الأحزان وغنى
بمجد الحياة نفسها وتغنى بالريبع وبالصبح ، ولكنه سيموت أخيراً فما فائدة ذلك كله ١ .

في جبال المومر أنبتُ اغصا في فرفرت على الصخور بجهدِي ٢ .
وتغشاني الضبابُ فأورق ت وازهرت للعواصف وحدي .
وتمايلت في الظلام وعطرتُ ت فضاء الاسى بانفاس وردي .
وبمجد الحياة والشوق غنيت فلم تفهم الاعاصيرُ قصدي .
ورمت ٣ لوهاد أفناني الحُض رَ وظلت في الثلج تحفر لحدي ؟
ومضت ٤ بالشذا فقلت لنفسي : ستغشي الرياح بالعطر مجدي !
وتغزلت بالريبع وبالفج ر ؛ وجاء الردي فماتم ٥ بعدي ؟

ويعجب الشابي حين يُولي الدنيا كل هذه العناية وهذا الاهتمام بينما هي سخافة
والناس مثل دنياهم ٦ .

لو كانت الايام في قبضتي أذريتها للريبع مثل الرمال .
وقلت : يا ربيعُ بها فأذهبي وبدديها في سحيق الجبال ،
بل في فجاج الموت ، في عالم لا يرقص النورُ به والظلال .

*

(١) الشابي ١٧٤ .

(٢) في الاصل : يجهد .

(٣ و٤) الضمير في « رمت » و « مضت » يعود على الاعاصير .

(٥) كذا في الاصل : تم (يقصد : ما حدث بعدي) . ويمكن ان تكون : ثم فيكون المعنى حينئذ :

اذا فعلت الاعاصير كل هذا ، فما يبقى في الحياة بعدي ؟

(٦) الشابي ١٧٥ .

لو كان هذا الكون في قبضتي القَبَيْتُهُ في النار نار الجحيم .
 ما هذه الدنيا وهذا الوري وذلك الافق وتلك النجوم ؟
 النارُ أولى بعبيد الاسبى ومسرح الموت و'عش' المهوم .

*

يا ايها الماضي الذي قد قضى وضمه الموت وليل والابد ،
 يا حاضر الناس الذي لم يزل ، يا ايها الآتي الذي لم يلد ،
 سخافة دنياكم هذه تائبة في ظلمة لا 'تحسد .

هذه الحياة التي هي سخافة تجعل منا جميعنا أضحوكة ، ذلك لأن كل واحد منا يمثل
 على مسرح الحياة يمثل دوره وهو يسخر من الناس ، بينما الناس انفسهم في الوقت نفسه
 يسخرون منه ٢ .

ضحكنا على الماضي البعيد ، وفي غدٍ ستجعلنا الايام اضحوكة الآتي .
 وتلك هي الدنيا : رواية ساخرٍ عظيم غريب الفن مبدع آيات .
 يمثلها الاحياء ، في مسرح الاسبى ووسط ضباب الهم ، تمثيل اموات ،
 ليشهد من خلف الضباب فصولها ويضحك منها من يمثل من يأتي ٣ .
 وكلُّ يُؤدِّي دوره وهو ضاحك على الناس مضحوك على دوره العاتي ٤ ؛

والناس لا يريدون المثل الأعلى إلا خيالاً مجرداً من المادة منقطعاً عن اسباب الحياة .
 فاذا هم رأوا ذلك المثل الأعلى يتحقق في شخص انكروه ثم اهانوا ذلك الشخص وسموه
 صنماً . إن البشر لا ينصف بعضهم بعضاً لأنهم يسرون بأهوائهم لا بعقولهم . فاذا
 كان فيهم رجل فذ عبقرى اهملوه ، فاذا مات ندموا على ان لم يكونوا قد وقوه حقه من قبل ،
 ثم مجدوا جسده وقبره ٥ .

(١) يقصد : لم يولد .

(٢) الثاني ١٩٥ .

(٣) ويضحك منها من يمثل من يأتي (?)

(٤) العاتي : المتجبر ، المتكبر ولكن ما معناها هنا ؟ مضحوك ، الاصح : مضحوكاً .

(٥) الثاني ١٩٦ .

ما قدّس المثل الأعلى وجَمَلتهُ في أعين الناس إلا انه حَلُمٌ .
ولو مشى فيهمُ حياً لخطبته قوم وقالوا بحُبث : انه صم .
لا يعبد الناس إلا كل منعدم مُنَمَّعٍ ؛ ولن حاياهم العدم .
حتى العباقرةُ الافذاذ حِيَّهمُ يلقى الشقاء ؛ وتلقى مجدها الرمم^٢
الناس لا ينصفون الحي بينهم ، حتى اذا ما توارى عنهمُ ندموا .
الويل للناس من اهوائهم ؛ أبداً يمشي الزمان وروح الشرّ تستخدم .

ويجرّدُ الشابيُّ من المثل الأعلى صورة روحية ربما نظرنا إليها على انها المرأة « المثل الأعلى في النساء » او على انها روحه هو وعبقريته . ويخاطب الشابي هذه الصورة الروحية ثم ينعي على الناس سلوكهم ، فهم خالق مفسدون غير رشيدين وهم كالقروذ لا يدركون جمال الغناء ولا جمال الورود . اما « هي » فانها لم تخلق ليقرب الناس منها (ويفهموها) بل ليعبدوها (من غير ان يدركوا كُنْهها)^٣ .

انت كالزهرة الجميلة في الغا ب ولكن ما بين شوّك ودود .
والرياحين تحسب الحسك الشريرَ رَ والدودَ من صوف الورود .
فأفهمي الناس ؛ إنّما الناسُ خَلَقُ مفسد في الوجود غير رشيد .
والسعيد السعيد من عاش كالإل ل غريباً في اهل هذا الوجود .
ودعيهم يَحْيَوْنَ في ظلمة الازم م وعيشي في طُهرِك المحمود ،
كالملك البريء ، كالوردة البيضاء ، كالوج في الحُضم البعيد ؛
كأغاني الطيور ، كالشفق السا حر ، كالكوكب البعيد السعيد ؛
كثلوج الجبال يغمُرُها النورُ رُ وتسو على عُبار الصعيد .

*

انت تحت السماء روح جميلٌ صاغه الله من عبير الورود ؛
وبنو الارض كالقروذ ، وما اخ يبعَ عطر الورود بين القروذ ا

(١) ولن حاياهم (عايشهم ؛ عاش معهم) العدم (الاغفال والاهمال والالكار) .
(٢) حيم يلقى الشقاء : العبقرى منهم يشقى ما دام حياً . وتلقى مجدها الرمم : يجود الناس رفات العبقرى بعد موته .

(٣) الشابي ٢٠٢ .

انت من ريشة الآله فلا تترك قبي بفن السها لجل العبيد .
انت لم تخلفي ليعتربك الناس ولكن لتعبيدي من بعيدا

ويظل الشابي حائراً في الحياة لا يستطيع فهمها ، فيفضل ان يموت وان يحفر قبره
بنفسه . بعدئذ يقول لقد جربنا الحياة كلها : حلوها ومرها ، صعبها وسهلها ، فلم نجد لها
قيمة . ثم بطلت فتنة الحياة ايضاً ، فماذا علينا - بعد ان جربنا الحياة - ان نجرب الموت ؟

نحن نمشي وحولنا هذه الاكوا ت نمشي ؛ لكن لأية غاية ؟
نحن نشدو مع العصافير للشمس ، وهذا الربيع ينفخ نايه ؛
نحن نتلو رواية الكون للموت ، ولكن ماذا ختام الرواية ؟
هكذا قلت للرياح فقالت : سل ضمير الوجود كيف البدايه !

*

وتغشى الضباب نفسي فصاحت في ملالٍ مر : إلى اين امشي ؟
قلت سيرني مع الحياة ؛ فقالت : ما جنينا - ترى - من السير امس ؟
فتهافت كالمشم على الارض ض ناديت : اين يا قلب رفشي ؟
هانبه عكثني أخط ضريحني في سكون الدجى وادفن نفسي !

*

هانبه فالظلام حولي رهيب وضباب الاسى منيخ عليا ؛
وكؤوس الغرام أترعها الفجر ر ولكن تحطمت في يدينا .
والشباب الغرير ولتى الى الماضى وخلصى النجيب في شفتينا .
هانبه ، يا فؤاد ، إننا غريبان ن صوغ الحياة فناً شجيا .

*

قد رقصنا مع الحياة طويلاً وشددونا مع الشباب سنينا ؛
وعدونا على الليالي حفاة في شعاب الزمان حتى دمينا ؛
وأكلنا التراب حتى ملبسنا ، وشربنا الدموع حتى روينا ؛

(١) نهمي ٦٠ - ٦٢ ، الشابي ١٩١ - ١٩٢ .

ونترنا الاحلام والحب والآلام والحزن بَسْرَةَ وميمنا .

*

ثم ماذا؟ هذا انا صرت في الدنيا يا بعيداً عن لهما وغناهما .
في ظلام الفناء أدفن آتياً مي ولا استطيع حتى بكاهما .

*

وزهور الحياة تموي بصمتٍ محزنٍ مُضَجِرٍ على قَدَمَيَا .
جف سحرُ الحياة ، يا قلبي الباكِي ، فهيا 'مَجْرَبُ' الموت هيا !

وأخيراً يزفر الشابي زفرة شديدة في وجه الدهر والناس في قصيدة موسومة باسم نشيد الجبار او هكذا غني بروميشوس^١ . وبروميشوس اله النار وموجد الحضارة الانسانية . وبعد ان صنع بروميشوس صورة الانسان من طين الارض سرق النار المقدسة من السماء حتى احيا بها صورة الانسان . وأراد زفس (او جوبيتر) ، كبير الآلهة عند اليونان ، ان يعاقبه فأرسل اليه باندورا^٢ - وهي المرأة الاولى في الأرض - وكانت قد جاءت معها من عند زفس الى زوجها أيميشوس بعلبة فيها جميع الشرور . فلما وصلت العلبة الى ايميشوس فتحها فانتشرت منها الشرور كلها ولم يبق في قعر العلبة المشؤومة إلا «الأمل» . على ان تيناينوس - والد بروميشوس - افسد المكيدة وحال دون وصول باندورا الى ولده . واخيراً امر زفس بارساله مقيداً الى جبال القوقاس حيث انقض عليه نسر والتهم كبده . ولكن هر كيوليس قتل النسر وأنقذ بروميشوس .

هذه القصيدة هي ثورة على الآلام في وجه الموت ، وتهكم على اعدائه الشامتين بمصارع العباقرة في الأرض . يقول الشابي لهؤلاء الشامتين انه سيظل حياً على الرغم من ان الداء ينخر فيه ، وانه سيظل يمرح ويغني ويؤدي رسالته على الرغم من انه يدنو من الموت رويداً رويداً .

(١) فهمي ٦٩ ، الشابي ٤٨ ، ٢١١٠ .

(٢) باندورا في الحرافات اليونانية تقابل حواء في الكتب المقدسة .

على ان هذا التجلد للمصائب وهذا التماسك امام عيون الشامتين يدلان على ان الشاعر
 فقد عنصر الأمل فأخذ يغطي بأسه بالتجلد والتماسك . انه كالسراج الذي يشع نوراً قوياً
 وضاه قبل ان ينطفئ الى الأبد . وهكذا استجمع الشابي كل ما في نفسه من قوة الارادة
 ليقول لأعدائه للمرة الأخيرة انه لا يهاب الموت الذي يدنو منه بخطى ثابتة سريعة . ان
 الموت - كما يذكر الشابي في هذه القصيدة - سيتناول جثته ويمثل بها . اما روحه فستنفلت
 من هذه الجثة الى حيث « الشمس والشفق الجميل » ، الى حيث خلود النفوس العبقريّة .
 ان الأعداء الشامتين سينتقمون برجم ظله ، اما « هو » فلن يمسه بسوء . بمثل هذه الروح
 تجيش في صدر الشاعر العظيم المؤمن بخلوده ينشدنا الشابي :

سأعيش رغمَ الداءِ والاعداءِ	كالنسر فوق القِمةِ الشِّماءِ .
أدنو الى الشمسِ المضيئةِ هازئاً	بالسحبِ والامطارِ والانواءِ .
لا ألمع الظلَّ الكئيبَ ولا ارى	ما في قرارِ الهوةِ السوداءِ .
وأسير في دنيا المشاعرِ حالمأ	عَرْداً ، وتلك طبيعة الشعراءِ .
اشدو بموسيقى الحياةِ ووحبها	وأذيبُ روح الكونِ في إنشائي .
وأصيح للصوتِ الالهيِّ الذي	يحني بقلبي مبيتَ الاصداءِ .
وأقول للقدرِ الذي لا ينثني	عن حربِ آمالي بكلِّ بلاءِ :
« لا يطفىءُ اللهبَ الموجِّعَ في دمي	موجُ الاسى وعواصفِ الارزاءِ .
فأصدُمُ فؤادي ما استطعتُ فانه	سيكون مثلَ الصخرةِ الصماءِ :
لا يعرفُ الشكوى الذليلةَ والبكا	وضراعةَ الاطفالِ والضعفاءِ ،
ويعيش كالجبَّارِ يرنو دائماً	للفجرِ ، للفجرِ الجميلِ النَّائي .
وأملأُ طريقِي بالخوافِ والدجى	وزوابعِ الاشواكِ والحصباءِ ،
وانشرُّ عليه الرعبَ وانثرُ فوقه	رُجُمَ الردىِ وصواعقَ البأساءِ .

(١) فهمي ٦٩ - ٧٠ ، الشابي ٢١١ - ٢١٣ . والقصيدة في « فهمي » مختارات فقط ، وهي أمّ في

سأظل أمشي رغم ذلك عازفاً قينارتي متوغماً بغنائتي ،
 أمشي بروح حالمٍ متوهجٍ في ظلمة الآلام والادواء .
 النور في قلبي وبين جوانحي ، فعلام أخشى السير في الظلماء ؟
 إني أنا الناي الذي لا تنتهي انغامه ما دام في الأحياء ؛
 وأنا الحُضَمُّ الرطب ليس تربده إلا حياةً سطوةً الأنواء .

*

أما إذا خمدت حياتي وانقضى عمري وأخرست المنية نائي^١
 وخبأ لهيب الكون في قلبي الذي قد عاش مثل الشعلة الحمراء
 غانا السعيد بأني متحوّلٌ عن عالم الآثام والبغضاء
 لأذوب في فجر الجمال السرمدي وارنوي من منهل الأضواء
 وأقول للجمع الذين تجشوا هدمي وودّوا لو يجرؤ بنائي
 ورأوا على الأشواك ظلي هامداً فتوهموا اني قضيت ذمائي^٢
 وغدوا يشبون للهب بكل ما وجدوا ليثووا فوقه أشلائي
 ومضوا يمددون الحوان لياكلوا لحمي ويرثفوا عليه دمائي ؛

*

إني أقول لهم بصوت حالم ، وعلى شفاهي بسمة استهزاء :
 « إن المعاول لا تهتد مناكبي ، والنار لا تأتي على أعضائي .
 حتى ولو أمسيتُ جسماً مبيّناً ملقياً لعصف الزعزع النكباء^٣
 فارموا الى النار الحشائش والعبواء ، يا معشر الاطفال ، تحت سمائي .
 وإذا تمردت العواصف وانتشى بالهول قلب القبة الزرقاء ،
 ورأيتوني طائراً متوغماً فوق العواصف في الفضاء النائي ،
 فارموا على ظلي الحجارة واخفقوا خوف الرياح الموحج والأنواء .

(١) في الطبعة الاولى (ص ٢١٢) والثالثة (ص ٢٣٠) : نائي ، وهي نائي (مزماري) .

(٢) الدماء : بقية الروح في الجسد (يقصد : مت) .

(٣) الزعزع : الريح الشديدة التي ترزعع كل شيء . النكباء : التي تهب من كل مكان اي تدور وهي تهب .

وهناك في أمن البيوت تبادلوا
وترغوا ما شئتم' بشتائمي ،
أما أنا فأجيبكم من فوقكم ،
من جاش بالوحي المقدس قلبه
غثّ الحديد وميت الآراء ،
وتجاهروا ما شئتم' بعدي .
والشمس والافق الجليل لذاتي :
لم يحتفل بحجارة الفلتاء .



(١) في القاموس : التلوت هو الشيء القصير الذي لا ينضم طرفاه من قصره .

ادياه المهجر ٧ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٠
 اده - اميل ١٣٨
 اسحق ١٤٩ ح
 اساعيل ١٤٩ ح
 الاساعيليون (العرب) ١٤٩ ح
 اشعب ٢٤ ، ٧٣ م
 الاشوريون = التياراتيون
 اصحاب الرسائل والمقامات ٧٨
 الاصفاقي - ابو الفرج ٧٣
 اقبال - عباس ٢٨
 ام احمد = عسقلان - فوزية
 ام جعفر = طوقان - سامية
 ام أوفى ١٣٠ ، ١٣٠ ح م
 امرؤ القيس ١٣١ ، ١٣١ ح
 الامويون = بنو امية
 الامير = شوقي
 الامين (اسم مستعار) ٥٥
 امين = الحسيني - الحاج امين
 انطونيو ١٥٠ ح م
 الانكشارية ١٤ ، ١٤ ح
 الانكليز ٣٤ ، ٣٤ ح م ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،
 ١٠٧ ، ١١٠ ح ، ١١١ ، ١١٢ م ، ١١٦ ،

١١٦ ح

اول الخلفاء الراشدين = ابو بكر

ب ت ث

البارودي - محمود سامي باشا ٧
 البارودي - نديم ٣٠ م
 البارودي - الدكتور وجيه ٣٠ ، ٣٢ ،
 ١٠٠ م ، ١٠٠ ح ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٢ ح م
 باسانو ١٥٠ ح م
 باندورا ٢٤٩ م ، ٢٤٩ ح
 البجالي - اسكندر الحوري ٧٣
 البحري ٧
 البعيري - رأفت ٣٢
 بخازي - جبران ٢٨

بديع الزمان الهمداني ٧٨
 البعير - عبدالرحمن ٣٦ م ، ٣٧
 بروتوس ٤٩
 بروميتيوس ٢٤٩ م
 بشار بن برد ٧١ ، ٢١٨
 بكر ٥٣
 بلقيس ٩٩ م
 بنتويش - نورمان ١١٩
 بنو اسد ١٣١ ، ١٣١ ح
 بنو امية ١٣٢ ح
 بنو العباس ١٣٢ ح
 بنو هاشم = آل هاشم
 بها - بها - بيه ١٠٠ م
 يورثيا ١٥٠ ح
 بيرون ٧
 تغلب ٥٣
 تقي الدين سعيد ١٢٧
 التير - احد ١٢٧
 التياراتيون ١٣٥ ح م ، ١٣٦ ، ١٣٦ ح م
 تين - أليس ٣١ ح
 تين ليلي ٣١ ح ، ١٠٣ م
 تينانيوس ٢٤٩

ج - ح - خ

جبران - جبران خليل ١٦٥ ، ١٧٠ م ،
 ١٧٠ ح
 جبريل ١٣٧
 جبور - جبرائيل ٢٨
 الجرار - بنو = آل الجرار
 جزير ٢١٨
 الجزيري - حسين ١٨١
 جمجوم - محمد ١١٧ ، ١١٨ - ١١٩
 جبل - حافظ ٣٠ - ٣٢ ، ١٠٢ ، ١٠٢ ح م
 الجندي - انور ٦٩
 جوبيتر ٢٤٩
 جورج الخامس ١٣٥ ح
 جورج - لويد ١٣٢

ذ ر ز

- حافظ ابراهيم ٧
 حياية ٤٣، ٤٣ ح
 حبوب - سنية ٨٣، ٨٣ ح
 حجازي - فؤاد ١١٨ م
 حجر (والد امرى القيس) ١٣١ م
 الحسن بن هاني = ابو نواس
 حسين باي ١٥٣
 الحسين بن علي بن ابي طالب ١٣٢ ح
 الحسين (شريف مكة) ١٢٩ م، ١٢٩ ح
 ١٣٢ - ١٣٢، ١٣٤ ح
 الحسيني - الحاج امين ١٠٥، ١٠٩، ١١١ م
 ١١١ ح م ١٢٩، ١٣٠
 الحسيني - رجائي ٣٦، ٣٧
 الحسيني - موسى كاظم باشا ٧٩ م، ١٠٩،
 ١٢٩ - ١٣٠، ١٣٩، ١٤٠
 الحكيم - توفيق ٧٣ م
 حكيم، حكيمان - هنريت ٨٣
 حلمي = فروخ - آمنة حلمي
 حوا - حسن ٣٢
 حوا ٩٦، ٩٩، ٢٤٩ ح
 الجباريون ١٣
 الخالدي - احمد سامح ٤٥ - ٤٧
 الخالدي - حسين ٤٥، ٤٦
 الخالدي - نظيف ٤٥
 الخطيب - فؤاد باشا ١٣١، ١٣١ ح
 الخطيب - كتمان ٣٦ - ٣٧
 الخماش - الشيخ ابراهيم ابو الهدى ١٨ م
 الحوري - بشارة عبدالله (الاخطل الصغير)
 ١١٩، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦
 الحوري - رشيد سليم ١٧٠، ١٧٠ ح
 خوري - وداد (قرطاس) ٣٢
 خباط - الدكتور جورج ٢١، ٢٤، ٩٨،
 ٩٨ ح
 الحيام - عمر ١٦٥

س ش

- ساره ١٤٩ ح م
 سبط بن التعاويذي ٧
 سكبنة بنت الحسين ٧٣
 سفتنغ ١٨٧، ١٨٧ ح ٢٠٤، ٢٠٤ ح
 سلام = آل سلام
 سلام ٤٣ ح
 سليم الاول العثماني ١٥٢
 سليمان بن داوود ٩٩
 السنوسي - زين العابدين ١٦١ م، ١٦٢،
 ١٦٥
 سيويه ١٤٧، ١٤٧ ح

سيد المرسلين = رسول الله

سيف الدولة ٦٤ ح

الثاني ٥ - ٨ ، ١٥١ ، ٢٥٢ ، ١٥٥ -

٢٥٢

الشاعر القروي = الخوري - رشيد سابم

شبلو - محمد ٣٦ ، ٣٧ م

شرارة - حسن ١٨٦ - ١٨٧

شعراء بني العباس ٥٩ ، ٣٦ ، ١٣٠ ، ١٦٧ م

الشعراء الرومانيكيون ١٦٧

الشعراء الجاهليون ١٦٧

شكبير - م ١٥٠ ، ١٥٠ ح

شمون = ماز شمون

شهاب الدين ابو شامة = ابو شامة الدمشقي

الشكمة = آل الشكمة

شوقي - احمد ٧ ، ٣٣ ، ٦١ ح ، ٧٤ - ٧٥

١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٦ ، ١٤٦ ح

شيلوخ ١٥٠ ، ١٥٠ ح م

شيلي ٧

ص ض ط

صبرا - وديع ١٢٤

صريع القواني (مسلم بن الوليد) ٥٩ ، ٣٠

صلاح الدين ٧٤ م ، ١١١

الصليبيون ١١١

الصواف - حسني ٢٨

ضوءط - جبر ١٣٨ م ، ١٣٨ ح

طارق بن زياد ١٢٤ ، ١٢٤ ح

الطبري ٧٢

طوق = آل طوق

طوقان = آل طوقان

طوقان - ابراهيم ٥ - ١٣ ، ٨ - ١٥٠

(طوقان) - ابراهيم آغا الشريجي ١٤

طوقان - احمد ١٥ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ م ،

٢٠ ، ٢٠ ح ، ٣٥ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٤ م ،

٤٤ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٠ ، ٧٦ ، ٨٩ ، ٩٠ م ،

٩٠ ح ، ٩٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ح ، ١٣٠ ،

١٤٩ .

طوقان - ادبية ١٥

طوقان - بندر ١٥ ، ١٥ ح

طوقان - جعفر ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠

طوقان - حافظ ١٣٩

طوقان - حنان ١٥ ، ١٥ ح

طوقان - داوود آغا ١٨

طوقان - رحمي ١٥ ، ١٦ - ١٧ ، ٥٧ م ،

٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠

طوقان - سليمان بك ٤٨ ح

طوقان - عبدالفتاح آغا ١٤ ، ١٥ ، ١٥ ح ،

١٦ م ، ١٦ ح ، ٣٥ م ، ٣٦ ، ٤٧ ، ٥٢ ،

٥٣ ، ٥٤ .

طوقان - عريب ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠

طوقان - فتوى ١٥ ، ١٥ ح م ، ١٧ - ٥٠ ح ،

٧٦ ح ، ١٠٤ ، ١٠٤ ح ، ١٥٠ ح

طوقان - فتايا ١٥

طوقان - قدرتي حافظ ٤٣ ، ٤٣ ح ، ٦٠ ،

٧٦ ، ٧٦ ح ، ٧٩ - ٨٠

طوقان - كريمة ٧٢ م

طوقان - عمر ١٥ ، ١٧

طوقان - يوسف ١٥

ع غ

عائشة (زوج الرسول) ٧٢ - ٧٣

عائشة بنت طلحة ٧٢

العباس بن الاحنف ٧٠ ، ٣٠ ، ٧٢

العباس بن مرداس ٤٩

العباسيون - بنو العباس

عبدالله بن الحسين (ملك الاردن) ١٣٠ - ٢٣١

عبدالكريم الخطابي - الامير ١٢٢ - ١٢٣

عبدالمهادي = آل عبدالمهادي

عبدالمهادي - روجي ٥٢ م

عبدالمهادي - سامية = طوقان - سامية عبدالمهادي

عبدالمهادي - قاسم ٥٢

عبوشي - برهان الدين ١٠٤ ، ١٠٤ ح م ،

فيليل - احمد ١٢٥
 فيليل - محمد ١١٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥
 فهيمي - محمد ١٦٠ ، ١٦١ م ، ١٩٣
 ٢٠٤ م ، ٢١٠ ح
 فهيمي - منصور ٣٣
 فوز ٩٧ - ٩٧
 فيرلس ٤٩ ، ٤٩ ح
 فيصل الاول ٨١ ، ١٢٩ ، ١٣٠ - ١٣١ -
 ١٣٧
 القاسم - جمال ٤٢ - ٤٣ ، ٦٣ ، ١٣٩
 قاسم - فؤاد ٦٤ ، ٦٤ ح
 قرطاس = الخوري (وداد الخوري المقدسي
 قرطاس)
 قريش ٣٠ ح
 قنيلات - عبد الرحيم ١١٢
 القوسي - احسان احمد ٨٣ - ٨٤
 القوسي - احمد ٨٤
 القيسية ٥٢

ك ل

كاتول - جبرائيل ٤٥
 كاسيوس ٤٩ ، ٤٩ ح
 الكاظمي - عبدالحسن ١٤٠ م
 كراين ١٢٣
 كرو - ابوالقاسم ١٦٠ ، ١٦١ - ١٦٢ ،
 ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧٠ ح ، ١٨٧ ، ١٩٣
 الكمكيان = ليكل
 كمنصو - جورج ١٣٢
 كنفج ١٣٢
 كوراني - حبيب ٣٩ م
 كولريديج ٧
 كينس ٧
 الكايندي - يحيى ٥١
 ليفي - ساره ٨٣
 ليلي = زين - ليلي

١٠٦ - ١٠٧
 الميثانيون = الاتراك الميثانيون
 العرب ٩٤ ح ، ١٠٧ م ، ١١٠ ، ١١٢ م ،
 ١١٤
 عرفات - غالب ١٠٠ م
 عريب (اسم) ٥٣ ، ٥٣ ح
 عقلا = آل عقلا
 عقلا - امين ١٥
 عقلا - فوزية (ام ابراهيم) ١٦ ، ١٧ ،
 ٦١ ، ٦٠ ، ٥٩
 عشي - رفيع ٦٠ ، ٦٠ ح
 عصي = المشوق - عبدالله
 علي بن ابي طالب ١٣٦ ، ١٣٦ ح
 علي بن الحسين (الملك) ١٣٠
 عمر = فروخ - عمر
 عمر بن ابي ربيعة ٧١
 عواد - توفيق ١٤٨ ، ١٤٨ ح
 غاندي ٨١ ، ١٣٥ ، ١٣٦ م ، ١٣٦ ح ،
 ١٣٧

غاندي ، غندي ١٠٩
 غمالين Gmaelin ، ٢٠ ، ٢٠ ح ، ٢٢
 غندور - الدكتور محمد روح ٥٨
 غورو ١٣٢

ف ق

الفايز - محمد ١٨١
 فروخ - آمنة حلبي ٦٠ م
 فروخ - عمر ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٧ ،
 ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٩ - ٦٢ ، ٧٧ م ، ٧٩ -
 ٨٠ ، ٨٩ م ، ١٢٦ ، ١٢٦ ح ، ١٢٩ ، ١٣٩
 فروخ - مصطفى ٩٥ م
 فريجة - انيس ٢٨ ، ٣٧ ، ٣٨ ح ، ٣٨ ،
 ٣٨ ح
 فريد ١٤٨ ، ١٤٨ م
 فريز - حسي ٦٣

م ن

النصولي - يحي الدين ٦٦ ، ٦٦ ح
 نجار - حليم ٢٨ ، ٢٨
 نجم - محمد ٢٧ ، ٢٨
 النزارية ٥٢
 زهدة - امين ٣٦ ، ٣٧
 النشاشي = آل النشاشي
 النشاشي - راغب ١١١ ، ١١١ ح
 نسيمة - ميخائيل ١٨٠ م
 النقاش - زكي ٦٠ ، ٦٠ ح
 التكددي - عارف ١٧٠ ح
 نور الدين ٧٤
 نويري - الدكتور محمد خير ٢٤ ، ٢٤ ح
 ٢٥ ، ٢٩ ح ، ٦٩ ح
 نيكل (أ.ر.) الالهة ٤٠ ، ٤٢ ، ٧٦ ، ٧٦ ح
 نيكولي - ادوارد ٣١ ، ٣١ ح

ه و ي

هاجر ٧٦ ، ١٤٩ ، ١٤٩ ح
 هاتم = آل هاتم
 هاتم - ابراهيم باشا ١٣٠
 هاتم - احسان ٤٩ ، ٤٩ ح
 هاتم - الشيخ فهمي ١٨ م
 هر كيوليس ٢٤٩
 هل - عائشة ٧٢
 هل - يوسف ٥٤ ح ، ٧٢ م
 الهمداني = بديع الزمان الهمداني
 الهشري ٢٠٤ ح
 وايلد - اوسكار ٩٦ ح ، ٩٦ م
 ولادة بنت المستكفي ٩٤ ، ٩٤ م
 الوليد بن عبدالمك ١٢٤ ح
 الوليد بن يزيد ٤٣
 ويلسن - ودر ١٣٢
 ياسين - عبدالحميد ٨٠ ، ٨٢ ، ٩٦ م
 يزيد بن عبدالمك ٤٣ ح

مار شمعون ١٣٥ ح ، ١٣٦ ، ١٣٦ ح م
 ماروي (م.س) ٣٢ - ٣٣ ، ٨٣ ، ٨٤
 ٩٢ - ٨٤
 الامون ٨٣
 المنني ٦٤ ح ، ١٣٨ ح ، ١٤٠ م ، ١٤٠ ح
 ١٤٧ - ١٤٩
 المحاسني - زكي ٦٨ ، ٦٨ ح
 محمد رسول الله = رسول الله
 محمد = هجوم - محمد
 محمود الثاني (العثماني) ١٤
 محمود - عبدالرحيم ١٠٤ ، ١٠٤ ح
 مراد باي ١٥٣
 مرغريتا (راقصة اسبانية) ٤١ - ٤٢ ، ٩٧ - ٩٧
 مريم (اسم موضوع) ٢٥
 المستكفي الاندلسي ٩٤ ح م
 مسلم بن الوليد = مريع الفواني
 مشتاق - طالب ٥٦
 المشنوق - عبدالله ٩٨ ، ١٢٥ - ١٢٦
 المشنوق - مسلم ٢٨
 المرعي ١٦٥ ، ٢٤١ ، ٢٤١ ح م
 المقول ١٤
 المقدسي - انيس ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٢ ح ،
 ٣٧ ح ، ٣٩ م ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٦٤ ح ، ٧١ ،
 ٧٢ ح م ، ٧٣ - ٧٤ ، ١٠٥ ح ، ١٤٧ ،
 ١٤٧ ح ، ١٨٠
 المقدسي - وداد = الخوري - وداد قرطاس
 مكاھون - محفري ١٣١ ح
 ملاط - شبلي ١٢٣ م
 المماليك البرجية ١٤ م
 الموالي ١٣
 موسى ١١١ ، ١١٢
 نابلسي - حسن = هو طوقان - رحمي
 نخلة - رشيد ١٢٣ م ، ١٢٤ ، ١٢٤ م

اليهود ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٢ ،
١١٣ ، ١١٤

يهودا بن يعقوب ١٤٩ ، ١٤٩ م
يوسف ١٤٩ ، راجع ١٤٩ م

اليسوعيون ١٣٨

بولوس قيصر ٤٩

اليانية ٥٢ م



للمؤلف

دراسات قصيرة	الثلثون بالقروش اللبناني	دراسات اخرى	الثلثون بالقروش اللبناني
١ - الحجاج بن يوسف	(الطبعة الثانية) ٤٠	ابو نواس : دراسة ونقد	(الطبعة الثالثة) ١٥٠
٢ - عمر بن ابي ربيعة	(الطبعة الثانية) ٧٥	ابو نواس : مختارات	٥٠
٣ - عبدالله بن المقفع	(الطبعة الثانية) ٤٠	ابونعمان	١٠٠
٤ - الرسائل والمقامات	(الطبعة الثانية) ١٠٠	حكيم المعرة	(الطبعة الثانية) ٢٠٠
٥ - ابن الرومي	(الطبعة الثانية) ٥٠	عبقريّة العرب في العلم والفلسفة	(الطبعة الثانية) ٣٠٠
٦ - احمد شوقي	(الطبعة الثانية) ٦٠	الاسلام على مفترق الطرق	(الطبعة الثالثة) ١٥٠
٧ - ابن خلدون	(الطبعة الثانية) ٥٠	نحو التعاون العربي	١٠٠
٨ - اثر الفلسفة الاسلامية	(الطبعة الثانية) ٧٥	دفاعاً عن العلم	(نقد)
في الفلسفة الاوروبية	(الطبعة الثانية) ١٢٥	دفاعاً عن الوطن	٥٠
٩ - شعراء البلاط الاموي	(الطبعة الثانية) ١٢٥	الاسرة في الشرع الاسلامي	٤٠٠
١٠ - الفارابي : الفارابي	(الطبعة الثانية) ١٠٠	Das Bild des Frühislam in der arabischen Dichtung von der Hïgra bis Zum Tode Umars, 1-23 d. H. (622-644 n. Ch. Leipzig 1937.	600
وابن سينا	(الطبعة الثانية) ١٠٠	التبشير والاستعمار	٢٥٠
١١ - اربعة ادياء معاصرون	(الطبعة الثانية) ١٠٠	شاعران معاصران	٣٠٠
١٢ - خمسة شعراء جاهليون	(الطبعة الثانية) ١٥٠	الاسئلة الثلاثة (مشهد شعري تمثيلي للمدارس الابتدائية)	٢٥
١٣ - بشار بن برد	(الطبعة الثانية) ١٢٥	الثقافة الغربية في رعاية الشرق الاوسط	١٠٠
١٤ - نهج البلاغة	(الطبعة الثانية) ٥٠	سفينة الحيوانات (مغناة تمثيلية للاطفال)	نفدت
١٥ - اخوان الصفا	(الطبعة الثانية) ١٥٠		
١٦ - ابن باجه	(الطبعة الثانية) ١٠٠		
١٧ - ابن طفيل	١٢٥		
١٨ - التصوف في الاسلام	٢٠٠		
١٩ - الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب	١٥٠	يمكن الحصول على هذه الدراسات من :	
٢٠ - موضوعات محللة في تاريخ الفلسفة الاسلامية	١٠٠	السيد محمد الخوججة	
٢١ - ابو فراس	١٥٠	١٥ نهج باب المنارة - تونس	

ومن :

Messrs. LUZAC & Co. LTD

46, Great Russell Street,

LONDON, W.C.1.

England

بنانی

۱۰۰

۵۰

۱۰۰

۲۰۰

۳۰۰

۱۵۰

۱۰۰

(قد)

۵

۴۰

۶۰۰

۲۵

۳۰

۲

۱۰

۵

۵

۵

۵

۵

۵

۵

۵

۵

۵

۵

12

RECEIVED OF THE
TREASURY DEPARTMENT

FOR THE
PAYMENT OF



**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

NYU - BOBST



31142 02909 2361

PJ7864.U693 Z65

Sha'iran

PJ
7864
.U693
.Z65
c.1